شكري الميدي أجي

ARRESTED DEVELOPMENT

توقّف نموّ

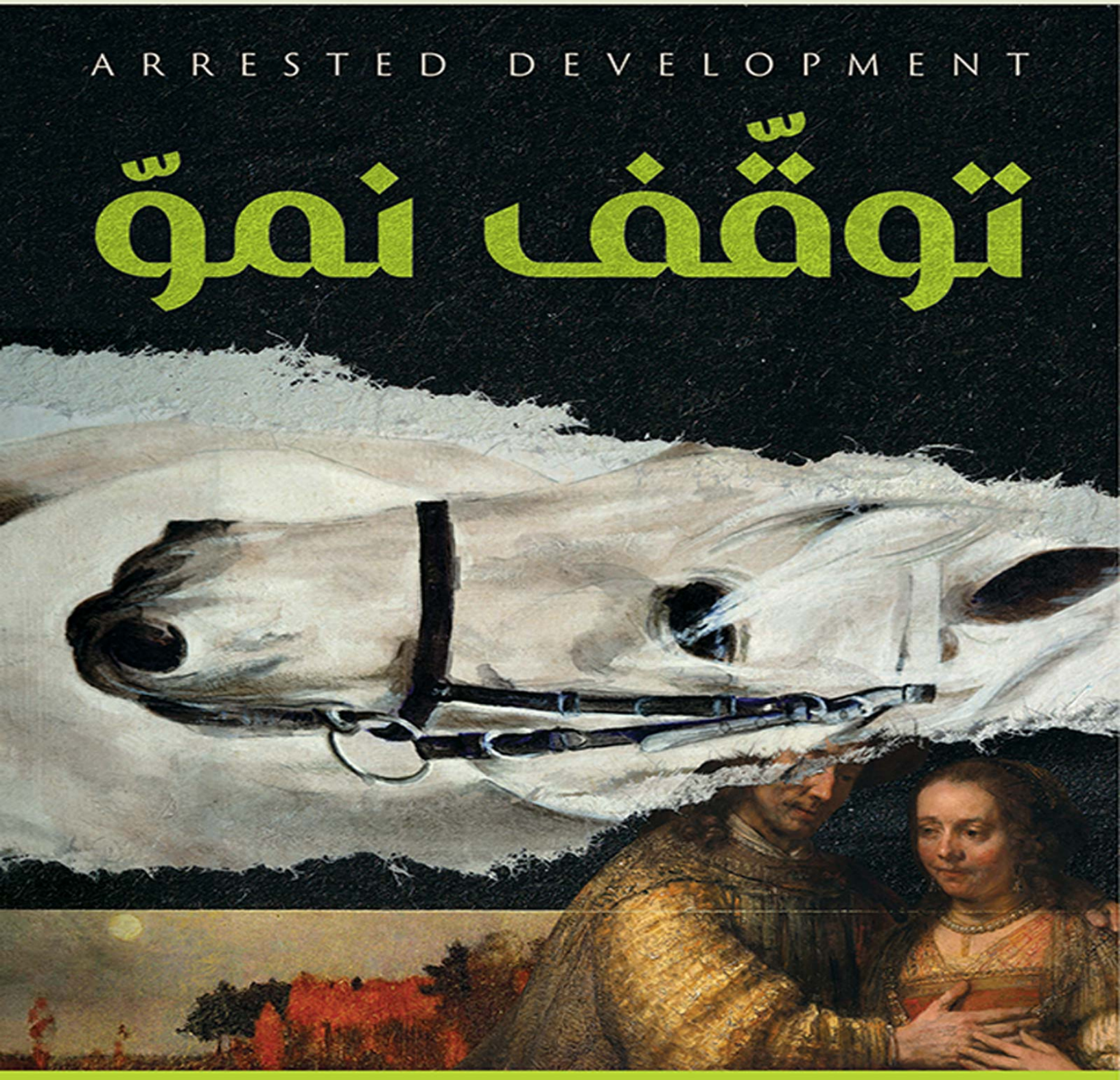

رواية

دار الفرجاني

شكري الميدي أجي

ARRESTED DEVELOPMENT

توقّف نموّ

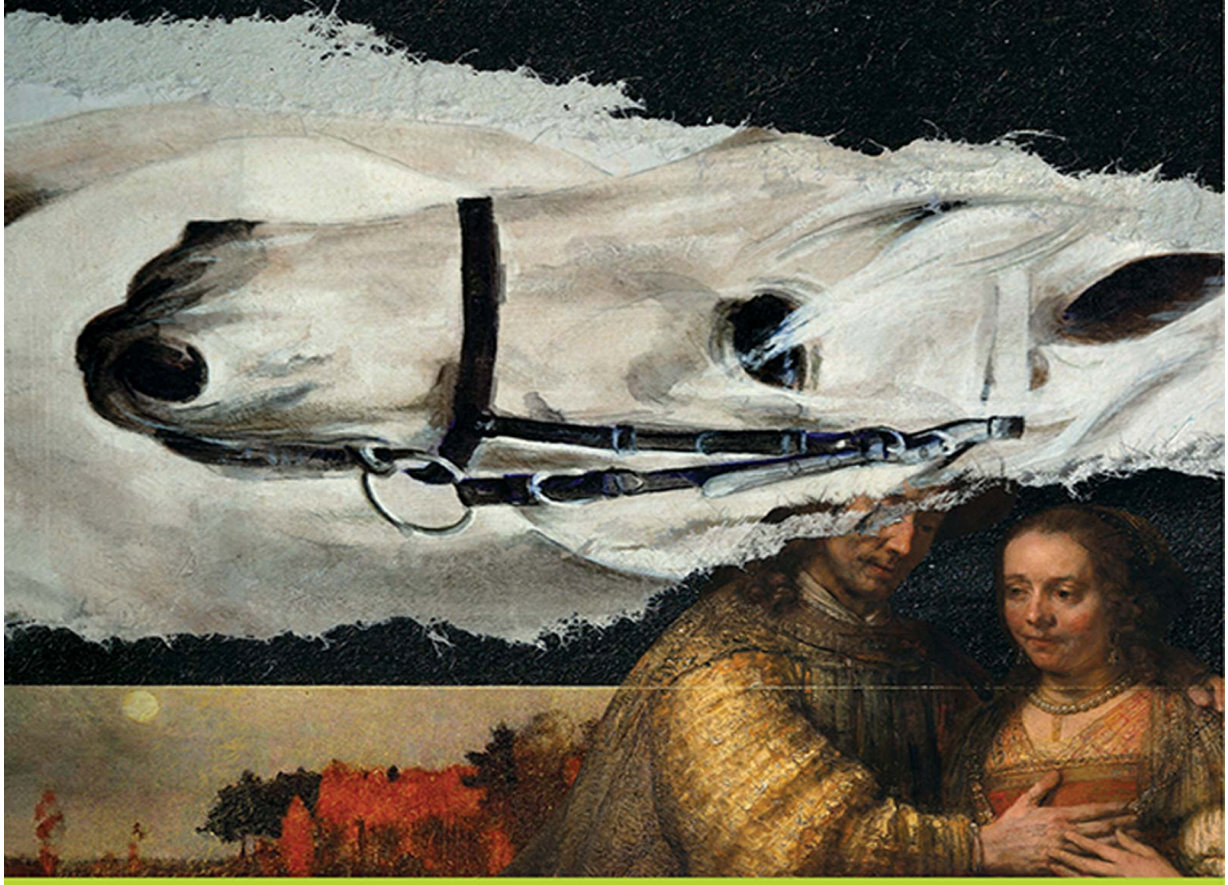

رواية

دار الفرجاني

توقُّف نموّ

شكري الميدي أجي

ولد في العام 1984 بالكفرة «تازر» – ليبيا. صدر له: المكتباتي– رواية، 2016. أسلوب جدي– رواية، 2016. جيرمي الإيطالي يفتتح حانةً في بنغازي– قصة قصيرة، 2017. شمس على نوافذ مغلقة (مشاركة ضمن أنثولوجيا أدب الشباب الليبي)، 2017. كم رئة للساحل (مشاركة ضمن انثولوجيا الشارقة – كتابات جديدة من العالم العربي 2019–2020).

شكري الميدي أجي

توقُّف نموّ

رواية

دار الفرجاني

دار الفرجاني

الطبعة العربية الثانية 2022

جميع الحقوق محفوظة للكاتب شكري الميدي أجي ©

ردمك ISBN 9789775496881

رقم الإيداع: 19491 / 2022

9 ميدان الذهبي

منشيه البكري

القاهرة

جمهورية مصر العربية

Tel: +20224174701

تصميم الغلاف: أحمد فرج

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

1

حين وصل إلى الكورنيش، بدأت الأمطار بالتساقط، كانت على هيئة زخات ريشية تهطل بخفة مع الرذاذ المتصاعد من الأمواج، فتحمل الرياح المزيج الحلمي لتصطدم بالجدران المحمية بالرخام الرمادي لمبنى محكمة الشمال، أثناء وقفتها العتيدة في مواجهة الأبيض المتوسط. لم تكن الشمس قد غربتْ بعد، بل بدأت الإشراق مئات المرات ضمن قطرات المطر. بدا له هذا المشهد رائعاً كأنه يستعيد قصص طفولته من فم والده.

رفع رأسه إلى الغيوم الداكنة بكميات المياه، إنما حوافها بدتْ مشعة. رأى الخيوط المضيئة تنساب بمحاذاتها منسكبة على سطح البحر في سيوف ضوئية لامعة، ليتحول قصديرياً مضطرباً. راقبه للحظات تبدل خلالها السطح للأحمر المتبدد، متوهجاً بالشفق. لطالما أعجب بهذا المنظر، فيه تفصيل من لوحة فنان أوروبي متعاطف، يغزوه الجنون. فنان يسكنه كالحلم، كالطموح لإحساس تعبيري يعجزه. لم يستسلم له قط. عاناه طوال السنين متخيلاً كل جزء منه حتى ملأ دفاتره بتفاصيله اللانهائية. ذكرياته، أجزاء صور مثبتة ضمن الصفحات الباهتة لدفاتره، يومياته، مخططات بيانية، رسومات أولية، توجيهات صارمة لضبط الإضاءة والألوان. لا شيء في الكورنيش يتوه عنه، جمع التفاصيل الضرورية على مهل مثل طير يبني عشه، الأفكار، المشاهد والظلال تُجمع الأغصان المتساقطة في الغابة.

كان يقارب الثلاثين، فيه لمحة غامضة، أصابعه النحيلة ترتعش توقاً كلما استعاد نتفاً من ذكرياته الطفولية. مثل كل شيء في عالمه، بدا كأنه وجد هنا بالمصادفة وحدها، فيما هو يضع جلداً بشرياً، للتمويه بلا شك. في إحدى لوحاته الذاتية المبكرة أوضح أن المصادفة كانتْ كبيرة. عاش لسنوات محاولاً فهم تلك المصادفة، عبثاً، إنها اللوحة الأشد تأثيراً في حياته، ظل يراها في نتف من أحلامه، مثل الزخات الريشية الممتزجة مع رذاذ الأمواج.

وقف عند المادة الإسمنتية، تطلع للأفق المتوهج، عدة سفن راسية بتتابع وقد زاد عددها عن اليوم السابق بسفينتين، بدتا جانحتين في عرض البحر. أخرج دفتره ودوَّن بخبرة السنين عن سفينتين جانحتين في الأبيض المتوسط. الرياح الباردة كانتْ مثل نهر سيبيري، والكورنيش شبه خالٍ، إلا من بعض الرواد المتحمسين للثورة. فتاة محجبة تكنس بهدوء بقايا العلب البلاستيكية والقراطيس التي تملأ الأرضية، شاب يقلب كيساً، رجل مع زوجته وأطفاله الثلاثة يستعدون للمغادرة، ومن بعيد عدد من الشبَّان بين الأزقة القريبة من الكورنيش، رتل من السيارات الواقفة، بعضها تُقل مخبرين سريين، منحوا أنفسهم للثورة.

هل أتى مبكراً أم تأخر كالعادة؟! سأل نفسه.

المواعيد بالنسبة إليه دوماً مربكة.

في تلك اللحظة انتبه لصوت المسن، التفت فوجده بقامته المتهالكة، كان على مسافة قريبة، يلوح له بيده في الهواء البارد، بدا مضحكاً وطفولياً. كان يرتجف من البرد، أسنانه تصطك.

«أليس هذا الجو متعباً لك؟». قال بصوت متعاطف.

«بلا غباء، كل شيء يتعبني».

«لكن هذا الجو..».

«قلت لا تهتم، اجلس». فرتب جلسته بهدوء وهو ينظر إلى رفيقه المسن، وجهه المتقلص من البرودة، ربما الألم، تطلع إلى عينيه المغمضتين، ببشرة جافة كثمرتي كيوي. عينان غائبتان. النتف التائهة من الشعيرات البيضاء على وجهه. شخص لم يحلق ذقنه لأسبوع، ملابسه الرثة جعلتْ منه أشبه بزاهد صوفي.

«ظننتُ أنك لن تأتي». قال المسن.

«ليس لديّ شيء أفعله، كان يجب أن آتي». قال الشاب.

«أعرف». قال المسن.

«نعم أنت تعرف كل شيء».

«لا، ليس كل شيء، غبتُ لخمس سنوات دون أن أعرف عنك شيئاً».

«يدهشني هذا». قال الشاب «ظننتُ أنك أنت من اختفى».

ضحك المسن.

في ضحكته تلك الرعشة المميزة، لم يعرف إن كانتْ بسبب البرد أم من كبر العمر، لكنه قال معللاً سبب غيابه: «قضيتُ سنتين أتردد على تونس، لدي مشاكل في عمودي الفقري، أراجع كل شهرين».

«هذا مرهق». قال الشاب بأسف.

«خصوصاً وأنني لا أقدر على البقاء في مكان واحد».

«لكنك فعلت كل هذه السنين».

«أستغرب هذا، ألا تشعر بالبرد؟».

«لا... لا بدَّ أنك تشعر».

«لا تهتم، أستغرب من عدم قدرتي على تجاوز ذاتي».

«كيف ذلك؟».

«أحياناً أظنني أعيش حياة أشخاص آخرين، ليسوا أنا عموماً، لا أستغرب من عدم قدرتي على احتمال دفقات البرد أو من عدم قدرتي على أكل اللحوم، بالرغم من أنني أشتهيها».

«أنت تهمل نفسك، هذا واضح».

«لا، كل شيء حولي مهمل، تجاوزت السبعين، لا أمتلك فرصة».

«لا أحد يعرف».

«بالأمس قتلوا واحداً من أصدقائي، أتصدق أنهم قتلوه فقط لأنه من الأمن الداخلي».

«هذا ما يحدث مؤخراً».

قال الشاب ولم يكن متعاطفاً في هذه النقطة، ولم يقدر على إخفاء هذا كما فعل مع اللحظات الأخرى. كانت الاغتيالات تجتاح المدينة. لم يكن هذا غريباً على أحد. الجميع كانوا يعرفون وحشية ما كان يحدث في طرقات المدينة في السابق، حتى تلك اللحظة يعرفون أن المعضلة ليست لحظة تجرد أو توبة أو حتى رغبات جنونية في الانتقام لاستعادة الحقوق، جزء كبير مما ظل يحدث يكمن سببه في الذاكرة، التي وجدتْ المدينة نفسها في خضمها بحيث لم تعد قادرة على نسيان كل ما حدث بسهولة، لا تستطيع أن تغفر أو تسامح، بدا كل هذا فعلاً فوق طاقة البشر.

«انتقموا منه بتهمة التعذيب». قال المسن بإيمان صادق «هذا الرجل كان الوحيد الذي ظل رافضاً لجلسات التعذيب في المؤسسة بأسرها، أن يُقتل بتهمة التعذيب بدا لي مأسوياً، قتلوه بسبع عشرة رصاص، كلها اخترقتْ جسده، عندما خرج من المسجد، أتصدق أنه يكبرني بخمس سنوات».

لم يعتقد الشاب بأن تصديق القصة بالحدث المهم.

كان المسن يهذي ويرتجف كالطفل، لم يتوقع أن يجده على هذا النحو، ابتسم في وجهه فيما هو يواصل التفكير، ابتسامة سرعان ما تلاشتْ، لتحل محلها تقلصات بشعة، لوجه مزرق من البرد بكتفين متدليتين، بدا عنقه بتلك البشرة المشابهة للعروق الناتئة مترهلاً ببشاعة كما أن الأوشام الصليبية المخضرة على يديه ظهرتْ قليلاً، بالرغم من محاولاته لدسهما في جيبي معطفه الرث الحائل الفضفاض وغير المتوافق مع جسده. بدا مثل متسول، كأنه خرج مباشرة من لوحته الكبرى، صورته الخيالية التي عمل عليها مطولاً.

2

عند الكورنيش، بالقرب منهما فتاة محجبة تواصل الكنس برتابة شديدة، لم يعد يرى ذلك، لم يعد قادراً على الالتفات بسبب تقلصات البرد. لكنه بدا مرحاً حين أضاف: «كُثرٌ هم الذين اختاروا موت أصدقائهم، أتصدق بأنه هناك من يقوم باختيار أبشع الطرق، أعني أبشع ما يمكن تصوره».

استمر الشاب في الصمت، محدقاً تجاه البحر، بدأ يغرق في ظلمة كثيفة فيما أخذت السفن الراسية عند الأفق تشع كالقصور التائهة، سمع الشاب زعيق نورس أحمق بالقرب منهما.

لا بدَّ أنه تاه كأكثر ما يحدث حولي.

هكذا فكر الشاب.

«خلال التسعينيات، قبضنا على مجموعة من ثلاثة إسلاميين». قال المسن راوياً من الذاكرة، فأحس الشاب بإبرة في قلبه، إنه يتذكر هذه النبرة: «قلنا لهم بوضوح، أمام واحد منكم فرصة النجاة، آنذاك كنا نحارب الإسلاميين بين الأحياء السكنية، قاتلناهم بوحشية، قلنا للثلاثة، لديكم ثلاث دقائق لتتفقوا على ترك واحد منكم حيّاً. مرت الدقائق ولم يتفقوا، لم يحاولوا أن يتفقوا، ظلوا يحدقون باندهاش، قمت بسحب سلاحي، أفرغتُ عدة رصاصات في رأس من ظننتُ بأنه أكبر سنّاً منهم، وجهتُ حديثي للاثنين: لديكم دقيقة واحدة لاختيار وسيلة لقتل الآخر. خلال ثانية اقترحا أساليب بشعة، كان الأصغر يدعى عيسى، أتذكر اسمه لأنه اقترح الميتة الأبشع، بأن نربط أطراف رفيقه بسيارتين تتجهان عكسيّاً وببطء، فيما اقترح الآخر أن ندفن أطراف رفيقه تباعاً، قنبلة يدوية مع كل طرف، نتركها تنفجر. في النهاية استخدمنا كل اقتراح على صاحبه».

استمع إليه الشاب بتقزز لم يقم بإخفائه، لم يكن يريد معرفة هذه القصص، بل حدق فيه بما ظنه المسن استماعاً لقصته الوحشية.

«إنها قصة حقيقية». قال بأسلوب هوليودي؟ كان يقلد آل باتشينو من فيلم (العراب) فيما طاف صمتهما تائهاً ضمن أصوات تكسر الأمواج على الرصيف الصخري، محركات السيارات المنطلقة في الأزقة الداخلية القريبة من ساحة المحكمة، بعض الشبان، في سيارة عابرة، بدؤوا برفع صوت موسيقى الراب في حفلة مفاجئة، تعود عليها الجميع، حين ظهرت السيارة من الشارع البعيد، كان يمكن ملاحظة ما كُتِبَ على زجاجها الخلفي: «لا أحد سياسي».

«لا أظنني أحتمل هذه الجلسة». قال المسن ضاحكاً ثم اقترح «تعال معي إلى الفندق، حيث أقيم». امتد بقامته عالياً لوهلة ثم انحنى في اللحظة التالية منهاراً مثل قائد مهزوم طقطقتْ عظامه، هز رأسه وتطلع للشاب الصامت كأنه يلغي أشياء مريعة من حياته، أوضح قائلاً: «فندق صغير ودافئ، أدفع القليل من الملل، أكتب وأحلم، لا شيء أكثر من الذكريات، لا شيء، أظنني فقدتُ شخصيتي دون علمي، لا بدَّ أن أستعيد كيف كنتُ في الخمسينيات، المياه من تحت الأرض، أرى هذا دوماً، الصفاء، الكثير من أحلام اليقظة، أبحث عن ذاتي بين ذكريات حزينة تطوف في رأسي حين أفتح عيني، أجد نفسي في غرفة دافئة بنزل لطيف خالٍ من المنغصات، وهذا يريحني».

بدا للشاب أن المسن بدأ يهذي مجدداً، فقال مجاملاً: «تبدو لي فعلاً مثل شخص من الأحلام، كأنك تتألق».

ابتسم المسن وهو يتحرك قليلاً، قام الشاب بعد خطوة أقدم عليها المسن، سارا بمحاذاة المادة الإسمنتية ووضع المسن يده على كتف مرافقه قائلاً: «في هذا العمر كل لحظة بمثابة تألق مستمر، نحن ملاحَظون بشكل دائم».

«قبل سنوات ظننتُ أنك تحاول التلاشي بين الجموع، كنتَ أشد تماسكاً». بدا الاستغراب الغاضب في لهجة الشاب حين قال هذا، ثم أضاف متداركاً بلهجة أقل حدة: «أعني كنتَ عدائيّاً قليلاً». عندما تنهد المسن تحت وطأة الذكرى، تدفق البخار من فمه مثلما يحدث أثناء نخرات الخيول في الأفلام الهوليودية.

كان الشاب بدأ يعتقد أن المسن في حالة «مَسْكَنة مثالية» للوحته التي عمل على تصميمها منذ سنوات. في ذهنه تلك الصورة عن حصان منهك وفي حالة مسكنة هائلة، بعد أن كان قويّاً معافى الجسد، إذ كان مخصصاً للعقيد الديكتاتوري، يجمح على ظهره خلال الاحتفالات القومية.

«لا تهتمَّ» قال المسن «لا أشعر بالإهانة، ليس معك، أدرك أنك محق ولا تقصد شيئاً، نعم عشتُ عدائياً، عشتُ هكذا دوماً، بالرغم من هذا لم أشعر بنفسي يوماً كإنسان حقيقي، كنتُ مزيفاً منذ السبعينيات، أعتقد أنني كنتُ أمتلك رغبة حمقاء في التلاشي، مؤخراً بدأتُ أشعر ببعض القيمة؛ فأنا مُعَدٌّ للاغتيال».

سارا لمسافة بسيطة، خطواتهما تدوي على القرميد. خف المطر، فبدا الميناء ساحراً. أصوات تكسر الأمواج خفَّتْ. حين قطعا الطريق إلى الجهة الأخرى بمحاذاة المحكمة تابعا بعضاً من تفاصيل البناء الخالي من المظاهر الجمالية، فقط ذلك اللمعان الخافت. داخل كل منهما تواريخ وتساؤلات مختلفة، إنما آراؤهما شبه متقاربة حيالها، بالرغم من ذلك. أدرك هذا قبل خمس سنوات، بالمصادفة خلال لقائهما الأول أو كما ظن أنها مجرد مصادفة.

خلال تلك الفترة كان المسن بدأ يعاني من معضلات نفسية، أشبه بانسحابات الإدمان، فقد أثناءها السيطرة على جسده، كان يصرخ خلال الليالي كما قال، ذكرياته كانت بشعة، إبعاده عن مناصبه في الدولة أضر به كثيراً، آنذاك كانت البلاد تعيد هيكلة ذاتها وقد تم وضع مصطلحات سياسية جديدة، مثل القطط السمان والحرس القديم.

قبل خمس سنوات أخبره عن حالة غريبة يمر بها، أثناء استلقائه يبدأ الشعور بأقدام رجال غرباء على رأسه كأنهم يركضون بلا توقف، خطواتهم تدوي مسببة له الألم في رأسه. إحساس غامض بدأ التسلل إلى صدره، بأنه على وشك السقوط النهائي، كان مفترساً ثم فقد قدرة الافتراس، آنذاك أصبح «هو نفسه» مجرد فريسة جاهزة.

لم يكن هذا سهلاً، حاول ثم حاول أكثر من ذلك، أن يعيد شخصيته، بداية من داخل البيت، إلا أنه ظل مجرد صوت عالٍ، يبعث على السخرية، فانسحب بنفسه بعيداً، عندها تذكر الشاب الذي التقى به ذات مرة، غرق في البحث عن ذكريات شخص ضبابي قابله لأسابيع قبل أن يختفي نهائيّاً، بحث عنه عبر الأرجاء، لسنوات طاف خلال شوارع بنغازي على الحافلات. قضى سنوات يرتاد دار الكتب الوطنية حتى شعر باليأس التام من إيجاده ثم وقعتْ الثورة. سقط الديكتاتور؛ فاختلط كل شيء بواقع مختلف وصلب. الالتقاء به مجدداً كان مصادفة كاملة. كم بدا سعيداً بإيجاده، أكثر سعادة من مُذنب تم تبييض سجله.

«كنتَ تعد لوحة عن حياتك». سأل المسن «هل أتممتها؟».

«لم أفعل بعد». أجاب الشاب. لحظة صمت، خطوات قليلة إلى الأمام، تابع خلالها الشاب الأضواء الكابية، ثم تساءل المسن: «هل ما زلتَ تعتمد التاريخ؟».

«نعم». قال الشاب «تاريخي الشخصي، أظن أنك تتذكر بعض التفاصيل، كيف هي ذاكرتك؟».

«أعتقد أنها جيدة». قال المسن وهو يضحك.

«إذن أنت تتذكر جزءاً من عملي».

«نعم». قال المسن «نعم أتذكر».

صمت تام. شيء من اللطف في الأجواء. سير بطيء. ظهر الميناء من مسافة ليستْ بعيدة، كان ما يزال متوقفاً. الأذرع الحديدية الصدئة ومحاولات يقوم بها البعض من أجل استعادة القليل من الحيوية، ولم يعد الحصان الأبيض موجوداً إلا في لوحته الشخصية، ممتزجاً مع لمحات من مشاعره الخاصة ظلتْ تائهة لسنوات، قبل أن يجد فرصة لجمعها مجدداً ضمن صورته الكبرى التي يعمل عليها.

3

داخل بهو الفندق الصغير، استقبلهما شاب تونسي، رحب بهما وهو يقدم مفتاح غرفته. تبادل مع المسن بعض النكات القديمة، كانتْ بذيئة، رد عليها المسن بنكات أفظع منها بذاءةً، ضحكا ثم اتجه إلى مكتب الاستقبال فيما صعدا الدرجات المغطاة بفراش مبطن. في الطابق الثاني ضمن الممر المضاء سارا على فراش عجمي يحوي قصصاً عن معارك أسطورية، فيها سهام نورانية ورماح مشتعلة في أيدي مقاتلين من العصور ما قبل التاريخ، كلهم في حالة هجوم دعائي.

فتح المسن باب غرفته، فبدتْ مكتظة بالموجودات، كراسي خشبية أثرية من ثقافات لم يميزها جيداً، لوحات مقلَّدة لرسامي عصور النهضة، كان مشهداً فنيّاً هو ما تكشَّف عنه فتح باب الغرفة.

ظل واقفاً عند المدخل لوهلة، فيما أخذ المسن يتحرك ببطء باتجاه النافذة، دخل الشاب بعدة خطوات، فتح المسن النافذة، تدفق التيار البارد مختلطاً مع أصوات الشبان في الأزقَّة المجاورة، دوماً موسيقى الراب بإيقاعات غاضبة. تذكر أنه التقى المسن عام 2007، إنها السنة التي تخلتْ فيها بنغازي عن الموسيقى المروكية، واتجهتْ إثر أحداث السفارة الإيطالية إلى إيقاعات الراب، تحركتْ الستائر المطرزة برفرفة مريحة.

سحب المسن كرسيّاً، ربت عليه طالباً منه الجلوس، فجلس الشاب متطلعاً لجدران الغرفة المألوفة، بتلك اللوحات المعلقة عليها، أعلى الأباجورات المزينة، الكتب المرتبة: مجلدات أفول واضمحلال الإمبراطورية الرومانية، مختارات الشعر الصيني، مجلدات ألف ليلة وليلة، مجموعة تاريخنا الموجهة للمراهقين، طوق الحمامة، تاريخ ألمانيا الهتلرية، تاريخ الصحراء الكبرى والحوليات الليبية.

كانت مجموعة متميزة تحمل خصائص من ماضٍ يعرفه جيداً، إنها ليستْ عشوائية، فيما كان الشاب يتأمل اللوحات والكتب، اتصل المسن بالاستقبال، طلب مشروبات وفنجاني قهوة مع فطائر. نزع معطفه الرث، علقه على المشجب، جلس على طرف سريره وهو يضحك مستمتعاً بشيء ما.

«أشعر بالراحة، كأني عدتُ شابّاً». قال مبتهجاً وهو يفرك كفيه «أتصدق، بعد سقوط النظام عدتُ لشبابي». كانتْ كلمة فيها مبالغة وتفاؤل، لكن الشاب ابتسم مكتفياً بكلمة واحدة: «غريب». فأضاف المسن بحماس متوتر: «أتعتقد أن هناك سبباً أو علاقة؟». فقال الشاب بنبرة شبه غاضبة، لم يكن يسيطر على مزاجه كأنه عاد سنوات إلى الوراء: «لا بدَّ أن هناك علاقة ما، هل شعرت بها؟». بدا أن المسن يتجاهل تلك النبرة.

«حدث هذا في الأسابيع الأولى». قال المسن وهو يرتب نفسه «مشاعري كانتْ مضطربة، لم أتوقع يوماً أن أحتفل بسقوط نظام ساهمتُ في إبقائه ولسنوات تعادل كل وجوده، في حالة القوة. ظللتُ لشهر محبوساً داخل غرفتي، كنتُ أعددتُ نفسي بعناية لتقاعد هادئ، ربما كنتُ سأقضيه في كتابة مذكراتي لأتخلَّص من العتمة الروحية التي تجتاحني. كنت لأنجح، لكنني فشلتُ. أعتقد أنه ليس هناك تقاعد في بلادنا. هناك موت، إنما ليس هناك أي تقاعد. عدتُ إلى مقر عملي بإحساس المنبوذ. استطعت أن أحوز على ثقة القدامى. لسبب واحد، هناك من يطلق عليهم الحرس القديم، أي نحن، إنها الحياة. شبان جدد متحمسون يخترقون المناصب، يتطوعون لأجل أي شيء، بلا أخلاقيات، وهم بلا هوية وطنية، يشبهون نسل زنا المحارم! تعرف، حين تزداد الأجيال شراسة، عندها يقل الاحترام، كانوا كذلك؟ بوسعهم قتل آبائهم، لديهم توق هائل للسلطة، أنت شاب لابد أنك تعرف بعضهم. في الستين ونواجه الشباب الشرس. توجَّب علينا الانتصار، بالقبيلة، بالعنف، بالتحالفات الخارجية، بإسقاط الأجزاء القوية من النظام، كان علينا أن ننتصر. كنا ضد الطبيعة نفسها، وكنا ندرك هذا. تصرف بطولي، أليس كذلك؟ تستطيع أن تلاحظ أنه كإحدى مرايا خورخي لويس بورخيس الوهمية. الآخر الأصغر سنّاً، تعرف أنه يشبهك، تعرف أنه أنت قبل ثلاثين سنة، لكنه لا يُدرك ذلك، كنا نمتلك تلك الميزة، نحن نعرف غيب مستقبلهم، مشاعرهم؛ لأننا مررنا بها، بكل بساطة وضعنا العظام في الأرز، كنا نعرقل كل شيء وننغص عليهم مسيرهم». هدأ المسن قليلاً ، عيناه محمرتان، شبك أصابعه شادّاً إياها بقوة ثم سأل: «أحياناً أظن أننا كنا سبب سقوط النظام، أتظن؟! لأنني أرغب في تصديق هذا». أحنى رأسه لوهلة ثم رفعه محدقاً في لوحة تظهر طفلاً صغيراً يبكي، اللوحة التي لطالما قيل إنها مشؤومة: «أنت كنت تتحدث عن التناقضات، إنها قمة ما حدث، التناقضات».

هز الشاب رأسه، ولم يتكلم. غرقا في الصمت.

عندما يتحرك المسن تحت وطأة ذكرياته، فإن الكرسي يصدر صريراً، عالياً، بدا كمؤثر صوتي من أفلام السبعينات. جو ثقيل في الغرفة، أشبه بمكتب للمافيا في شارع خلفي، إحساس عميق بالحنين. شبك أصابعه مجدداً، تراجع إلى الوراء ثم أمال رأسه يميناً وبدأ يبتسم. خارجاً خفتْ الحركة وعلا صوت هطول المطر، بنقرات أخذتْ تتزايد بتوالٍ، غدتْ بعد ثوان زخات متواصلة، استمر المطر بالهطول لدقيقة ثم هدأ كل شيء. دق أحدهم الباب.

قام الشاب لفتحه، فوجد النادل التونسي، دخل الغرفة بمرح شديد يحمل طلبات المسن، أطلق تحية موسيقية، وضع ما على السفرة من أطباق وأكواب فوق الطاولة، بخفة دائمة، اتجه ناحية النافذة، أحكم إغلاقها، نظر إلى المسن وقال بلهجة حانية: «لا يجب أن تتعرض للبرد، أنت تعرف». تطلع التونسي بحيادية نحو الشاب قائلاً: «هذا المسن يظن نفسه شابّاً». ضحك المسن ثم قال: «تعال وصارعني لنرى مَن منا الأكثر شبابا».

«أوه، لا، لا يجب أن أخطئ هذا الخطأ». قال التونسي وهو يركض خارجاً بأسلوب مسرحي، استغرق الشاب في الضحك وهو يتطلع لوجه المسن الجالس بصمت وقد بدا بالفعل أكثر شباباً. في اللحظة التالية كانا جالسين في كثافة صمتهما. إنه مختلف قليلاً. فكر الشاب في نفسه. قال مستدركاً: «أظن أنك مختلف جدّاً».

«للأفضل أم للأسوأ؟». سأل المسن.

«لا أعرف صراحة، تبدو مرحاً».

ضغط المسن بالسبابة والإبهام ما بين عينيه، تجمعتْ التجاعيد فيما ارتسم وجهه بملامح الصرامة مثل قاضٍ بلا رفقة تؤنسه. بدا كأنه يعاني من إجهاد التذكر أو كمن يُغالب ضغطاً داخليّاً، حسم أمره ونقل ما كانا يدوران حوله بمراوغة ثم سأل: «ماذا فعلت طوال هذه السنين؟ أين كنت؟». هرش الشاب ذقنه بباطن أصابعه للأسفل ثم قال محاولاً تفادي الاعترافات: «لا شيء سوى العمل على لوحتي، إنها كل حياتي، لا شيء آخر».

«تبدو ملتزماً». قال المسن. فرد يديه على اتساعهما وسأل: «حين تنظر حولك ماذا ترى؟». تطلع الشاب في أرجاء الغرفة، كل شيء بدا مألوفاً، أراد التحدث عن الكتب المكدسة، بدتْ أقرب للمكتبة التي يود جمعها يوماً، قبل أن يقول شيئاً أضاف المسن: «ألا ترى، إنها أجزاء من لوحاتك، ألا ترى؟». بدا الشاب مندهشاً تجاه كل شيء في الغرفة، اللوحات، الكتب والمجلدات. كانتْ معجزة حقاً حتى الإحساس. كان يجب أن يعرف. كيف لم يعرف أنه داخل لوحته، أفلتت منه ابتسامة، ضحك على إثرها المسن منتصراً. قام الشاب من على كرسيه، بعد أن وضع كوبه، سار عبر المكتبة، العناوين نفسها، لمس كل كتاب على حدة، بأنامله، التفت إلى المسن، قال له وهو متعجب من كل الحدث: «هل جمعت كل هذا؟». ضحك المسن كالأطفال ثم قال: «طوال السنوات ما بعد 2007 لم يكن بالأمر السهل، إنها أصعب من جمع الطوابع البريدية وأكثر متعة».

لم يكن أمام الشاب ما يقوله، لكنه التقط من فم المسن كلماته وسأل: «هل أقلعت عن جمع الطوابع البريدية؟».

«أكثر مجموعاتي النادرة قدمتها لك يومها». قال المسن بلا ندم: «في تلك اللحظة فقدتُ قدرتي على المنافسة». اقترب منه الشاب، جلس بمحاذاته فيما نقل المسن نظره إليه: «منافسة؟ ظننتها هواية». قال الشاب.

«لا تظن». رد عليه المسن «فلا أحد يجمع الطوابع البريدية لمجرد الهواية، دائماً هناك ذلك الجانب المظلم للرغبة في التميز والتفرد كلاعب الشطرنج. للتسلية لا، بل هي منافسة شرسة على كل حال». قام الشاب بهدوء، خطا عدة خطوات ثم قال مستغرباً: «لم يبدُ لي هكذا مطلقاً».

«إنها ليستْ مثل فكرة صناعة عالم باستخدام الصور، ما تفعله خالٍ من الأنانية والتباهي، إنه إبداعي، يمكن نقله إلى حياة الآخرين بسهولة، هذا ما حدث معي كما ترى، وجدته مذهلاً، ربما كان شافياً لحالتي، ثم إنني لا أجمع إلا تلك الطوابع التي تخلّد الإعدامات وطلائع الجيوش أثناء المجازر الجماعية في القرى الصغيرة».

«أنا مندهش بصراحة». قال الشاب: «كيف لم أتعرف على عالمي؟».

«هذا يحدث». قال المسن بضحكة قصيرة ماكرة فيما عقَّب الشاب سريعاً كأنه يحادث نفسه: «لكنني شعرتُ بأنها مألوفة».

عندها تقدم منه المسن حاملاً كوب عصيره، وضع يداً على كتف الشاب ثم قال: «صديقي، كلنا تحت إلهام من ماضينا».

عاد إلى كرسيه، ارتشف من عصيره منتصراً فيما أكمل الشاب جولته القصيرة والملهمة على المكتبة وبدأ التعرف بحماس شديد على عمله المفقود وغير المكتمل، الإلهام الذي شعر به ذات يوم.

ابتسامة بلهاء ارتسمتْ على وجهه، كل شيء يخصه كان موجوداً في هذه الغرفة، تذكر لحظات من حياته السابقة، محطات تشع كاللآلئ، أحس بأنه في منتصف كل شيء يهتم لأمره. كان إحساساً عميقاً بالاتحاد.

4

أثناء عودته إلى البيت، اختار طريقاً فرعيّاً، عبر عدة أزقة شبه معتمة، كانت الإضاءات الكابية تتسلل بخفوت من المنازل، لتضيء تلك الأزقة. مياه المطر تقطر من على النباتات الصغيرة المزروعة في أصص على النوافذ، السيارات المركونة أسفلها تلمع بحزن أنيق، أصوات الأطفال من داخل الحجرات تنفذ إليه متوارية مع وقع خطواته، بعيداً أشباح المارة، تمرق مسرعة في الشارع الرئيسي مغمورة بالضوء، قبضات مغروسة في جيوب المعاطف.

أحس كأن هناك مئات من الأعين تتلصص عليه، عندما التفت شاهد قسيساً في لباس بني طويل، في وسطه ما يشبه الحزام الذهبي، لاحظ مثله في الأفلام الهوليودية، رهبان الأديرة المصرية، كان يحمل مبخرة، وكان الدخان يتصاعد بدفء مُتخيَّل، يقف في بهو ما ظنها كنسية أرثوذكسية، كان فقد مكانها قبل خمس سنوات على الأقل، حين عبرها داهمه إحساس عميق بالوحدة تجتاح المدينة، من كل الجهات، كأنه لا يزال يسير ليلاً خلال مايو 2005.

عندما التقى بحسان للمرة الأولى، كوّن انطباعه الفعلي الأول عن شوارع بنغازي، دوماً انطباع ممتزج بمياه الأمطار؛ لهذا السبب بالذات يواصل التجوال في ليالي الشتاء تحت زخّاته الدافئة، الإحساس بالدفء مع صوت الهطول المباغت، كل شيء يلفه الإيمان مع السكون نفسه الذي دفع المسن لأن يتمدد بين الشراشف الناعمة والناصعة، ربما للمرة الأولى خلواً من المنغصات، مثل طفل في حضن أمه، تطلع من تحت الأغطية إلى تخطيطات أولية في لوحات الشاب، البوارج المحطمة والقنصليات التي تحترق في العاصمة القرمانلية خلال القرن الثامن عشر، الرجل المتوحد فوق الجبل.

عينا المسن تفيضان، مشاعر تضطرب، يحاول تفادي التفكير في أوجاعه الروحية، منذ عدة أشهر تم الحكم عليه بالموت، اتصل به أحدهم وبدأ يحادثه كأنه رفيق قديم. أحس به يلمس كتفه وركبتيه ثم أخذ يحتضنه ويشرع في التحديق في عمق عينيه قائلاً له بلغة الحكماء: «اسمع يا صديقي، لا شيء يدوم، كما تدين تدان، الأهم من الحياة هو أن يجد المرء راحته في آخرته». بدتْ له لغة غريبة، فلم يكن المسن ممن يفكرون في الآخرة، الطبيعة المتحركة لعمله، لا تمنحه فرصة لخوض تلك الأفكار، لطالما أدرك أن الإمعان في هذه النقطة يعتبر كالانتحار، لا مجال. في ذلك اليوم أحس باللاتوازن، بالفراغ. ردد بينه وبين ذاته: «الخوف ليس من الموت، بل من الموت في شخصية غير شخصيتي».

هكذا كانت «الليلة الأخيرة» للمسن.

عاش الشاب هذا الجنون أثناء طفولته ولم يتذكره منذ زمن. عندما تمدد الشاب بهدوء في فراشه، استعادها مجدداً، استيقظَت أحلامه المعقدة، تفاصيل فنية ممتزجة ضمن قصص شخصية مختلفة، بدا أنه لم يبتعد عنها أبداً ولا حتى لمسافة

نصف دقيقة. كان لا يزال يعيش ذلك الزمن، يرى ما كان يحدث فعلاً في لحظة ما من «التاريخ الشخصي» كما سماه في لوحاته الفنية. انقضتْ تلكم الأيام ولم يعد قادراً على الكشف عنها، فقدها للأبد، هذا ما ظنه طوال السنوات الخمس التي مضتْ ببطء شديد.

ظل تائهاً ضمن لوحة واحدة عملاقة، مؤخراً بدت الأسطورة المشوشة تتضح مجدداً، إنها هدية من الرب، صلة تربطه بالأخلاقيات القديمة، أجزاء من اللوحة العظيمة التي قام بتصميمها، أخرجها المسن من تحت سريره، وضعها بتحفز مذهل على السرير، فرشها على الأرضية وقام بفرد بعضها على الطاولة وفوق الكمودينو، وعلق بعضها الآخر على الجدران، وأمام واجهة التلفاز، على النافذة من الداخل، بعد أن قام بغلقها بإحكام. كان يضحك ويركض بين أجزاء اللوحات، العشرات منها، بعضها لا تزال ملفوفة كأسلحة محمولة على الكتف، أسطونات متعددة، مرتبة بعناية. لم يكن المسن يدرك قيمتها، هل كان يُدرك؟ خمس سنوات لم ير خلالها هذه الكنوز حتى إنه لم يعد يشعر بها على أنها جزء أصيل منه، كأنه فاقد للذاكرة، إنما لا يزال متأثراً بها كمتلقٍ في معرض عابر، كالمعارض الفنية التي تُفتتح في بنغازي.بعيداً عن كل الشكليات التي تحكم العلاقة بين الفنان والمتلقي. كان يختبر الخيط الشفاف الذي يوضح تلك العلاقة، صلة جدلية تحمل الكثير من التناقضات. حاول دوماً الكشف عن أسرار هذا الخيط السري لكون ما يحتويه مقدساً.

خلال مايو 2005 عندما لمس بإتقانٍ جزءاً من مشاعره المخفية تجاه حياته الجديدة، التي وضعها في صورة واحدة بدتْ حاشدة بالتفاصيل الذاتية وأخذها إلى شوارع بنغازي، ظل يتجول لساعات إلى أن تحدث مع شاب أمام أحد أكشاك الصحف، صدف أنه مصور فوتوغرافي، يدعى «حسان فركاش» افتتح لتوه مكتباً للخدمات الإعلانية. شاهد التصميم الذاتي وانبهر به. أصر على استخدامه في دعايته لمكتبه الجديد، لأنه يحمل معاني تاريخية: دينية وسياسية في إطار فني مذهل، وإن فيه شيئاً واضح القداسة. هذا ما قاله يومها، وقد رنت كلمة مقدس في ذهنه، لأنه كان مسحوراً بها في تلك الفترة. في ذلك اليوم تأملا الصورة معاً باهتمام الفلاسفة.

الطرق الطويلة مكتظة بالمباني المهدمة، الأعشاب المتطاولة بين تلك الطرقات المهجورة فيما تقف هياكل الصدئة للسيارات على جانبيها، بعضها متوقفة في منتصف الطريق، أسلاك الكهرباء المتدلية والأعمدة الخشبية المتهرئة، والمنحنية بشكل غير معقول، كأنَّ معركة اندلعتْ في المكان، أدخنة سوداء في الخلفية، سماء رمادية وكالحة، جانب من الليل في الصورة، نجوم قليلة ذائبة وعشرات الأعين المحدقة من بين الخرائب الدائرية والأطلال، شاب وحيد يعبر تاركاً ظله مرتسماً على جدار يحمل كلمات باهتة.

«في الصورة رؤية أخروية» قال حسان «إحساس بالغ الروعة، شيء مخفي كالإثارة في رمز هذا الظل المعافى من دون صاحبه، إنها ليستْ مثل الظلال النووية التي خلقتها قنبلة هيروشيما وناجازاكي، بل أمل في مستقبل ينمو ببطء لشيء قادم ولا شك، مشاعر الأمل في الصورة واضحة، عمل بارع كالإلهام المستقبلي لمدينة لا تدرك ذاتها إلا ضمن حرب تعيد

شخصيتها، زمن ما بعد الحروب، لا يمكن نسيان هذا، حتى من أبادت القنابل النووية أرواحهم، ظل جزء منهم في الحياة، لا شيء ينتهي بشكل كامل، أحييك حتى التشاؤم يحتوي كل هذا التفاؤل الفني».

كاد يبكي وهو يُردد هذه الأحاديث بالغة الروعة.

حسان أكبر سنّاً، كان بينهما سبع سنوات، وقد اصطحبه في اليوم التالي إلى مكتبه الجديد بحي طابلينو في الطابق الثاني، لمبنى من أربعة أدوار مطل على الطريق الرئيسي بواجهة زجاجية، تحتوي على معهد للغات، عيادة طبيب نفسي مترفة ملحقة بجناح لروضة أطفال، الطبيب هو خال حسان.

5

دخلا معاً، فوجد عالماً أنثويّاً بالكامل، فتيات جامعيات يعملن معه أو عنده، فأحس بانقباض مفاجئ لدى دخوله، كانت تلك مزحة حسان، كن جميلات وباهرات، ممتلئات بالحيوية. سيطر على نفسه أمام المبتهجات بصخب فتي. هذه ليست طبيعته، الدخول في هذا الانفتاح المفاجئ. مع نهاية الأسبوع الأول في مكتب حسان للخدمات الإعلانية والدعائية، أحس بأنه أصبح جزءاً منه، قدم نفسه باعتباره صاحب رؤية فنية محترمة، سرعان ما أضاف أبعاداً فلسفية وشخصية ضمن أعمال، حتى الطبيب النفسي أبدى إعجابه باللوحات المصمَّمة وبدأ يوجه تعليقات عن الحالة النفسية التي تخلفها، بكلمات مقتضبة، يقوم حسان باستخدامها مع عملائه الذين يحبون هذه النخبوية الجديدة؛ إرضاء لغرورهم الطبقي. منتصف الأسبوع الأول قام حسان بإصدار صورة مكبرة من تصميم الشاب لتُستخدم كواجهة تُعلَّق على الجدار المحاذي لباب المكتب، كانت لوحة عملاقة. «إنها تصلح حتى لعيادتي لولا أنه بها روضة». قال الطبيب.

الفتيات انبهرن بالصورة أيضاً، في ذلك اليوم، احتفلوا جميعاً بتنصيب الصورة ومن ثم الافتتاح الرسمي للمكتب، فتحوا علب المشروب الغازي، تظاهروا بأنها شمبانيا، وزعوا قطع الكعك المحلى وقطعوا الجاتوه، فجروا بعض الألعاب النارية مع الخيوط الزاهية والبراقة. سحبوه من يديه، في زفة جماعية إلى مكتبه الخاص، قبلها كان يعمل ليلاً على جهاز حسان، على شاشة كمبيوتره، أخذت تتوالى صوره الأكثر حميمية. حين انقض الجمع، وانزووا في حوارات خاصة، حلقات من أفراد العائلة والأصدقاء وبعض الصحفيين وسيدات المجتمع اللائي تسحرهن مثل هذه اللقاءات، أغلبهم يمتلكن متاجر صغيرة ناجحة.

انهمك الشاب في جهازه حين وقفتْ بالقرب منه فتاة وبدأت تتابع عمله على الصور ثم أشارتْ إلى إحداها قائلةً: «إنها لوحة ممتازة». غالباً ما يسمونها لوحات بالرغم من أنها مصممة على «برنامج فوتوشوب» ابتسم شاكراً لها بكلمات هامسة، تقبلتها بنظرة ودية من عينيها الواسعتين. كانتْ أخت إحدى الفتيات وهي ابنة عم حسان، بدتْ في الخامسة عشرة تقريباً، شعرها الفاحم مطلق السراح في تموجات هائلة، تظهر ملامح وجهها في سحابة ظلال، وجه ملائكي بحسب معايير هوليود، في طريقه للاكتمال، في تعابيرها غموض يليق بتلك الصفة التي خلعها عليها حسان، فنانة تائهة، تستخدم تعبيرات مميزة مثل: أها، إممم، هاي، كإحدى شخصيات الأنيمي اليابانية، بابتسامة مشرقة. قبل أن تلتفت لمتابعة توالي الصور، عقب السكون الذي عم المكان، إثر مغادرة الأغلبية في مجموعة كبيرة إلى الكافتيريا في الطابق الرابع، ظلا وحدهما يستمعان لأصوات أجهزة الحاسوب ونقرات أصابعها على الماوس وهي تقلب ببطء الصور التي تعدى عددها الثلاثمائة صورة مصمَّمة عن الطفولة، الأحلام الغريبة، الفتيات المرحات من الروايات الفرنسية، أغلفة الكتب، قصص العشق

المستمدة من كتاب طوق الحمامة لابن حزم، ورعب قوت القلوب تلك الليلة مع المتيم المسلوب، من ألف ليلة وليلة بعد فرارها من قصر هارون الرشيد.

«ماذا تعني هذه الصور؟». سألتْ.

كانتْ تشير إلى وجه قوت القلوب وهي تبتعد عن المتيم المسلوب الغارق في الظلال الشفافة. كانا معاً على الأرضية الرخامية اللامعة بالقرب منهما سماط العشاء المكتظ بالأواني المزخرفة والأطعمة اللذيذة، اللحوم المشوية في قطع صغيرة مع الخضروات الزاهية الناضجة والفواكه في أطباق ضخمة عامرة ومدهشة، الحلويات التي تقطر شهداً والشموع المضاءة وهي تشع بخفوت رومانسي، إنما فيها ما يشي بالعنف المكتوم، متمثل في وجهيهما. كانت الصورة تحمل كثافة الظلال والعتمة فيما عدا الأطعمة والملابس الوردية الشفافة التي ترتديها قوت القلوب، المغمورة في الضوء المنبعث من الشموع القريبة منها، لتعكس القليل من ضوئها البارد نحو وجه المتيم المسلوب، والذي ظهر أقرب لليأس ومعاناة ألم مضنٍ لا يُمكن تجاهله حتى بصحبة هذا الجمال الفريد.

«إنها قصة». قال الشاب «أُخِذَت من ألف ليلة وليلة».

نظرتْ إليه مستفهمة بطريقة ذكَّرته بأشياء من حياته: «أنت رسمتها؟».

«نعم». قال ببساطة. كان سعيداً.

«كيف فعلتها؟». ابتسم مرة أخرى دون أن يشرح لها، ظل يُحدق إليها فيما أزاحتْ هي خصلة من شعرها تدلتْ على وجهها الطفولي الجريء ثم قالت: «ما الذي يحدث فيها؟».

«خلاف بسيط». أجاب.

«اعتقد بأنه مريض».

«ربما هو كذلك».

«وهي، ما بها؟ تبدو غريبة بعض الشيء».

«ربما هي مريضة بدورها». قال معقباً بشكل مازح كما يليق بالحديث مع الأطفال.

«ألا تعرف أنت؟». بدا في نبرتها شيء من الغضب.

«أنا أعرف».

«ما بها إذن؟».

«ليس المهم ما أعرفه، بل ما ترينه وما تشعرين به. تمعَّني في الصورة، ابحثي بمعرفتك عما يحدث، اخلقي قصتكِ الخاصة ومشاعركِ حيالها».

صمتت الفتاة لوهلة وهي تحدق في الصورة: «لستُ متأكدة، لكنني أعتقد أنها خائفة». قالتْ ثم تطلعتْ إليه، بدا مستمعاً جيداً، فواصلتْ: «تبدو قلقة وتريد الهرب، أتريد؟ لكنها لا تريد وهي مسترخية مع الشاب الذي في الصورة، الإضاءة تبين ابتهاجها بهذه الجلسة، العتمة تظهر مدى عدم أهمية الشاب بدونها، الشموع والأطعمة، الصالة الأنيقة، كلها تشرح أنهما معاً، لكنني لا أعرف، لم أحس بأن هناك تناقضاً». أخيراً برق في ذهنه تجسيد لكلمة تناقض. نظره إليها بإمعان أشد، فابتسمتْ له ثم سألته: «ما بك؟».

«لاشيء، لِمَ تسألين؟».

«لأنك نظرت إليَّ بنفس طريقة الشاب في اللوحة». قالتْ بأسلوب غريب ثم أضافتْ بسرعة، بدتْ له مثل فكاهة بريئة: «ربما لأننا معاً».

«ربما». قال بهدوء، وفي اللحظة التالية روى لها قصة المتيم المسلوب وقوت القلوب مع هارون الرشيد، كان يحفظ قصائد العشق والهجران عن ظهر قلب ويلقيها بحماس طفولي، استمعتْ إليه باهتمام ثم تضرج وجهها بالدماء؛ فأحس بأنه أخطأ، بتر القصة في اللحظة التي مد فيها المتيم المسلوب يده إلى زنار قوت القلوب، أنهى بكلمات مقتضبة، بعدها لم يتحدثا تقريباً، ظلا يقلبان الصور حتى عادتْ المجموعة من الكافتيريا، وأعلن حسان انتهاء الدوام، فهزتْ الفتاة رأسها بوداع خفيف.

لم يلتقِ بالفتاة مجدداً.

بعدها خلال شهر مايو، عقب الأحداث التي جرت أمام السفارة الإيطالية تم القبض على حسان. أغلق المكتب، وبدا أن كل شيء انتهى، عاد هو إلى التيه بين شوارع وأزقة بنغازي، علم فيما بعد بأن حسان توفِّي تحت التعذيب، وفي غرة ديسمبر من عام 2006 تم القبض عليه ومصادرة أجهزته ولوحاته الخاصة مع كثير من مذكراته واللوحات العالمية المقلدة التي قام بجمعها على مدى عدة سنوات. كل شيء في غرفته المستأجرة تقريباً تمَّت الحيازة عليه، قضى قرابة الشهر في الصحبة المحزنة لرجال الأمن الداخلي.

خلال أكتوبر من عام 2011 بينما كان خارجاً من دار الكتب الوطنية سمع صوت فتاة تناديه باسمه، حين التفت، رأى شابة تبتسم له، في البدء ظنها وهماً أو ربما سوء فهم، ثم أدرك أنها هي، وأنها حقيقية جدّاً هذه المرة، كانتْ ناضجة تماماً، بابتسامة تاق إليها طويلاً، اضطربتْ في داخله مشاعر كان قد حشدها قبل القبض عليه في لوحة عظيمة، ظن أنه فقدها للأبد.

كانا جالسين بين الأرفف، منهكين من الذكريات. الكتب كالصور تجعل من الذكريات متحفزة. الساعة التاسعة داخل المكتبة الوطنية، الرفوف شبه خالية، اصطفاف مجلدات دوستويفسكي بترجمة سامي الدروبي، مكسيم چوركي مع مجلدات بنية لروايات ليونيد أندرييف القصيرة، عشرات الكتب التي تطالع من خلال الأرفف، إنها تعكس القليل من التاريخ التائه في تلك الصفحات من حياته، حين تطلَّع إليها شعر بأن الأمر لا يخلو من البهجة، مجرد وجودها علامة أخرى على إمكانية التوازن في حياته.

6

من بين اللوحات التي عند المسن، واحدة تسمى: «فتاتي» بالرغم من أنها صُمِّمَت خلال ستة أشهر، قضى الشاب في الاشتغال عليها ما يساوي ثمانمائة وخمسين ساعة عمل، إلا أنها تحتوي مشاعر متضاربة، تظهر فيها فتاة مراهقة بين الجمع المحتفل كانتْ تحدق نحو زاوية غريبة بعض الشيء، إلى المصمم، بابتسامة غامضة.

ظل المسن يتأملها لسنوات، حتى غدتْ بالنسبة إليه طقساً مقدساً، إنها تجعل منه مرتبكاً وأقرب إلى الإيمان، صافياً بلا ذنوب، كلما تأملها شعر بوجود نهر مقدس يجري عبر صدره، نهر تشرق فوقه شمس أسطورية تدفئ مياهه بألوان الغروب. كانتْ تذكِّر المسن بالحياة التي لم يعشها، تلح عليه تلك الذكريات السعيدة التي كان بوسعه خلقها في حياته. قام بتعليق نسخة منها في مواجهة سريره في بيت العائلة، منذ وجدها بين محفوظات الأدلة والقرائن بالمكتب الأمني بجانب الملف الذي يحمل اسماً عرفه ذات مرة، وكان يعني له الكثير، بدا كأنه وجد جزءاً مهمّاً من تاريخه الشخصي. طلب المساعدة من الشبان الجدد، وكان يكرههم ويناصبهم العداء، تلاشى العداء في ثوان، الكرامة لم تعد سبباً وجيهاً للعداء. حين تم إعلان حالة الطوارئ كانوا يستعدون لتخزين تلك الأدلة بعد أن انتهت القضية بالنسبة إليهم.

كان ذلك خلال ديسمبر 2006، تحايل على النظم الأمنية واللوائح ليحصل عليها بأي ثمن، عقب أشهر من إطلاق سراح الشاب المعني. استطاع أن يقدم رشوة لبعض الشبان المكلفين بإتلافها مع كم هائل من الوثائق، قام بأخذ جميع المتعلقات التي ضُبِطَت بغرفة الشاب الذي لم يكن يعرفه آنذاك، اللوحات والأوراق حتى الصور والدفاتر السوداء التي هي عبارة عن صفحات من اليوميات الخاصة بالشاب منذ سبتمبر 2002 حتى منتصف نوفمبر 2006 مكتوبة بعناية فائقة وفيها الكثير من التفاصيل عن اللوحات التي صممها في تلك الفترة، حوالي خمس عشرة لوحة مشروحة بكل تفاصيلها الحميمة، ذاكراً مراجعه عن الصور المستخدمة والإلهام والأساليب التي اعتمدها في سبيل كشف مواطن الجمال فيها، دراساته النفسية البسيطة، رغباته الكامنة وراء خلق الصور وروايات شخصية، عن مشاعره المتضاربة، مستخدماً الظلال كما يفعل كبار الفنانين. ومن اللوحات التي تم العثور عليها داخل غرفته، نسخ متقنة عن لوحتين مهمتين. الأولى: العروس اليهودية لرامبرانت، والثانية هي: منظر للغسق مع ضوء القمر الواهن للفنان الروسي إيزاك ليفيتان.

لوحته «فتاتي» كانت تحمل تلك الخصائص البسيطة المستمَدة من اللوحتين. العاطفة الجياشة مع الهدوء والتأمل والمشاعر الحانقة المكتومة والباحثة عن الإيمان الحقيقي في عالم من النفاق والسخرية، الضوء الشفاف مع القليل من ظلال اللا يقين. مشاعر جمعها من اللوحتين، اللتين عثر على نسخهما عند صديق، فنان تشكيلي، بحسب ما كتب ضمن

صفحات يومياته. المسن قرأ هذه التفاصيل باهتمام على مدار السنين الخمس؛ لفهم الفتاة التي تظهر بين الجمع اللاهي خلال الحفل الصاخب، مبتسمة بهدوء، محاطة بسبعة شبان بلا وجوه، شيء من التيه العميق في نظراتها الحزينة أو التي أصبحت حزينة مع مرور الوقت، باللون الدافئ لشفق الغروب فوق صفاء بحيرة مضطربة.

في اللوحة جمع بين التناقضات، الضوء والظلال، لمعان الابتسامة والعينان مع الأقداح الملونة بالعصائر، والمجوهرات التي تبرق بفعل الألعاب النارية المشعة في الخلفية، خارج النوافذ، في مقابل البزات الرسمية الغامقة، التي تمنح الصورة تناقضاً غريباً بين الظلال الشبحية لملابس بعض الزوار، حتى الفتيات القلائل اللائي يظهرن في اللوحة، يرتدين تنانير رمادية، رسمية فيما يقف بينهم مسن ببزة سوداء ذات خطوط بيضاء كأحد أفراد عصابات ثلاثينيات القرن الماضي، ووجه كئيب بعينين ثعلبيتين واضحتين. المسن وجد نفسه في صورة ذلك الشخص الباهت والآيل للسقوط، مدركاً بفضل اليوميات أنه الطبيب النفسي، صاحب العيادة الملحقة بروضة الأطفال.

عيناه تقعان باتجاه زاوية المصوّر المفترَض، والذي هو في هذه الحالة الشاب ذاته، فيما كان المسن يحس بنظرات الطبيب ترسل سهاماً ضوئية مشتعلة، تخترق باتجاه صدره عبر عينيه من وراء عيني الطبيب. في مقدمة اللوحة، تقف الفتاة، إلا أنه دوماً يلاحظ الطبيب ثم يعود للتطلع إليها، بحيث تبدو نظرات الطبيب كأنها تزداد قوة وشواظاً بفعل نظرات الفتاة مع نظرات المتلقي والمصمم معاً، في آن واحد، إنها فلسفة ذاتية توصل إليها المسن بفعل مراقبة اللوحة طوال هذه السنين.

فكر أنه لو كان في مكان الشاب لالتف ناحية الفتاة، هل كان هناك شيء من القلق، في اليوميات لا شيء، إلا جملة قصيرة عن هذه الحركة، بدا كأن المصمم يتطلع بعينيه نحو الفتاة والطبيب في ذات الوقت، ليس العكس. ملاحظة الشاب لهذا الموقف تدل أنه عفوي لدرجة ما، وفي اليوميات، القليل عن اللوحة إنما كتب أنه أراد تذكر كيف رآها تغادر. كتب ملاحظة صغيرة بالخط الأحمر؛ فقد ظن أنه لن يراها مجدداً. كان يمتلك كاميرا صغيرة، اشتراها من بائع متجول، خلال فترة عكف فيها على تتبع الباعة الجوالين من أجل صناعة صورة عنهم ضمن عروق المدينة. تردد كثيراً في تنفيذ فكرته الطارئة، خوفاً من الفهم الخاطئ. الناس يقترفون أموراً فظيعة، إنه يتذكر هذا، عندما رفع الكاميرا، التفتت إليه الفتاة، فأخفض الكاميرا بحركة لا إرادية، إلا أنها نظرتْ إليه مباشرة، رأى الحزن في عينيها، أحاسيس الكآبة والملل، استغرب من أن تصدر من فتاة مثلها. تفاجأ من وقفة الفتاة. كانتْ قد تموضعت مثل عارضة، تحثه على التقاط تلك الصورة. رفع عدسته مجدداً، بهدوء وثقة، في تلك اللحظة ارتسمتْ على وجهها ابتسامة غامضة، ظلتْ عالقة في ذهنه لسنوات، شعر بنفسه في حلم رومانسي، التقط عدة صور، تأسف فيما بعد لأنه لم يجد إلا صورة واحدة، بدتْ له جيدة.

عندما قرأ المسن هذه التفاصيل في تلك السنة، غرق في الضحك مثل الأطفال، ثم تساءل في نفسه بمزيد من الضحك عن سبب ضحكه. كان هناك شيء يقلقه بالرغم من كل ذلك الضحك، شيء يدفعه للارتعاش من الداخل كلما أحس باقترابه من لحظات معينة، خلال تفكيره التأملي حيال الصورة.

7

أدرك أنه أقدم على مشروع حياته فعلاً، هذه المرة.

منذ لمح تلك اللوحة تغيرت طريقة تعامله مع الآخرين. العزلة والتأمل صارا فعلين ملازمَين له وقدرَين عليه. أبناؤه وجدوا هذا غريباً. في السابق، كان يعاني التوتر بسبب التقاعد، يتدخل في كل تفاصيل حياتهم، ينهرهم لأبسط شيء، بلا حدود، كأن الكون كله ينهار من حوله، يدفع الآخرين للشعور بالإنهاك الدائم، أصبح ألماً لا يطاق، ولا يعرفون له علاجاً، ضعفتْ قدراتهم التركيزية، بدا لهم أنه يعمل على إفقادهم صوابهم، لكنهم يدركون أن والدهم يمر بفترة مؤلمة من الوحدة القاسية بعد وفاة زوجته، ثم فجأة تحول إلى شبح صاخب بلا قيمة إلا التجوال في ممرات البيت والبحث عن النواقص والأخطاء. ثم حدثتْ المعجزة، تحول الشبح الصاخب إلى سكون أبدي، هدوء مرعب، دائم التأمل والغياب داخل غرفته المكتظة بالحاجيات. أخافهم هذا في البدء، لكنهم لاحظوا تخفيفه من الشرب والغضب وانغماسه الكلي في القراءة، أراحهم هذا التوجه الجديد، فوق هذا زيادة وزنه بانتظام، ونشاطه الجسدي الرائق المصاحب لتحسن مزاجه. كانت تلك علامات مشجعة، فتركوه لحاله. هو نفسه أحس بهذا التغيير المدهش، لم يعد يكلف نفسه عناء الغضب، فالصورة كانت تنمو بداخله كإلهام حي.

حين سيخبر الشاب مستقبلاً، بأن الجميع تحت الإلهام، كان يقصد الجميع الذين يقفون داخل رأسه؛ إذ لم يعد يعتبر العالم الخارجي هو العالم الحقيقي، بل غاص عميقاً في عالم مختلف، أصبحتْ في رأسه نظرة شاملة عن ذكريات الماضي، صورة حية ومضيئة، تحمل العشرات من اللحظات الحقيقية، التي تجعل من أيامه المستقبلية أكثر صفاء وإشراقاً.

خلال الليالي الطويلة، تظل غرفته مضاءة، وحدته لم تعد مؤلمة، بل أصبحتْ بمثابة كشف جديد لبناء عالمه الروحي. كان يحبس نفسه في الظلمة منتظراً لحظة الموت، ثم غدا يُغرق غرفته في الضوء.

«أريد أن أراه بوضوح وهو يفعلها». قال للوحة بصوت مرح.

«أتظن؟».

«نعم، الحياة في توقف». قال وتحرك من على مقعده، اقترب منها، حدق في عيني الفتاة مباشرة لثوانٍ، بعدها قال له الطبيب: «أن تحبس نفسك أمر منطقي جدّاً في انتظار الموت».

قال هذا وضحك.

«أترى هذه الباب؟». سأل المسن.

«نعم، أراه». أجاب الطبيب بصوت خفيض.

«بوسعي الخروج منه وقتما أشاء». هكذا قال المسن منتصراً.

«دوماً تعايره بسجنه». قالتْ الفتاة ملاحظة، بدتْ غاضبة.

«لأنه مسجون وأنا لستُ كذلك».

«على الأقل هو مع رفقة، أين رفقتك أنت؟». صمت المسن للحظات متفكراً ثم أجاب نفسه باستسلام غير مهين: «أنتم رفقتي».

في اللحظة التالية سمع الضحكات العالية، قرقعة الكؤوس مع انسياب الأضواء والانفجارات النارية المتوهجة في كل شيء لامع حولهم. ظل يحدق في الصخب الحادث لساعة كاملة، قرر بعدها أن يفتح لوحة أخرى، ثم تراجع عن ذلك، حتى تلك اللحظة كان قضى قرابة السنتين في صحبة اللوحات، خرج من غرفته متجهاً للكورنيش، وقت الغروب، الشمس الواهنة تغرق في مياه الأفق، النوارس كانت تحلق بثبات على ارتفاع منخفض، أصوات المارة، باعة الفشار وأدوات القرطاسية الرخيصة، الألعاب البلاستيكية مع الشموع والقناديل، مجلات قصص الأطفال، اقترب من بائع سوداني وسأله عن أثمان تلك المجلات القديمة، ذات الأغلفة المذهلة من الرسومات الجميلة.

«كلها تساوي سبعة دنانير». اشتراها، أعداد قديمة لكنها بحالة جيدة، كدسها في كيس أبيض وذهب ليتجول بهدوء ناحية الميناء، وقف لدقائق على مبعدة قصيرة من نهاية الميناء، كان هناك حصان أبيض، تركه أحدهم بعد أن وضع له الأعشاب في برميل نصفي، إنما الحصان الأبيض كان يلوك الرسن، بلا اهتمام لأي شيء آخر، أحس بأنه يشبهه على نحو ما، أفزعه هذا الإحساس فابتعد مسرعاً. كان أحياناً يمر بالقرب منه، دون أن يلتفت نحوه، لم يتساءل عن سبب هذا الرعب الطارئ، لم يفعل إلا أن طرد من ذهنه صورة الحصان الأبيض تماماً. باعتباره عسكرياً سابقاً، كان مولعاً بالكلاب الشرسة، فخلال مسيرته العسكرية وجد تحت تصرفه عدداً من الكلاب البوليسية، تآلف مع بعضها حتى غدتْ رفيقة له أكثر من أفراد مجموعته، في تلك الفترة كان يمتلك تصرفات ظل يخجل منها دوماً، لكنها أصبحتْ تدفعه للضحك مؤخراً، يتعجب من هذا التصرف الجديد، حين ضحك في تلك الجولة، قال مخاطباً نفسه والصورة الخيالية في ذهنه: «الذكريات الجيدة تُدمع عيني، فيما تلك المخجلة منها تدفعني للضحك».

لم يعرف السبب مطلقاً.

سار بهدوء مخترقاً الطرقات المكتظة بالسيارات، العائلات المتجهة ناحية الكورنيش في الأصياف ذات الرطوبة العالية، لثلاثة أشهر ظل منعزلاً عن بقية البيت مثل شبح يتحرك بشرود من غرفته لخارج البيت، ليعود مجدداً إلى غرفته ليلاً، يغلق

على نفسه الباب، يتطلع إلى صورة الشابة التي أخرجها من مخزنه، وهو بكامل لباسه، ذات الأكمام الطويلة، يدخن أحياناً كما يشرب عدة كؤوس من الأنبذة الجيدة، تدفعه للتفكير المتدفق حول ذاته الحقيقية.

«هل أنت حقيقية؟». يتساءل بسبب الثمالة.

«لا أظن» تقول الفتاة دوماً «لا أظن أن هذا مهم».

«لماذا؟». سأل المسن.

«لأنني أبادلكَ الحديث، أجعلك تعرف نفسك، كما أنني أعيش مع الجموع، أتسمع صخب حياتنا».

«نعم».

«ماذا عنك أنت؟».

«ماذا عني؟».

«هل أنت حقيقي؟». عندها ينفجر بالضحك. هذا سؤال لا يؤرقه، لأنه تمنى في إحدى ليالي سنة 1973 أن يغدو خيالاً، غير حقيقي. منذ تلك اللحظة وهو حقيقي بشكل يُجهد تفكيره. الحقيقة في ذهنه مرتبطة بالواقع الصلب، المصاعب الجسدية والنفسية، الأحزان، النظرة المادية، التوتر وضرورة فرض الذات. الخيال يضعفه، كما ظل يعتقد. اللوحة أخبرته بأنه أصبح ضعيفاً من هذه الناحية؛ لسبب مختلف.

متى فقدتُ وجودي؟ سأل نفسه.

في أية لحظة فقدتُ حقيقتي؟

إنه يفعل هذا على الدوام.

تذكر أشياء ظن أنها لا تعني الكثير.

8

كان في تازر واحة الكُفرة، سنة 1958.

عندما تذكر هذا، بدا مثل مَن تلقى هدية غير متوقعة، امتلأت عيناه بالدموع النقية حتى أجهش بالبكاء لفترة قصيرة، وهي إحدى نوبات فقدان السيطرة على الذات، لم تكن تحزنه، وكانتْ تمنحه بعض الراحة، إنما هذه المرة رأته ابنته الأربعينية، فأحاطته بذراعيها وسألته بحنان أمومي: «أبي، ما بك؟».

«لا شيء». قال مكابراً.

«أنت تبكي، أبي». رددتْ الابنة مندهشة.

«لا تهتمِّي». حين قال هذا تساقط من عينيه سيل متدفق من الدموع، لم يستطع التحكم بذاته، فصدر عنه صوت صفير مثل إبريق يغلي، ارتجتْ كتفاه، وبدأ عِرق ينبض بقوة في رقبته. حاول ببطولة إيقاف النوبة، لكنه فشل، رأى أمام اللوحة ثم انفجر باكياً بصوت عالٍ، كطفل متألم، بملء صدره وحياته، صراخ هائل مثل تلك الصرخات التي ظل يحلم بها دوماً، كان كل جسده يرتج، أرجع رأسه إلى الوراء في حالة ضعف شديدة، مع صراخ متواصل، وفم مفتوح وبعينين جاحظتين تنزف منهما الدموع الساخنة، بغزارة.

«أبي، أرجوك أبي ما بك؟». تساءلتْ الابنة باكية.

«مياه الأرض صافية». قال هو أمام دهشة ابنته ثم أضاف: «دموع الأرض التي قُتل لأجلها جدي، وماء جدي في عيني».

«أبي». صرختْ ابنته ثم انهارت فجأة تحت قدميه، انسحقت أمام الموجة الهائلة لمشاعر المسن، قبلته أكثر من مرة، احتضنته.

«ابنتي». قال مع انتهاء النوبة، جسده كان لا يزال يرتعش. نظرتْ إليه ابنته وهي ملتصقة به. «لا تتنفسي في وجهي». قال بصوت حاقد، فابتعدتْ الفتاة فجأة وهي تحدق فيه، حين قال بصوته الحاقد المعذب: «أنت لا تعرفين شيئاً، أنت جاهلة صغيرة لا تعرفين شيئاً، لستُ أباكِ، لستِ ابنتي، أنا شيطان، شيطان، حتى اللوحة الغبية تعرف هذا، حمقاء أنتِ ولا تعرفين، أنتِ فقط حمقاء لا تعرفين، حتى أخوتك حمقى، جهلاء تزيدون ألمي، ألماً لا يطاق. لماذا لا أموت سريعاً، يا ربي ستعذبني بشدة، العذاب، أستحقه».

كان قد وقف على رجليه.

«حمقاء مثل والدتك، البائسة ماتت بسببي، تركتها تموت مثل النعجة الجرباء، بل مثل الكلبة، وأنتِ ستموتين كالكلبة مثلها تماماً، إتفو عليكم كلكم، تجعلونني أتعذب، منذ متى وأنا أتعذب بسببكم، لولا وجودكم لكنتُ في مكان أفضل، ليأخذني الله، ليمتني بأبشع الطرق، ليتني، ليتني...».

انهار على الكنبة وبدأ نوبة أخرى من النحيب المتواصل، كانتْ ابنته قد انسحقتْ تماماً، لطالما عرفتْ ما يدور في ذهنه، لطالما خشيتْ من هذه اللحظة، لكنها نسيتْ، إنهما الآن في عمقها، ويبدو كل شيء غير محتمل التفاصيل، دهشتْ للحظة من مدى ما تشعر حياله من عطف، لم تعتقد يوماً أنها تعطف عليه بهذا القدر. ليس منذ الليلة التي جلد فيها والدتها بسير جلدي حتى أدماها وتركها واقفة طوال الليل تنتحب في الممر دون أن تجرؤ على البوح أو الغضب، لم تعترض قط على تصرفاته؛ لأنها لم تقدر على مواجهته. هي فعلتْ طوال حياتها، واجهته واتهمته عدة مرات في وجهه ببذاءة دفعتها للبكاء ليلاً، لكنها شعرتْ في تلك اللحظات بأشياء متضاربة، مشاعر من العطف والتقزز والتشفي ونكران، اضطربتْ في داخلها.

«أنا آسف». قال هذا وقام متعثراً ناحية غرفته، مسح دموعه، تنهد ثم تطلع في الصورة دون أن يجد رغبة في الغوص عميقاً داخل ذكرياته، إحساس هائل يدهمه كلما اقترب من ذكرى حية من ماضيه، يضطرب كأنه مقدم على خطر داهم، لم يشعر به حتى أيام القتال ضد الجماعات الإسلامية المقاتلة حتى وهو ضمن إحدى الجماعات، أثناء اختراقه إياها لتدميرها من الداخل وجمع معلومات عن أسلوب تكونها ومصادر تمويلها. نظرة واحدة للوحة عن فتاة بين الجموع تدفعه للبكاء والانهيار، تغرس في نفسه الخوف البارد المقلق، تخبره بوضوح بأنه ليس إلا وهماً ولا شيء أكثر. الحقيقة التي ظن أنه في منتصفها، ليست سوى كذبة كبرى.

أدرك هذا قبل الطوفان، تعادلت نفسيته بسبب معرفته، في الأيام الأولى من فبراير حبس نفسه، انهار، إنما ليس بسبب من الخوف، بل تأكده من حقيقة مشاعر الناس، هو من إحدى أعرق القبائل في المنطقة الشرقية، جده من كبار المجاهدين ضد الاستعمار، قبيلته لم تهادن أي استعمار أجنبي، ظلتْ وفية للقبائل الأخرى، حتى والده مات متحسراً على والده، بالرغم من حبه للعائلة السنوسية. العائلة التي ناصَبها هو العداء منذ كان طالباً في الخمسينيات، ذروة فترة الملكية حتى نهاية الستينيات حين تغير نظام الحكم، تحيَّن الفرص من أجل الانضمام للنظام الجديد وإيجاد موطئ قدم فيه. جاءتْ تلك الفرصة، حين صرخ أحد الطلاب معلناً كراهيته للانقلابيين، ونزع صورة كانتْ معلقة في المهجع الطلابي وألقاها أرضاً وأخذ يدوسها برجله ممجِّداً الملك إدريس وعائلته المباركة، عندها قام بالوشاية عليه.

أحياناً لا يحتمل تلك التفاصيل من ماضيه، حين تغدو مثل البواخ في الرأس، يكتم على قدراته التحكيمية، لا يكون قادراً على تمييز الجيد منها، عندها يُقدم على تصرفات سيئة كالعزلة في أغلب أيامه أو القتل حين يكون في خضم مهمات

الاستجواب أو ضمن الحروب السرية أو حين انضم للفرق الخاصة غير الرسمية التي تم تشكيلها بسبب أزمة المسلحين في المدن.

منذ الثمانينيات اتخذ من نزل صغير ملجأ له. ظل يتردد على نفس الغرفة طوال هذه السنين، لعشر سنوات تم إيقاف العمل بالفندق أمام العامة، أصبح ملجأ لرجال الأمن، في البدء كانت تخدمه سيدة تشادية، حين بدأتْ معه كانتْ تقارب الخمسين حتى أصيبت بالسرطان في نهايات السبعينيات من عمرها، نقلها على نفقته للعلاج في الجزائر، كانت تعرف أنها ذاهبة للموت، وأنها تريد أن تقضي آخر أيام حياتها عند حفيدتها الطبيبة التي تزوجتْ بشاب فرنسي من أصول تشادية، يقطنان الجزائر العاصمة، هو يعمل كموظَّف في أحد المعاهد الثقافية الفرنسية، بعد سفرها بأشهر تلقى خبر وفاتها.

عندما ينام في بعض الليالي، فإنه يتذكر التفاصيل الشيطانية، لا يعرف لماذا يتذكرها، تظل تحوم مثل نسور مملة، تائهة في رأسه، يئس منها على مدار الأيام والسنين، الليالي والصباحات. تلك السيدة ظل يشعر بأنه قتلها، بإهماله إيَّاها كما فعل مع زوجته، صديقه كذلك، الكثير ممن سحقهم تحت رجليه بقسوة بالغة، عيناه لم تدمعا لفترة طويلة، مشاعر مشتعلة في صدره، تؤلمه البرودة الجاثمة في عينيه، تُفقده الصبر حتى يشعر بالدمدمة مثل وحش مغتاظ، مثل بركان يغلي، دونما فائدة ولا قدرة على التقدم، يتطلع إلى وجهه في المرايا، يبدأ ينزع كل الأقشمة عن جسده المترهل، يلقيها على الأرضية المكسوة بالكليم المحاك يدويّاً، برسومات الغزلان الهاربة وأسنمة الجمال المثلثة والفرشات العجمية التي تروي قصصاً أسطورية أخرى، كلها ضُبِطَت داخل منزل الشاب. كانت الأرضية مغطَّاة بأكوام ملابسه المتهرئة على غرار بشرته، يتطلع إلى نفسه، إلى البؤس، السقوط، الخواء واللا معنى.

كل شيء يظهر هناك، بصمت، يحدق لنفسه مجدداً، يرى علامات أخطائه الباهتة كالبرك الخضراء، مستنقعات راكدة، تدور حولها أسراب الذباب فيما يجد الترهلات حول العنق وصمة عار أخرى، وموت قاتل يربض بين فخذيه، لم يفكر في رجولته منذ عقد كامل؛ لهذا يجد في نفسه بعض الطهارة الأخلاقية، بعض القيمة الإنسانية. كان يجد نفسه محشوراً في زاوية رطبة من الذكريات والأحلام التي كانتْ «طموحات» فيما سبق، شعر يوماً بأنها واحدة من أكثر أسباب بهجته وقد أصبحتْ ممزوجة بالكوابيس الدائمة. كان يضحك من الألم والمواقف المزعجة حتى يدمدم بصغار فاحش. على طرف السرير يجلس متطلعاً في نظرة واحدة تجاه عالمه وهو يبتعد ضمن تركيزه الداخلي، ليشمل بنظرة كل شيء في الجوار، الصمت يخلق منه ثلاثة أشخاص، في صمت دائم يعي وجودهم بجواره، يشعر بنظراتهم تلمس كل بقعة فيه.

لم يحاول في أي لحظة أن يستفزهم للحديث، لم يفعل مطلقاً، بل كان يحدق فيهم بجمود طير مرتعب، مترقباً أية حركة تصدر منهم. ذات مرة حين طارتْ ذبابة خلفه، لمح طيفها عبر المرآة كأن ذئباً ينقض عليه، صرخ برعب ملتفتاً ليجد نفسه في بقعة معتمة من الخجل والانهيار الداخلي، انهيار حقيقي تمثل في الخوف من الخطر المحدق، كان قلبه بدأ ينبض بخوف لا يمكن أن يكون بلا سبب مقنع، خوف كان يشعر به حتى أثناء نومه.

تلك الليلة في النزل الدافئ، عقب مغادرة الشاب، استمر شعوره بالخوف مع ألم وجفاف فظيعين في عينيه فيما واصلتْ الأمطار بالهطول، أخذت تتكسر بأصوات حزينة، تتحول في كوابيسه إلى أصوات أشبه بنواح بشري فظيع، عندها يستيقظ مرتعباً، وهو يشعر ببقايا صراخه ضمن الغرفة.

«ما بك؟». تطلع للوحة، واصل التطلع، امتد في صدره إحساسه بالنجاة.

«هل أنتِ حقيقية؟». سأل وهو يستعيد نفسه من الضياع.

جمع شتات وعيه بصعوبة ثم تمدد بصمت في فراشه الدافئ حين أحس بالهدوء الليلي، يكتسح شوارع بنغازي، وصل إلى سمعه صوت البحر، يهذي في انسحابات أمواج رقيقة على رمال الشاطئ كما تخيل دوماً، إنه مشهده لإعادة الراحة الذهنية. أزاح الغطاء ثم أخذ يحدق في السقف. سيناريو منطقي لياليه منذ أكثر من عشرين سنة. عندما كان يجد نفسه داخل غرفته بالفندق، يحس بالراحة عميقة، لا يريد لروحه القذرة أن تهيم في بيت العائلة، البيت الذي أفسده دوماً لسوء طباعه. مؤخراً صار يهتم بهذا.

في تلك الليلة كان الشاب استيقظ قرابة الثانية والنصف، وأخذ يُفكر في التفاصيل المعقدة ضمن لوحته، العشرات من الأحلام استعادها على نحو عاصف داخل غرفة المسن بالنزل، فبدتْ له لوحته عن الحصان الأبيض موفقة تماماً، إنها تمثل التفسير الفعلي لحياته مؤخراً، التقاؤه بالمسن، احتكاكه المزعج بالسلطات، العنف الرهيب الذي صاحب كل شيء حتى تلك اللحظة كان متوافقاً تماماً مع ما حدث قبل سنوات. كان الحصان في اللوحة المصممة، يقف في لحظتين متناقضتين، الأولى في جمود شمعي والثانية في هياج جنوني.

صباحاً قام المسن بهدوء، فتح النافذة، أطل برأسه على شوارع منطقته، المياه تقطر من على الأوراق والملابس التي نُسيت معلقة، كانتْ هناك سيارة تعبر دون أن يراها فيما الأصوات المنبعثة من محركاتها تبدو كلحظات محمومة تتلاشى سريعاً، رائحة الخبز تدفئ برودة الصباح.

تحت الدش، المياه الساخنة، أحس بجسده، بقلب ينبض تحت جلده، لا يستخدم الصابون، خلال الصباحات، يستحم بالمياه فقط، يترك الماء يسيل على جسده لنصف ساعة، يتحسس كل جزء يصل إليه، يقتحم خلالها ما يستعيد من تاريخه الشخصي، اعتقاد جازم نما في ذهنه، بأن المياه تجعل منه حيّاً. خرج إلى الغرفة وهو يقطر على الفراش. أغلق النافذة والستائر. لم يتطلع إلى المرآة. ارتدى ملابسه هذه المرة باهتمام أشد. أخرج سروال جينز اشتراه منذ شهرين، وقميصاً بلون وردي طويل الأكمام، طقم ملابس داخلية جديدة، ارتداها كأنه مراهق يستعد ليوم العيد، لف حول عنقه منديلاً أزرق، حين انعكستْ صورته على المرآة وجد نفسه مثل رسام سريالي، ابتسم بخبث لرغباته الجديدة التي اندفعتْ فجأة، كان يعرف بعض الرسامين في حياته، قبل عقدين تعرَّف على أحدهم، خلال معرض أقامه، خاص بالبورتريهات التي تُظهر

الوجوه الليبية، كانتْ نقداً مباشراً لأسلوب العيش الليبي، طريقته الجديدة لا يمكن أن تنتقد، إنها مساره الذي فقده حين بلغ منتصف الأربعينيات من عمره، لسبب ما كان يفكر في الشاب الذي سيلتقي به عند الخامسة.

«لِمَ أتأنق هكذا؟». ضحك متسائلاً. في قلبه كان هناك شيء يُشعره بالخفة، يجعل منه شاباً مجدداً، فرح وزهو لا يليقان إلا بشاب. حين نزل للبهو الأمامي للفندق، تفاجأ شباب الاستقبال. دخل الكافتيريا، أفطر بشهية واضحة، شرب كميات لا بأس بها من العصائر الطبيعية، المياه واللبن، قرأ الجرائد لساعة، داعب الجميع بنكات موفقة، ولفت نظر التونسي بأن عليه الاهتمام قليلاً بأشيائه الخاصة، فمن لا يستخدمها يفقدها. ضحكوا جميعاً دون أن يعرفوا لماذا يصر التونسي البالغ أربعين عاماً على عدم استخدام تلك الأشياء. كان الضحك خفيفاً كالزخات التي أخذتْ تهمي في الخارج. رفع المسن ياقة معطفه، وضع قبعته على رأسه ثم تقدم ناحية المدينة، لم يهتم بتساؤلات الشبان عن وجهته، بل أصر على الابتعاد متجاهلاً. أحس بوهج الضوء في عينيه، انكساراته في القطرات، تقلبات الألوان المبهجة والمتحفزة، حدق في مقدمة حذائه، بدا له البلل مدهشاً ونقيّاً، كل شيء من حوله كان نقيّاً.

قرابة الثالثة ظهراً، اتجه ناحية ساحة المحكمة. اتخذ زاوية ثم شرع يُراقب الفتيات والشبان والأطفال يبتهجون، تحت انفجارات الألعاب النارية، بين قطرات المطر وإطلاقات المضادة للطائرات، من ناحية الأفق كانتْ أشعة الشمس تضرب سطح البحر، عدة نوارس تناور في الهواء، الأمواج تصخب في قفزات مشاغبة، لم تبدُ له خالية من البهجة، كان قد مر به الشاب قبيل مرور المسن بربع ساعة تقريباً، لم يحس بنفس النورس الذي أخذ يتجول في الهواء محوِّماً في البقعة ذاتها، كأنه مقيم هناك من الأزل وعلى نحو مذهل.

9

على طاولة الشاب في البيت، تستلقي عشرات الصور التجريبية. لم يكن بمزاج جيد منذ أشهر. جهازه الشخصي غدا قديماً، عدة أجهزة أُنهكتْ، صمم بواسطتها صوراً لاقت النجاح. معلقة على جدران أغلب محلات ألعاب الفيديو تغري الأطفال وتدفعهم للنظر والتمتع ومن ثم دفع المال، تخبرهم أشياء كثيرة مهمة عنهم وعن العالم من حولهم. أشياء يعرفونها جيداً وأخرى لا يعرفونها، مع الأيام أخذتْ تتحول إلى ذكريات تُنسى بسهولة.

«النسيان مراوغ». قال الشاب هذا لنفسه وهو ينشف شعر رأسه، من قطرات المياه الباردة، أحس بالنشاط وقد تجمعت ذكرياته ثم أخذتْ تتمدد متداخلة باتساع. أخرج دفتره، كتب كلمات قليلة عن أجنحة النوارس وحواف السحب المضاءة ثم شد خطّاً بقلمه الحبري، تحول إلى سهم عند الهامش كتب بخط مُتَروٍّ وحكيم.

«للنوارس أجنحة قذرة». رسم جناحاً بدا له كجناح صقر من الذاكرة، لوهلة تحير في رسمه هل كان جناح نسر أمريكي؟ ففي الستينيات والسبعينات كانتْ النسور تمثل القوميات الجديدة الشُّجاعة التي أخذتْ تبهر الطلاب آنذاك.

كان في التاسعة حين رأى الجناح الملهم بين الصفحات القديمة والمتهرئة من المذكرات التي خلفها والده، كتابات ورسومات لأصدقاء أبيه من المعهد الناصري. الذكريات الأبوية. أحدهم رسم جناحاً أنيقاً. كتب تحته بخط مرتبك أقرب إلى الجنون أن الذكرى ناقوس يدق في عالم النسيان. بقلم رقيق كتب التاريخ السابع من مايو سنة 1973. أعاد رسم الجناح باهتمام شديد، مفروداً بريشات كأصابع عازفة البيانو. شيء أنيق، أناقة أميرة بافارية.

وضع ملاحظة صغيرة بخط الرقعة المعذب: الجمال تفصيل صغير من الذاكرة. حاول دوماً أن يفهم معنى هذا. كان قليل التجارب. الأشياء بالنسبة إليه لم تكن لتعدو كونها مجرد ظهور مفاجئ. تساءل: لِمَ بدت له ظهوراً مفاجئاً؟ التعبير نفسه يُسبب له الأرق. كل ما عاشه في حياته، كل ما شاهده وما تعامل معه. كيف يسعه إظهار هذا بشكل مفاجئ في تصاميمه؟ لم يستطع طوال السنوات، إنه مضطر أحياناً لوضع كلمات في تصاميمه. هذا يجعل من الصورة ذات طابع كوميدي أو إخباري. لا يجب تشويه الصورة بالتعليقات السياسية.

الجملة التي كُتبتْ خلال السبعينيات بدتْ مُنتهكة. ربما لو ركز الرسام في صورته المستعجلة لوجد جانباً أكثر إبداعاً. الجناح المفرود اكتسب هالته الساحرة لأنه مرتبط بذكرى والده المفقود وبالظلال التي في رأسه باعتباره متلقياً من زمن مختلف. الذكرى والزمن منحا الجناح تلك الهالة. تساءل: لو كان الرسام أحد أصدقائي فهل كان الجناح سيبدو بهذا السحر؟ لم يكن مجرد تساؤل. ضمن ذهنه كان متأكداً أنه سيحتاج إلى ثلاثين سنة على الأقل لكي يكتسب الجناح المفرود

هالته الحالية. «على الصورة أن تكون ذات ذاكرة خاصة بها». هل كان يقصد ذاكرته هو أم ذاكرة الأشياء؟ بالرغم من كل شيء حوله، بدا له أن المعنى في «صورة الفوتوشوب» لا بدَّ أن يعيش على ذاكرة من نوع مميز. عرف أن هناك حيلة صغيرة في اللعبة. كان يعرف هذا حين يُطالع تلك اللقاءات المطولة على صفحات الويب كما يعرف بشكل واضح من متابعته للأفلام القصيرة المنشورة على اليوتيوب. الذاكرة هدف فني خالص.

ما يحتاج إليه هو بالضبط ذاكرة لا تبهت ضمن الجمود كتلك التي في التماثيل الرومانية. لديه مخزون هائل من الصور، بعضها عن تمثال بعينه مصور من عدة زوايا، وأخرى تُظهر بعض شوارع بنغازي خلال أوقات متباينة كما أنه كان يمتلك المئات من الصور لفتيات الثانويات التخصصية في صباحات بنغازي المشرقة. مواده الخام متوفرة؛ فهو مهتم بقامات أشجار الدوم. أجنحة النوارس. تشكيلات السحب وأعمدة النور التي تعلو الجسور والكباري، كأنها تمسح خفية بالامتدادات الضوئية تلك السيارات المسرعة.

أحياناً كان يستخدم صوراً يقوم بتنزيلها من صفحات التواصل. غالباً ما تكون ذات علاقة بالليالي العربية، الموسيقى والأضواء الفضية التي تضيء الجميلات بالحرير الأحمر والوردي يرقصن على أنغام الموشحات الأندلسية، حاملات النبيذ الأبيض الجاف في الأكواب الزجاجية الغليظة الحواف، مؤكداً لنفسه أن تفصيلاً صغيراً في الذكرى، تفصيل صغير بالفن. غالباً ما تكون التفاصيل ممزوجة بذكرياته الخاصة، فالصور تُحفز ذاكرته ليستعيد أحداثاً من طفولته. تنبثق بثبات كذكريات معتمة تسعى للنور، يجمعها بعناية أثناء ليالي وحدته ثم يسلط عليها الضوء باستخدام الكلمات؛ بحثاً عن الجمال فيها، أحياناً يخلق صورة ناضجة، كخد فتاة في الثامنة عشرة، تلك الذكريات المغرقة في الظلمة، يعتبرها ومضات مستقبلية ضمن الظلمة.

«في النهاية يُمكن التنبؤ بما تعنيه». مشاعره تكون مرهفة.

جسده يكون خفيفاً وذاكرته متقدة فيما يحادث نفسه كفنان مدرَّب، يقول كلمات يعجز لاحقاً عن تذكرها بكل وضوحها الأول، كان يعاني بسبب ذلك بعض التيه والشرود، كصاحب رؤية فنية خاصة. لا يفضل كثيراً تلك الكلمات التي يضعها في صوره لنقص الرؤية بالذات.

«إذا اتسعت الرؤية، ضاقتْ العبارة». ترعبه هذه المقولة لأنها تذكره بحسب فهمه الفريد بأن «وجود العبارات تعني دوماً نقصاً في الرؤية»، لكنه لم يتوقف عن استخدامها بسبب ضرورتها.

«التنبؤ شيء كما أن محاولات التفسير شيء آخر مختلف». هذا ما قاله للحصان الأبيض. كانا أمام ميناء بنغازي. التقى به بالمصادفة المحضة خلال إحدى جولاته. حافلاً بالأفكار حيال صوره التي أخذ يكدسها كأرشيف مستقبلي. أخذتْ الصور تتسلسل مكونة نوعاً من الذاكرة الخاصة. لحظات مجمَّدة ومتوقعة كالواقع المتخيَّل نفسه.

واصل جمع صورته الخيالية.

طوال الليل وبهدوء راسخ.

البحر الليبي في حالة هياج. القطرات الباردة للمطر تخز ظهره، فيغضب حتى يفقد وقاره. لم يحدث أن ثار قبلاً، طوال القرنين المنصرمين تجولتْ الفرقاطات، البوارج والقوادس على ظهره، لم يغضب قط، ظل محكم المشاعر، مغزوّاً بالنجوم الباردة، متلألئاً بالبواخر الجاثمة بهدوء مفزع عند الأفق، ليغيب متحداً مع البعد والسماء.

هكذا جمع خيوط صورته الأخيرة.

الساعة الثانية فجراً، داخل غرفته، يُسمع على مبعدة نباح كلاب شاردة، منهكاً في تجسيد ذكرياته، لتصميم صورة واحدة متشعبة على الفوتوشوب. في دفتر يومياته الأسود المغلف بالجلد الصناعي حدد عناصر الصورة، عدد النوارس، الزوايا المضاءة التي ستظهر فيها، كما حدد شكل الغيوم المتراصة بحوافها المضاءة بالفيض الشمسي المحبوس بالدفء. الأذرع الحديدية الصدئة للرافعات. السفن القديمة الراسية عند الرصيف البحري. القوارب الخشبية الصغيرة التي تركها الصيادون لليوم التالي.

من عند الأفق حتى الشاطئ، كانتْ المياه مضطربة وتبدو هائجة، أمواج تعلوها قمم بيضاء كإوزات تائهة، تنساب مع الأمواج إلى حيث يقف تجسيد الكامل لحياته، هو جزء من ماضيه الأثير. تطلع إلى «الحصان الأبيض» في الصورة، بدا واقفاً بقلق متزايد كأنه على وشك التحليق، رجل في الهواء، جسد متحفز، يتطلع إلى فراغ عميق، نحو شوارع بنغازي.

«إنها الصورة النهائية». هكذا بدتْ بالنسبة إليه، حاشدة بالتفاصيل الشخصية والمشاعر والذكريات «تماماً مثل قصيدة صينية». قام بتكبير الصورة، لم يعد حصاناً منهكاً ومهملاً.

استغرقته هذه الرؤية كثيراً من الوقت، سنوات من حياته مرتْ بلا أحداث جديدة، بالتالي لا ذكريات، إنها واحدة من تلك الرؤى التي لم ينسها لحظة واحدة، كان يُغمض عينيه، فيرى الحصان الأبيض على قائمتيه الخلفيتين، مستعدّاً وبلا فارس على ظهره مثل أحصنة الحروب الأولى، ذكرى قديمة ومؤلمة ضمن شوارع بنغازي. الأمطار المعتمة وصوت الفرامل على الإسفلت. العينان المعتمتان. الخطم الجاف يزداد رطوبة. الشعيرات عليه تزداد سماكة، إنها متناثرة.

كان هناك مجدداً.

غمره إحساس هائل بألفة الالتقاء بصديق قديم.

«ها أنت مجدداً». قال وهو يمد أصابعه ليلمس الشاشة.

كان قد بدأ العمل على هذه الصورة باحثاً عن تفاصيلها النهائية وقد ألحَّتْ عليه طوال ستة أشهر متتالية حتى إنه لم يعد بوسعه العمل على أية صورة أخرى. كان لا بُدَّ من الانتهاء منها أولاً ثم العمل بحثاً عن الخلاص. لم يسبق أن أرهقته صورة بهذا القدر، بدتْ له تماثُلاً هائلاً للاسطورة الحية، أسطورته الشخصية.

«لا يمكنني رؤيتها بشكل كامل، إنها متسعة». هذا ما قاله متأسفاً لنفسه وهو يغمر رأسه في حوض مليء بالماء. كانت القطرات تسيل ببرودة عبر ظهره حين فكر بصوت عالٍ قائلاً: «لا تبدو الأشياء كما يجب عليها أن تبدو، دائماً هناك اختلاف».

10

عند الميناء، قبل سنوات، أمام الحصان الأبيض.

بدا كل شيء متوقفاً.

«أن تعرف أكثر عن نفسك، يعني أن تبدأ فقد الأشياء القليلة التي بدأت باكتسابها».

هكذا أخبر الحصان الأبيض، آنذاك.

بدأ الحصان يُحرك رأسه متطلعاً للمياه التي أخذت تضرب المادة الإسمنتية برقرقة ناعمة فيما واصلت النجوم مكوثها البارد ناشرة ضوءاً بهيجاً فوق الصفحة المظلمة للسماء كأنها تحدق فيما يحدث بسخرية.

«أظن أنها تفعل، أتظن أنت؟». الحصان الأبيض لم يظن، قطُّ.

كان يواصل المضغ ببطء فحسب مثل أي جواد سباق منهك ثم يتطلع إلى الطريق المكتظ بالسيارات المسرعة بأضوائها الليزرية، التي تبدو له كأنها تسحب بخيوط مضيئة نحو عينيه مثل من يعاني ضعفاً في بصره. جفاف بارد، خشن لا يستطيع التغلب عليه، يمكث في عينيه إذ لا دموع فيهما غالباً، إنه خلو من الدموع منذ أكثر من عشر سنوات. هل هذا يعني أنه خالٍ من المشاعر الحقيقية؟ هل تلغي الذكريات المشاعر حتى تنضب الدموع؟ تصاميمه تبعث في نفسه شعلة مذهلة تحرق عينيه بفيض غامر.

«ليس دائماً».

«ربما يكون بوسعي فعل شيء». قال لنفسه كأنه شخص آخر أمام جهازه ثم أجاب نفسه متسائلاً.

«شيء مثل ماذا؟».

«استعمال ألق القمر كدموع، ربما».

«لا ينفع».

كان يعرف ذلك، إنما متعته في «الاستغراق الذاتي» أمر ملهم بالنسبة إليه.

وضع تلك الخيالات المستعادة من زمن الطفولة في خدمة نواقصه الشخصية ضمن صورته. مكدساً حتى حافة رأسه بذكرياته القديمة. استطاع دوماً بأسلوب ما أن يوظِّف خيالاته حول الحصان الأبيض، في خدمة النواقص من ذكرياته الطفولية من أجل جمعها بمثابة مصادفات. صور ذهنية من 2007 التُقِطَت مع ذكريات شخصية جديدة عموماً من قبل خمس سنوات تمازجت بلحظات مجمدة مطردة في الاتساع والقِدم في صور نضجتْ بهدوء.

داخل غرفته على الجدار في لوحة مخططات تصاميمه، هيكل قصة وقعت قبل عقد كامل. الثمرة الناضجة التي كادت تسقط منه عبثاً. الركيزة الأساسية لذكرياته والمنطلق الفعلي لتصاميمه في الفوتوشوب من الذاكرة. كان كل شيء هادئاً، منظماً وباعثاً على «الكآبة الأنيقة» في تلك الصورة، كالعشق المهزوم من عشرينيات عمره. وجد نفسه محتدماً بذلك الإحساس الجارف لإعادة تكوين أجزاء من الماضي.

داخل إحدى قاعات الجامعة رأى ساقيها بزرقة الجينز المشدود بعطف شهواني. كانتْ تُغادر القاعة بجرأة عارضة أزياء باريسية ذات خطوات متداخلة وراقصة، مبتهجة ومتقنة، غنج أنثوي لحدود التحرر. عيناه لم تفارقا الأرض قبلاً، برؤيتها ظهرتْ السماء بندف كالثلج. لم يعد يبصر ما على الأرض. بعد عقد كامل، أكثر أو أقل، لم يلتفت للأحداث الأرضية خلالها حتى غدتْ الذكريات والأحلام عشقه الحقيقي. البحث عن الزمن الضائع.

ضمن صوره يُظهر هذه التفاصيل على أنها لغز كامل كأنه لا يعيش هنا. لا دموع في عينيه، على الدوام يبدو كمن يعاني ألماً مفاجئاً، كضوء البرق، من الخارج يبعث على الاستغراب والتأمل. سرعان ما يتحول إلى نوع من الاحترام عندما يرون تشكيلاته الجريئة على الفوتوشوب. إنها تجمع عواطف قديمة شبه منسية، لم تعد موجودة، تستمد وجودها الخيالي من خلال يومياته. الثمار الناضجة التي كادتْ تقع خفية. اكتشف واحدة بسبب من لقاء غامض مع عجوز في إحدى العيادات. ابتسمتْ في وجهه ثم أخذتْ تربت على كتفه كأنه حفيدها. كانا معاً في عيادة للأسنان. كان يعاني ألماً متأكداً أنها بدورها تعاني الألم ذاته.

«تتوجع يا بني؟». استغرب من «النبرة الصادقة» في رثائها لحاله. لم يمنح ما حدث اهتماماً كافياً نسيه طوال النهار ثم تذكره ليلاً عندما جلس أمام جهازه لتشكيل صور ذكرياته. بدتْ جملة رائعة. لم يسمعها من قبل بتلك النبرة الإنسانية التي حاول دوماً وضعها في صوره المصممة. النبرة العاطفية التي بحث عنها طويلاً عبر ظلال النخيل. الروايات الفرنسية المترجمة. ملصقات الثلاثينيات. أشكال السحب غير المتوقعة واللوحات المرسومة للإعلانات داخل المجلات الفنية وفي نهايات الروايات العاطفية. كان يُشاهد الأفلام التحررية بنهم شديد كما يركض ليلاً عبر الطرقات الترابية بلا سبب حقيقي، إلا لكونه خاضعاً لضغط ذكرى طفولية لا يجد لها منفذاً إلى تشكيلاته الفنية، تظل تتعزز حتى يُصاب بالحمى، ليكتشف أن الذكريات كالصور، ذات ظلال، تفاصيل بلا نهاية كلما تذكر جزءاً منها وشرع يرتبه داخل الصورة، تقفز إلى ذهنه أجزاء أخرى. غدتْ لوحته مكتظة بالصور العشوائية المتتالية، إنه في متاهة كبرى، كالحمى.

في السابق، لم يكن بوسعه التغلب على إحساس الحمى إلا بالركض. متخطياً عبر ليل بلدته عشرات الذكريات، المشاعر، الصور واللحظات، عابراً الطرقات الترابية بسرعة رهيبة كي لا تدهمه تلك التويوتا التي كانتْ تلاحقه غالباً. أصبح يعرف أن المسألة شبه متخيَّلة. طاردته سيارة تويوتا موديل 78 حين كان في الخامسة. لم يستطع التغلب على جنون الذكرى إلا بالهرب بعيداً. الثيمة الأساسية في أحلامه. كان يستيقظ ليلاً وهو يعاني من إرهاق جسدي كامل. لم يعد كل هذا مقنعاً، فالازدحام في الذاكرة يُمثل ضغطاً نفسيّاً، بالنسبة إليه. الركض كان يريحه ثم لم يعد. الشِّعر ساعده خلال فترات المراهقة، التمتع بالرسوم والكلمات، البحث عن الأسلوب الأمثل لشرح تلك القصص القصيرة عن نفسه، العمل مراراً بهدوء بالغ بحثاً عن ذكرياته الأولى.

لسبب ما هو بحاجة إليها، لكنها لم تعد مفيدة لحياته اليومية. هو حالياً في بنغازي. الركض لم يعد أحد خياراته المفضلة، صار يعتمد على أساليب أخرى غير الجري المرهق، أسلوب واحد هو الجلوس على طاولته، فتح دفتره الأسود والغرق في محاولات تلو الأخرى لتصميم صورة تشرح جزءاً مما يعانيه. جميع شوارع المدينة تظهر برؤيته الخاصة، بعضها تعود مسرعة إلى سبعينيات القرن الماضي، والأخرى تشتعل بأضواء المشاعل الرمضانية وبانفجارات الألعاب النارية في سمائها المعتمة. العائلات تسير حاملة أقماع الآيس كريم، وهي تصطحب أبناءها إلى الكورنيش. كان يرسم ويلتقط المزيد من الصور، يُحادث الباعة الجوالين. يبتسم لهم، هم لا يعرفونه، منهم يلتقط الثيمات الجديدة لمشروعه القادم.

جلس لاستعادة ذكريات وقعت مع مسن في السبعينيات. كانا قد تقابلا سنة 2007، كلاهما يحمل سرّاً يخفيه عن الآخر. الحياة تعيد نفسها. هذا ما قاله المسن وهو يتطلع نحو الأفق.

كان ذلك في لقائها الثالث ربما خلال شهر واحد. غابا عن بعضهما لخمس سنوات. بدا له اللقاء مثاليّاً جّداً. لم يفكر حوله كثيراً. انسجم معه بسرعة وأخذ يحادثه كأنهما لم يفترقا قط.

«الحياة تبدو جيدة على هذا النحو كأننا نعيد متابعة مسلسل قديم». ضحك المسن وأخذ يحك بأصابعه من الداخل على ذقنه.

«لا أتابع المسلسلات، حياتي كلها تكرار من الذاكرة». إعجابه به قبل سنوات كان بسبب اعتماد «المسن السبعيني» على ذكرياته لكي يواصل حياته بشكل شبه طبيعي. نفس السبب هو ما أثار إعجابه خلال اللقاء الثاني. «الحياة تعيد نفسها فعلاً». قال بخيبة مغلفة. خطط لمدة أن يصمم صورة عنه. كان يُعاني من مشكلات خاصة آنذاك دفعته في تجارب مجنونة للبحث عن ذاته. حينما استعاد فكرة التصميم أخذ يُقلب بين أوراقه بحثاً عن تلك البدايات المقلقة.

وجد الصور بين أرشيفه السنوي؛ فدهش لمقدار التوافق. لم يختلف فيه شيء، نفس الذقن غير الحليق، نفس الفرملة الحائلة، نفس الكلمات تقريباً كأنه لم يكبر قط، أصبح أصغر سنّاً من حيث قاموسه اللغوي، شاب ملكي في السبعين،

كيف لم يقم بإتمام التصميم؟ ربما مشاكله أنسته مشروعه الفني حول الرجل، إنه يتذكر تفاصيل من حواراتهما القديمة، إنها موثَّقة بوضوح ضمن لوحاته الجديدة، مسن من الجهاز الأمني وشاب خرج للتو من تهم الخيانة العظمى دون أن يعرف سبب القبض عليه أو سبب خروجه وإطلاق سراحه.

11

كانا على متن إحدى الحافلات المنسابة ناحية الفويهات. كان ذلك أثناء شتاء 2007. البلاد في انتظار عاصفة هائلة. عطلت خلالها المدارس، المؤسسات والدوائر الحكومية. أخذتْ الأضواء تنساب بوداعة. الليل الهادئ، الأضواء والموسيقى المروكية مع همهمات الركاب الذين كانوا يتحدثون عن الطقس والأعاصير الوشيكة. تطلَّع إلى المسن، لم يكن يبتسم. لم يفهم سبب التصميم على هذا الاستجواب. بدا له مرعباً كفاية أن يكون الإنسان واثقاً من رأيه. الفرملة الحائلة، الذقن النابت منحاه مظهر شخص يمتلك تجارب كافية.

«كل ما يجب أن يحدث، يجب أن يحدث».

«يحزنني أن تحدث مراراً، الأخطاء لا تكف عن الحدوث».

«هذا تصرف مزاجي، لا بُدَّ أن تمتلك مزاج فنان كي لا تتأثر مجاناً».

ضحك المسن.

«تمر عليه الأيام على نحو بالغ الصعوبة». كتب الشاب هذه الملاحظات ضمن يومياته «حيث يفتقد الرؤية الكاملة للأشياء من حوله، وإلا فالضحكة العادية يجب أن تحتوي على خلفية تاريخية شاملة مليئة بالتفاصيل».

«ما أعرفه أن التفاصيل تحمل كل الحقائق، لا الحقيقة». قال الشاب.

«أنت تعرف القليل حتى اللحظة، بوسعي منحك حقيقة واحدة، ستقودك حتماً إلى متاهات لن تقدر على العودة منها».

«منذ سنوات، أعبر متاهات مماثلة، لا فرق».

«لا تحاول فهمها مطلقاً، أنت تسعى إلى وضع دقائق تاريخية على ما أعتقد».

«لا أعرف».

«عملك يتحدث عن التاريخ، أنت تضع ماو تسي تونغ بجوار أتاتورك، أي شيء يدفعك لفعل هذا غير التاريخ؟».

«الفن؟».

«لكنه يظل تاريخاً».

«خيال، أعتقد».

«التاريخ المتخيَّل فن تاريخي».

«تجعل من عملي كله تفسيراً فنيّاً للتاريخ».

«فانتازيا بدلاً من الاستغراق في وضع لوحة كبيرة عن القادة».

«إنها ليستْ عن القادة».

«حسناً هذا الجانب الذي رأيته».

«أظنني أعمل على أكثر من خمسمائة صورة».

«معرض كامل».

«ربما سأحتاج إلى أكبر جدارية في التاريخ». قال الشاب شبه مازح، لكن المسن علق بجدية: «أرأيت، أنت بنفسك تعود إلى التاريخ».

«لا تجعل من التاريخ مبرراً».

«إنه كذلك، أنت تفعل، عن قصد». فكر بهدوء، كانتْ الحافلة تنعطف ببطء.

«تتمسك حتماً برؤيتك، أنا مختلف جدّاً، ما أفعله يقترن عادة في ذهني بما سعى إليه بطرس الأكبر مثلاً، إيفان الرهيب في روسيا، الأيقونات الكبرى في الكنائس، ما قدمه رامبرانت، تلك العاطفة الجياشة والموزعة في صور فان غوخ، إنها معقدة، أفتقد السلاسة».

حك المسن ذقنه ثم قال: «أعتقد أنك تفتقد نفسك». نظر إليه الشاب، فأضاف المسن: «إنها متاهتك، أظن أنك تتخطاها بكتابة اليوميات».

«حتى إنني توقفت عن كتابة يومياتي، أظن أنني سأحرق دفاتري الباقية، إنها ليست سوى إعلانات كاذبة وتهم جاهزة، إنها تحبس الروح، لا أظنني قادراً حتى على التحرر بوجودها، اليوميات حبس للروح، ألا ترى معي هذه الناحية المعتمة من وجودها؟».

«أُدرك أنها تغدو معقدة بمرور الزمن، منذ متى وأنت تكتبها؟».

«منذ زمن طويل، إنها عادة ورثتها عن والدي».

«مع ذلك، هذه الرغبة لا تمنع وجود شخص يستمتع بها».

«إنها بلادة، غير صادقة على الإطلاق وتقود إلى الأوهام، حتى إنني أستمتع بقراءة تاريخ هيرودوت».

ضحك المسن وقال: «أنت تكره التاريخ فعلاً».

«أحياناً أحب أن أحاكم التاريخ بلا سبب وبلا منهج، يحق لي هذا، أظنها مادة لاختراع أفضل كذبة».

«يجب أن تقول هذا لتويني».

«ما كتبه يشابه ما سطره هيرودوت».

«سمعتُ بأن الفنان يعمل على قتل التاريخ لينتج عملاً يحوي التاريخ بحسب طبعه الشخصي، جيمس جويس فعل هذا، بورخيس فعل هذا على الدوام متكئاً على أسماء مثل ستيفينسون وجورج برنارد شو وبيركلي».

«تستهويني فكرة القتل في التاريخ». كانت تستهويه فكرة القتل السياسي في التفاصيل التاريخية، لم يتكلم بوضوح، قبل هذا. كان اعترافاً هائلاً ومجازفة كبيرة أمام مخبر أمني، أن يتحدث عن القتل السياسي، في لحظة سهو. لم تعد الأفكار المهمة غامضة مثلما كانتْ في السابق.

«هل ترى للقتل أهمية؟».

«إن ادعينا أن ما نفعله هو مجرد حديث؛ فالقتل بالنسبة لي هو تعبير عن أفكار قصوى حين يتعلق بالعشق مثلاً، أن تكون قادراً على سحق الأعداء الذين يودون أذية من تحب، هذا أمر تنويري على نحو بالغ الجنون».

«العشق، الجنون، التاريخ والفن، عناصر تفتقد القتل».

«كما أنها تفتقد عنصراً آخر». قال الشاب منبهاً، في حين ظل المسن يحدق فيه منتظراً العنصر المفقود، ابتسم الشاب ثم قال: «الشرارة».

«أوه نعم، الجزئية المفتعلة في كل قصص التاريخ».

«لا يُمكن لشيء أن يقع مصادفة».

«هذه أجواء سياسية». قال المسن بأستاذية: «أجواء تصاحب عدم الثقة وسوء الطوية، هل تجد في نفسك شيئاً منها؟».

هز الشاب رأسه موافقاً ولم ينبس بكلمة.

«هل هذا مهم؟». تساءل المسن.

«لا يتعلق كل هذا بالأهمية». قال الشاب.

«بماذا يتعلق؟». سأل المسن.

«بالأفكار ربما، بكون هناك سبب أخلاقي يدفعك للقتل».

«حماية الدولة؟». تساءل المسن، فكر الشاب لثوان ثم أجاب: «ربما، لكن ماذا لو نجح المقتول المفترَض في تفتيت الدولة».

«أوه، نعم إنها البهجة القصوى». بدا المسن متحمساً.

«حقّاً؟». استغرب الشاب هذا.

«إنها أفكار تراود الشعب، إسقاط الدولة». قال المسن مقللاً من أهمية المسألة وأضاف: «لذا نحن على هذه الحافلات الشعبية، لنسمع المزيد منها، أعرف ما تفكر فيه، كل هذا الدوران حول التاريخ والعشق والقتل، أنت تعاني الكثير أيها الشاب، تعاني الكثير».

«ليس بالقدر المناسب».

«بتقبلك هذا تبدو مختلفاً».

«ليس كثيراً، تعلمتُ أن الناس يتقبلون المعاناة لأسباب دينية».

«تماماً كما يتقبلون القتل لأسباب دينية».

«أن تقتل بحد يمنحك النظام في المجتمع، أظن أنه من هذه الناحية حتى علماء الأديان يتساهلون مع الحكام. الدين نفسه يمنح هذه الميزة، إن كان يعني بحثاً عن النظام».

كان الشاب يُفكر على نحو عاصف، مشاعر جياشة، استغرق في التفكير. كتب في يومياته رأيه حيال القيادة السياسية أو الأمزجة الديكتاتورية، فهي تمنح الكثير من القدرات لمعرفة ذوات الآخرين، في حين تلغي إمكانية معرفة الذات. عندها سيكون على «الديكتاتور– الضحية» التفكير في تحقيق الرغبات على أنها وسائل لمعرفة الذات.

في ذهن الشاب ازدحمت صور غير مكتملة عن المسألة، لم يكن يعرف سبب تحول الفن في حياته إلى مضاد دائم للتاريخ والرغبات السياسية، ساحة لتوضيح عدم اعترافه بأحداث وقعتْ فعلاً بحسب الجميع. كان يجهل الكثير مما يدور حوله، لم يكن يمتلك أي مراجع، يجهل أنه يظل يدور حول موضوعات أساسية في حياته، يُدرك ماهيتها أثناء لحظات الصفاء التي لا تتحقَّق إلا في كوابيسه كما يسميها بين صفحات يومياته لمجرد أنه لا يفهمها.

هل هذه تعتبر لحظة صفاء؟

«كل شيء متعلق بالرؤية، وأظن أنك تمتلكها». قال المسن.

«ليس بقدر ما تظن».

«صورك التي تتحدث عن تحطيم البوارج، سخريتك من القادة، قدرتك على خلق مثل تلك الصورة، تعني أمراً واحداً بالنسبة لي: أنك قادر بالفعل على تحقيق تلك الرؤية الكاملة التي تسعى إليها».

«مع ذلك لا ينقذني من السجن إلا جلاد سابق».

«ألا تعتقد أن صورك هي التي أخرجتك». سأل المسن بغضب.

«لا أعتقد أن سبب سجني هو ذاته سبب إطلاق سراحي، كما أنني لا أخشى أن أُقتل، كان يجب أن أُقتل بدل حسان، كان يجب أن أكون مرتاحاً داخل مقبرة في هذه اللحظات».

«أو، أيها الشاب، إنني متأسف بالفعل».

لحظة صمت.

«أظنني أخشى منك». قال الشاب هذا، وقبل أن يجيب المسن زعق سائق الحافلة بأنها المحطة الأخيرة. نزلا من الحافلة، شاهداها تعبر بهدوء نحو الجانب الآخر من الشارع. العتمة الشفافة كانتْ تكتنف كل شيء، بحنان بالغ. سارا بهدوء وبلا كلمات. سمعا نباحاً من بعيد، عبور السيارات بسرعة، عبر الشجيرات شاهدا قططاً مجتمعة، وهي تحدق بفضول وحشي.

«قلت لك إنه لا خوف مني». طاف صوت المسن حوله للحظات، قلَّت خلالها حركة السيارات.

«ما لا أفهمه هو لماذا تصر على محادثتي».

«أشعر بأني أرغب في الحديث معك».

«تظن أنني ضالع في مخطط ضد الدولة».

«لا، أنت فقط تتحدث عن تفتيتها».

«تعرف جيداً أنني أعجز إلا عن الحديث، ثم إنه بوسعك فعل ما تشاء، أدرك أن حياتي غدتْ مُهَدَّدة، لم أعد أحتمل الانتظار، أعرف أنني نقطة حمراء».

بعد عدة خطوات، قال المسن: «إنهم لن يعثروا على شيء ضدك، أنت لست في خصام شخصي مع أحد، ثم إنني اتلفت كل الملفات المتعلقة بك، تلك التي وُضعَتْ بسبب أحداث السفارة الإيطالية أو التي وُضعَتْ قبل ذلك، أنت نقطة

بيضاء ضمن صفحة بيضاء، لن يلاحقك أحد، لا تقلق».

«دائماً ما يفعلون».

«لا لن يفعلوا معك». لم يكن بقادر على تصديق المسن، الذي أضاف: «خوفك غير مبرَّر».

«لم يعد يهمني هذا». قال الشاب.

«لكني يهمني أن ترتاح من ناحيتي».

حين أشارت إحدى الحافلات بأضوائها الأمامية، أوقفاها واستقلا عائدين إلى المحطة الرئيسية حيث نزل بصمت ومن دون وداع. استقل حافلة أخرى إلى منطقته السكنية، واتخذ المسن طريقه مشياً بين المباني، شاهده يغرق في الظلمة، بدا مثل شبح لا مكان له إلا عقله، تساءل إن كان حقيقيًّاً. كانت تلك آخر مرة يُشاهد فيها المسن طوال خمس سنوات أخرى.

المرة الأولى كانتْ مختلفة بعض الشيء.

12

كان في طريقه إلى البيت ليلة رأس السنة 2007 وعلى إحدى «حافلات الربع» تقابل مع المسن للمرة الأولى، كان يحمل معه كان كتاباً، دخل معه في حوارات متواصلة عن المدينة، أعمدة النور التي تشابه حراساً ملائكيين، العواصف الوشيكة بحسب الأرصاد الجوية، كتابات بورخيس ونيتشه كما تحدثا عن بعض التاريخ بصفات شخصية.

«العائلات العثمانية ماذا تعرف عنها؟».

«ليس الكثير».

«الثلاثينيات شهدت مصرع آخر تلك العائلات». أكد المسن بأسلوب مدرسي ما بدا حواراً مضحكاً. لكل هذا التواطؤ المحكم، أخذ يتحدث بحماس وثقة عن عشرات العائلات التي سقطتْ في مواجهات عنيفة لا قبل لها مع الوعي الليبي الوليد، بعضها لا تزال موالية للحكومات العثمانية القديمة، تم كسر شوكتها بدقة جراحية. لم يحدث هذا إلا ضمن فوضى التاريخ.

«الثلاثينيات بداية نجاح الحركة الأوروبية ضد تلك العائلات».

«مدهش». قال الشاب.

«أعرف تلك الفترة جيداً، تستطيع أن تثق بكل ما أقول لك».

«لا أعرف» قال الشاب مؤكداً أن: «التاريخ غريب، كذلك الثقة».

«إنه غالباً غير مكتوب، فمثلاً أنت لن تجد بسهولة مراجع تتحدث عن الحروب الاستخباراتية العثمانية والأوروبية على الأرض الليبية».

«اعتقدتُ دوماً بوجود نوع كهذا من المعارك، قتال لأجل المخطوطات الجغرافية».

«جميع الحركات السياسية الليبية انعكاس لأفعال الباشا، طرابلس، بنغازي، الصراعات، الإبادات الجماعية داخل المباني الحكومية. انهيار السلطات أثناء محاولات إخماد الثورات جميعها انعكاسات فحسب. الحقيقة ذات أبعاد محدودة».

انسابت بهما الحافلة بهدوء، الأضواء تنعكس بسلاسة في عينيه الباردتين كجوهرتين لامعتين على وجهه الخالي من الملامح ما عدا ذقنه الذي لم يحلقه منذ عدة أيام كما بدا آنذاك.

«أخبروني بأنك صممت صوراً عن العصر العثماني».

قال بعد صمت مُتَخلَّل بموسيقى المروكية. شعر في تلك اللحظة بمغص حاد مع انقباض مفاجئ في أعماقه. اختفى الهدوء كالوهم بين طيَّات نبرته الخشنة.

«لا تقلق، لستُ مراقِباً من أي نوع. فقط قرأتُ الملف الأمني الذي وضع عنك. أعرف أنك فنان حقيقي. هم لا يعرفون. أنت لا تعرفهم أيضاً. هم حمقى لا يقدِّرون الجهود التاريخية التي قمت بها. رائع تصميمك عن باشا أحمد القرمانلي الهارب. لوحتك عن المجزرة التي وقعت للجوازي في بنغازي تحليل مُدهش. خطاب كامل من الصور. هل قرأت خطاباً سياسيّاً لأحدهم؟ مصطفى كمال أتاتورك أثناء رحلاته السرية بالأناضول. جمال عبد الناصر عن قناة السويس. الخطاب الرهيب للرئيس المصري أنور السادات. هل قرأت الخطابات القومية كلها؟ لينين تحت الراية الحمراء، دعوات ماو تسي تونغ إلى التلقيح المنهجي لإنتاج الطماطم بحجم البطيخ. تستهزئ بخطابات الزعيم؟ لا أفهم تلك الجزئية من الصورة. أفترض أنك قاربت منهج السرية ضمن العقلية المعقدة التي تُسير بها البلاد. إنه ليس تصميماً لمجرد حفل خطابي. أنت تجرب أمراً. مشاعر الثورة. أنت تهزأ. ألهذا اخترت زمن القرمانلي مرتبطاً بهذا الكم من الأسماء حتى إنك لم تنس جان دارك. الليبيون حالياً لا يعرفون جان دارك. كانتْ رمزاً ثوريّاً في صحف الستينيات إلا أنها ظلتْ بعيدة عن تاريخنا الفعلي. علام كنت تعتمد لتتحكم بسير الصور الرمزية؟ ما هي الزاوية المناسبة لرؤية ما تقوله الصورة؟».

كان المسن محموماً برغباته الشخصية.

صمت الشاب المطبق في الحافلة، لم يكن سكوناً حقيقيّاً، بل مزيج هائل من الرعب الداخلي وتوقع الأسوأ. لثوان طاف حول ذكرياته الأشد حزناً، وقد ظن قبل أشهر أنه انتهى من حياته السابقة.

كان قد أتم عدة أعمال صورية لصالح بعض «تشاركيات العصائر» قبض ثمناً جيداً يكفيه لقرابة تسعة أشهر، موعوداً بعمل ضخم لنشر إعلانات ثلاث تشاركيات عبر بنغازي وطرابلس. صديقه حسان كان يدعمه لإيجاد زبائن من مكاتب الشركات الكبرى. ترك له إرثاً كبيراً من العناوين والعلاقات التي لم يستعملها قط.

«ليس هنا إعلان ليبي، الإعلانات العالمية لا تقنع الزبون الليبي؛ لذا لا بُدَّ من خلق إعلان ليبي خالص». كان حديثاً مضحكاً، إنما لا بُدَّ من هذه الهفوات الوطنية.

«الغرق في العوالم البائسة كالإعلانات». كما كتب في يومياته. طموح حسان لم يكن له حد.

سقط تحت التعذيب في أعقاب ثورة شبابية خلال فبراير 2006 لأنه قام بتصوير المظاهرات وكان مصدر نشرها في الصحف العالمية حول الأحداث التي جرتْ أمام القنصلية الإيطالية، ولم يدرج اسمه مع القتلى.

في حين تم القبض «عليه هو» شخصيّاً كشريك رئيسي في المكتب الإعلاني ومن ثم المخطط التخريبي، بعد «جولات التحقيق» معه على مدى شهر كامل، خرج تائهاً بشكل لا يصدق.

عملا معاً على سبع لوحات إعلانية، لتشاركيات متنوعة، محال أزياء نسائية، مكتبات متخصصة في الروايات المستعملة، دكاكين صغيرة في الأسواق الشعبية، محلات قرطاسية، واجهات عيادات خاصة، جداريات لمدارس الجاليات الأجنبية. كانت الذروة عبارة عن مهرجان خطابي. صمَّما معاً لوحات قوية من الذاكرة عن السبعينيات والثلاثينيات فيها أجزاء متخيَّلة مستمَدة من القرن الثامن عشر ببنغازي. الثورات الفاشلة على الحكومة العثمانية كما تم فرد صورة أسطورية ضخمة عن تحطيم البوارج، القواديس الأوروبية: النابوليتانية، التوسكانية، الفرنسية وتحطيم سطوة القناصل الأوروبية: الإنجليزية، الفرنسية، الهولندية والدنماركية،كما وضعا صورة مذهلة لكتائب المجاهدين بأسلوب أحدث زمنيّاً وهم يقتحمون التنظيمات العسكرية لجيوش روما على الشواطئ الليبية.

«أنت تلغي التاريخ بدحر الطليان عند الشواطئ».

«أتظن أن التاريخ منصف؟».

«أعتقد أنه منصف على نحو ما. التاريخ العسكري يتحول إلى عروض فنية. أعشق الرؤية من هذه الناحية. الاحتلال أظهر الخريطة السياسية للبلاد. دوماً المجاهدون هم الحدود الأولى».

«عشق الفن».

«نعم، هو كذلك».

«كما أخبرتك». قال وهو يرتب فرملته الحائلة: «لست أعمل ضدك، هم لم يفهموا ما فهمت، لن يفعلوا يوماً. فقط، أردتُ فتح حوارات متشعبة وممتعة معك. أنت ترى هذا».

مد يديه المجعدتين، عليها وشوم خضراء.

«أشعر بالعار من بعض الأشياء المخزنة التي أقدمتُ عليها. وشمتُ نفسي. كنتُ صغيراً. إنها تسبب لي العار، لا أرتدي إلا الأكمام الطويلة؛ لأنها تغطي هذه الأوشام، تسبب لي الكوابيس. أنا مسن أقارب السبعين. وجودي في تلك المكاتب الأمنية، ليس لأني أنفعهم في شيء. في نظرهم أنا حرس قديم، بالتالي عدو، على أقل تقدير أنا عنصر بلا قيمة. أنت بكل الشبهات السياسية التي تحيط حولك أكثر أماناً بالنسبة للنظام الجديد مني. لا تخش شيئاً، فلو كنت أريد أن أؤذيك لكنت الآن في أفظع حال. أخبرني بالدافع».

لحظة صمت، صوت الأحلام والكوابيس، موسيقى هادئة.

«أبحث عن ذكرى من طفولتي».

هذا ما قاله بالتحديد.

«ماذا؟».

13

كان ذلك أثناء شتاء 2007. البلاد في انتظار عاصفة هائلة. عُطلتْ المدارس والدوائر الحكومية. أخذت الأضواء تنساب بوداعة. حين يعود إلى تلك التصميمات تحت تأثير الذاكرة المترنحة فإنه يجدها أقرب إلى زمن ذائب على غصون أشجار ميتة وسط الصحاري، لا شيء مهمّاً فيها، بقدر ما هو قاتل لشيء آخر واقعي في حياته. عرف خلالها أنه لم يكن يصمم صورة، بل يضع تفاصيل حياته. تفاصيل من يراه بعينيه على صفحة شاشته. الصور التي كان يلتقطها لم تكن مجرد صور، نوافذ لمعضلاته الداخلية، سبَّب له هذا إرباكاً خفيفاً سيطر عليه بالاستماع لموسيقى الراي. لحن شجي مسكون بشوق عميق ووعود بعدم نسيان العشق.استمع بكل ذرة في كيانه. استند على كرسيه فيما أخذ نباح خفيف ينتشر بين الوديان المجاورة لمنزله حزيناً وتائهاً بين الأحراش ليعود منطلقاً عبر السماء مخترقاً بضع نجمات وتسيل كقطرات دموع ذائبة، بعد تجمد.

«قطرة مطر».

«ليس مطراً».

«ماذا؟».

«شهاب».

«شهاب؟».

مستنداً على كرسيه رأى تلك الذكرى معلقة.

الشمس صاعدة بوحدة بالغة، خلفها الضوء الذي يشير لمسار الشمس، كان مساراً متعرجاً، كأن الشمس رقصتْ وهي صاعدة. بدا له الأمور وهماً كاملاً، لا يمكنه جعل الشمس ترقص. حزن «الراى والمروكي» ضمن تلك الذكرى الباهرة في منظوره الفني. التاريخ الذي يُصممه جزء بسيط من تلك الأسطورة التي عاشها للحظات أثناء طفولته، على مدى عام عايش تفاصيل أسطورة رآها بعينيه صباح العيد.

«هل كان عيد الفطر أم مولد النبوي؟». سهر بصحبة أخته الصغرى منتظراً الرقصة السحرية. أخبرهما والدهما عن أسطورة «رقص الشمس» ابتهاجاً، صباح كل عيد. بدتْ له رؤية كرة النار وهي ترقص فرصة للشعور بتلك الرغبة في

داخله. لم يكن يمتلك لها تسمية، يدركها كما يحدس بإحساس الأمن داخل وجوده. انتظر بدأب مع أخته طوال الليل. كانا على الدوام يستغرقان في النوم قبيل الشروق.

دوماً كانا يستيقظان ليجدا أن كل شيء قد انتهى. الشمس تكون في عرشها وحيدة وبلا مبالاة. يظل يحدق إليها حتى يشعر برأسه يدور وبالدنيا كلها تنهك في لحظات كالحلم. ثلاثة أعياد مرت دون أن ينجح في رؤية المعجزة، لكنه لم يفقد الأمل. بدا مصرّاً أكثر مما سبق. يسأل والده عن كيفية الشروق. الرقص. تولد في ذهنه مستقبلاً رقصات شرقية مدهشة من أفلام الخمسينيات. جسد نوراني لين كقصص الحوريات. والده يضحك بابتهاج، يدخن النارجيلة ويربت على رأسه بأصابع يديه الغليظة.

«أحياناً تبدو كأفعى ذهبية، وأحياناً أخرى كفتاة في الثامنة عشرة». ثم يضحك بأعلى صوته، هو الذي لا يضحك إلا نادراً.

«أفعى، فتاة في الثامنة عشرة؟».

«نعم سيكون مدهشاً».

«هل رأيت أنت، أبي؟».

«نعم حين كنتُ في مثل عمرك الآن تقريباً؟». ظل هذا الحوار في ذهنه حتى رسمه. كلمات بسيطة أخذ يكررها باستمرار ثم يعيد رصفها، بحثاً عن ظلال محددة، عن تاريخ بعينه، وضع الظلال في دائرة مغايرة للضوء، أضاف بعضاً من الألوان عليها. ظلال ملونة للذكرى، حوار غير مكتمل.

طوال سنوات مراهقته اعتقد أن ضمن الحوارات سرّاً كبيراً، لكنه ترك البحث عندما بلغ السابعة عشرة. تفرغ رسميّاً من أجل متابعة أشياء أخرى مختلفة كالقصائد الصوفية. مشاهدة اللوحات الفنية داخل كتب عن عصر النهضة. التماثيل والأغاني التي تبحث عن الماضي. كان مسحوراً بموسيقى الراي والمقطوعات المغربية التي تأتي تباعاً للأحياء الداخلية. عاد إليها مجدداً. استمع للموسيقى المروكية باهتمام باحثاً في كل كلمة وكل لحظة عن الإلهام. جمع قصص الرقص الأندلسي بهدوء طوال السنوات من العشرين حتى الخامسة والعشرين. رقصات هادئة على أنغام الموشحات. الصوت الملائكي المنساب كمجرى نهر نحيل بين الأدغال ليصب في حوض ماء أنيق، يروي شجيرات العنب.

«لا شيء مهمّاً بقدر تلك الحبات الذائبة».

«لماذا؟».

«إنها مهمة بالنسبة لي».

«لأي سبب؟».

«تحييني، إنها تحيي قلبي».

«تصماميم غريبة بعض الشيء».

«الغرابة مختلفة».

«صحيح، لكن فيها شيء مبهج».

«مبهج؟».

«نعم».

كان هذا الحديث بين أروقة المكتبة الوطنية. الأمطار تصفع النوافذ الزجاجية فيما بدأت سعفات الدوم بجولة احتجاجات غاضبة. السعف المبلل يبدو لامعاً بسقطات الأضواء الملونة. بنظرة متفحصة يمكن رؤية انعكاس هياكل السيارات على الطريق. جسم ثقيل متوهج ينعكس على الإسفلت الغامض اللامع بالماء والضوء.

داخل المبنى سكون ثقيل. الزمن محبوس هنا على الأرفف الممتدة. مجلدات التاريخ من جهة. كتابات الرحالة الأجانب الذين عبروا الصحاري الليبية طوال «القرون التي مضتْ» تقف في الجهة الأخرى. ملخصات باهرة للتاريخ الليبي جنباً إلى جنب مع مجلدات تاريخ ألمانيا الهتلرية. الإغراء بدا عاصفاً وغير أخلاقي. تبتسم بطفولة. تشاكسه ولم يمض على التقائهما مجدداً أكثر من ثلاثة أيام، تقترب منه حتى يشعر بوهج جسدها عند صدره.

«هذه تبدو لي أكثر غرابة».

«ما الذي يدعوك لقول هذا؟». كانتْ في بدايات العشرين، تكتب مقالاً عن الجماليات في الدولة العباسية الثانية أو شيء من هذا القبيل. يعرف أنها لا تحب أن تصبح حكماً. جمال التجربة تكمن في الاكتشاف والمشاركة. الإحساس الغريب في الاستحواذ على اللحظات الوجودية النادرة، حيث لا مكان سوى لشخصين فقط.

«هل يمكن أن يحدث مرة أخرى؟». فكر بهدوء. يلتفت بصمته المعتاد إلى كمية الأوراق التي على مكتبه. إنها دراسات متعددة ومختلفة عن الجمال والألوان، عن بعض الصور من العشرينات حتى السبعينيات التي تظهر خالية إلا من الأبيض والأسود.

بدأ بتصميم تلك النوعية من الصور الفنية لوجوده، بجعلها غارقة في الأزمان الرومانسية. الجمال نابعاً من الذاكرة، شرح هذا لنفسه قبل سنوات كما وضع تلك المقولة البسيطة على الجدار في كل شيء حوله.

«أحياناً تكون الحياة معقدة في أبسط الأشياء».

«صحيح، أشبه بالفوضى».

«بحثتُ طويلاً عن التعريفات للحياة، تبدو لي بسيطة، لا معنى لها».

«كيف؟».

«الحياة لحظات ماتت وأخرى تموت. التعريفات دائماً ميتة». تلك اللقاءات البعيدة على سنة 2007 يدفعان عند كل جولة. يعيدانها ثلاث مرات على الأقل ثم ينزلان أحياناً عن الضريح. في أحيان أخرى يقتعدان المادة الإسمنتية على الكورنيش. بنغازي تغدو لا شيء هناك. تختصر في جولة حاسمة على رقرقات المياه والأضواء الراسية عند الأفق. كانا يشرعان معاً أحاديث مختلفة عن الماضي.

«لم أعتقد يوماً أنني سأغدو وحيداً بهذا الشكل». كان المسن يحدق في المياه المضطربة، في عينيه لحن تائه منذ عقود. أضاف بصوته الخشن المتوافق مع هدير تحطم الأمواج: «اعتدتُ العزلة. أقرأ قليلاً. أخالط الناس متى أردت. لم أكن وحيداً تماماً، لكنني منذ عشر سنوات أعاني ألماً مرعباً لا أعرف مصدره. قلبي جامد كصخرة. تمنيت قلباً كهذا المحيط، مضطرباً أو خالياً مثل قلب طفل لكنني تحجرتُ. عرفتُ أن ما أعتز به يموت ببطء، لأني دفنتُ نفسي في لحظات بلا قيمة، ميتة كالذكريات».

كان اعترافاً قاسياً. أخذت الأمواج صدى الألم بعيداً، تلقفتها النجوم وهي تطحن الوقت بدأب حتى انسابت واحدة بدمعة سماوية، تطلعا معاً إلى نجمة ساقطة.

«قبل سنوات عرفت أنني وحيد». الهدوء كان تفصيلاً داخليّاً في تلك اللحظات «لم أستطع تحمل هذا. وضعت كل شيء بعيداً عني، الجميع لم يفهموا تماماً ما أمرُّ به، لم يكن بوسعي قول ما أشعر به، أشعر بأن الهاوية نهاية طبيعية. كنتُ أسعى لوضع شيء ما ورائي، مُفاجأً بالكم الهائل من الخذلان. الوحدة قد تكون فعلاً يقع من قبل المجتمع، ربما الجميع يعاني من نفس الوحدة التي يفرضونها على الآخرين، البعض يخادعون، البعض الآخر لا يكونون مرنين معها؛ فيقعون بسهولة. غالباً ما تكون مشاكلنا هي التي تُملي علينا أساليب تحليلنا لأوضاعنا السياسية، تصبح استنتاجاتنا فوضوية جدّاً، وقعت فيها مرة خلال 1973، كنت طالباً، تورطتُ في أوضاع صعبة، حلت نفسها بشكل أستغربه، كنتُ ربطتُ نفسي بواقع غير حقيقي، تعقَّدتْ حياتي، ازدادت توتراً وخشونة».

«تعقَّدتْ؟».

«نعم، كان ذلك منذ زمن بعيد».

«ما الذي حدث؟».

«كان ذلك منذ زمن بعيد».

14

داخل غرفته المكتظة كتب حوارتهم. سجل في دفتره مخططات التواريخ التي ذكرها، وضع دائرة حمراء كعين مصابة حول سنة 1973، السنة التي تُذكر يكثرة في دفتر والده، والتي تركها خلفه حين غادر البلدة الجنوبية. كان يجب أن يرسل في طلبها. لكن هذا لا يعني شيئاً. فكل شيء اتخذ طريقه بهدوء بالغ. أن يجمع تلك الخيوط البعيدة لذكريات شخص مختلف. شخص متشعب العلاقات والأفكار كوالده، بدا أمراً محفوفاً بالمخاطر السياسية. لا بُدَّ أنه سيفقد عشرين أخرى حتى يضع التشكيل الأوليَّ لأفكار والده. الرحلات. عشقه للكتب. العناوين التي سحرته. كونه دونكوشوتيًا. وضع عشرات السيناريوهات حول السقوط. بالرغم من أنه متحكم بمزاجه الخاص في البيت. على الأقل كما يتذكر بعد هذه السنوات. وضع كل تلك السنوات جانباً ليعرف كيف كان والده حقًا. شخصيته النادرة. حالته العقلية باعتباره شخصاً وضع دراسات سرية في سبيل الدولة. كان قد قرأ عدة قصص قصيرة كتبها والده. سبعة عناوين. حين يقول قصص فإنه يريد لها أن تكون قصصاً خيالية. أما هي في الحقيقة سير ذاتية، كل واحدة منها مقسمة إلى عشرين فقرة بروح نيتشوية كتبها متأثراً بكتاب العقول الحرة.

وضع خلاصة تجربته ضمن تلك الأوراق مع دفاتره المكتوبة بواسطة أصدقائه الذين بلغوا الخمسة وثلاثين صديقاً. استطاع مع السنوات أن يحصر سبعة منهم كأصدقاء فعليين. النصوص السبعة كانتْ عبارة عن مشاعره حيال الصداقات التي تركها خلفه. استطاع معرفة هذا بعد زمن من البحث، الأصدقاء لا أسماء لهم، فقط صور باهتة. رسومات عن أجنحة الصقور. ثعابين راقصة بجلود متألقة. هل لأجل هذا حدد صداقاته هو لكي يغدو كوالده؟ هل لهذا بدأ البحث عن الذكريات وأخذ يزرعها في كل ثانية من ثواني حياته؟ المذكرات تحكي عنه بشكل غريب كرجل مصاب بالسويداء. معزول بين كتبه وكتاباته القليلة. مصاب بحالة عقلية غير مستقرة تدفعه للسفر والبقاء بعيداً عن بيت أهله. يقبع في الفنادق الرخيصة لأشهر ثم يتركها بحثاً عن فندق آخر. دائماً يقضي وقته بين أجدابيا، بنغازي وطرابلس. لا يُعرف من أين يجني تلك الأموال التي يصرفها على نفسه، الجميع يعرف أنه لم يعد يعمل لدى الدولة، وأنه لا يملك أي مصدر للدخل. والده كان سرًا لا يمكن كشفه بسهولة، ترك خلفه دفاتر تحتوي نصوصاً متفرقة ومجموعة رسومات لأصدقائه. حلم بها تتحول للحياة، تخفق بأجنحتها الوارفة لتحلق بعيداً، يحدق إليها وهي تغوص في الوهج الشمسي الباهر. في أحلامه دائماً الحياة أسهل. هل هذا يعني أنه في مكان خاطئ أن يعني بالضبط أنه لا يمتلك حسًا بالواقع؟ تساءل مراراً حول هذا. وضع ما قرأه جانباً. ما ردده طوال سنوات الماضية. وضع كل شيء بعيداً ثم أخذ يفكر بعمق في معنى الواقع بالنسبة إليه. في البدء رسم الكلمة بهدوء على الورق ثم غرق عميقاً فيما يشبه التفكير.

«لا بُدَّ أنه أمر أعيشه، ليس فعلاً مرتبطاً بزمن مضى، إنه أنا، ربما هو مرتبط بعدة أزمان متداخلة، زمني وأزمان الذين حولي، هذا يجعله أمراً مشتركاً، مشاعاً كالماء، هل هو ما يراه الآخرون عني؟ الواقع».

فكر بتوسع في المسألة.

توسع لم يعد عميقاً كما بدا دوماً.

توصل إلى نتائج من وحي المشكلة نفسها، مستعيداً كلمات المسن عند الكورنيش. السنوات تمر مسرعة. كل شيء خاضع للذكريات. السر يكمن هنا. التفاصيل الصغيرة التي تاهت عبر المسيرة الكبرى. لا تحكم على ذكرياتك، لا تحكم على أسرارك، فأنت لا شيء إذن. من يملك ذكرى عنك في الخامسة بوسعه أن يرجعك دوماً للخامسة. هكذا أقنع نفسه، فصار يبحث عن تلك «القوة الروحية» المتعلقة في نظره بالذكريات.

السبب الرئيسي لتفسيره، مدى أهمية الماضى.

الذكريات.

الصورة العظيمة التي قام بتصميمها كانتْ عن «أسطورة الشمس» أخرجها من بين صفحات الدفاتر. الدفق المتعرج لنور الشمس، الجناح الذهبي المفرود. كان قد رآه في العيد الرابع بعد سماعه لتلك الأسطورة، أصر تلك الليلة أن يظل مستيقظاً حتى الفجر، فوق سطح منزلهم، راقب طوال الليل ذوبان النجوم، الأضواء الغامزة لطائرات العبور، الطيور التائهة وأصوات النباح التي تتردد عبر البلدة مع نواحات المولدات الساحبة للمياه. عروق البلدة تجف. قبلاً كانوا يكتفون بحفر مسافة كف رجل للأسفل حتى تنبجس المياه من بين حبات الرمال. مؤخراً أصبحوا يحفرون بواسطة آلات ضخمة لمسافات تصل إلى عشرين، ثلاثين حتى خمسين متراً تحت الأرض. العروق تجف ببطء، البلدة تموت. ذكرياته من تلك الفترة محفوظة في صوره ويومياته المتبقية بكل تلك التفاصيل كما حدث خلال ذلك الفجر حين فقد السيطرة على نفسه ونام.

أثناء حلمه شاهد جناحاً مرتجفاً.

أفصحت عن حورية هائلة.

تلوت في السماء.

«أتظن أني لستُ حقيقية؟». سألته بصوت أثيري. فتح عينيه فقطرت فيهما قطرات باردة، رفع رأسه، تنفس مع الصبح في نفس اللحظة كانتْ السماء تأخذ لوناً آخر غير الليل، رماديًا مشرقاً، نجمة أخيرة متعلقة عند الأفق تتطلع بصمت لنهايتها اليومية.

خيط نحيل كان يلتهب في الأفق. مد يده ناحية أخته الصغرى، حركها لتشهد ما يحدث لكنها لن تستيقظ، تركها نائمة، لم يشح بنظره عن الخيط المتصاعد، رأى خيوطاً أخرى تتلوى في الأفق. هل يحدث هذا؟ تساءل في نفسه في

اللحظة التي صعدتْ فيها الشمس كملكة مصرية راقصة بابتهاج. رقصتْ كبجعة على البحيرة. زرقة السماء توهجت بالصفاء الممتد. ثلاث رقصات متتالية. أضاءت الأفق بصمت مطبق، ثم أخذت الشمس سبيلها بهدوء لتستقر في مكانها القديم مخلفة أشعَّةً متناثرة كغبار ذهبي.

هالة سحرية كجناح مشتعل من الذاكرة.

ظلت تلك الهالة في ذاكرته.

يراها دوماً عندما يُغمض عينيه، مع السنين أخذت تتحول إلى بقع سوداء مبعثرة لا يتمكن من تبينها. بقع سوداء كالتي تظهر في كتلة الشمس نفسها.

استيقظتْ أخته فرأت علامات البهجة في وجهه.

«هل رقصتْ؟». سألته بوجل.

«نعم، رقصت كأفعى».

«لِمَ لمْ توقظني؟». سألتْ بنبرة غضب.

«أردتُ أن أفعل لكنني خشيت أن لا أرى، لِمَ نمتِ؟». سألها.

«أردتُ أن أريح عيني». قالت بأسف.

لدى العمل على تصميماته يظل يعتقد أنها «تلك اللحظة» التي خلق خلالها شخصيته الخاصة، واقعه الخاص لينفصل رسميًا عن الواقع المشاع. الطرقات غدتْ مختلفة، الرؤية أصبحت مختلفة. دائماً بوسعه «أن يعرف» أكثر من الآخرين. أن يشعر أكثر منهم. أن يحدس ما سيقع قبل أي واحد منهم. لم يكن منزعجاً. كان يُلاحظ ابتعاده عن الآخرين. غارقاً في مطالعة تلك المجلدات التي تروي قصصاً عن عصور النهضة والممالك الأندلسية.

كان يستغرق عميقاً في حفظ تفاصيل اللوحات الموجودة في عمق الموسوعات التعليمية عن حمَّامات قورينا. المدن الضائعة. القراصنة العظام ذوو الأخلاقيات الصعبة. جنود الرومان وعشرات الأيام من صراعات إثبات الذات. أسود جائعة تصارع القديسين. استغراقه في البحث عن صراعات أخرى مختلفة. تفاصيل دفعته إلى نواحٍ مغايرة تماماً.

عرف هذا بوضوح عندما زار بلدتهم شيخ قبلي من منطقة بعيدة. مواجهات أهلية حدثتْ داخل البلدة، جاء الشيخ ليحل ما علق من معضلات وليلقي عليهم خطاباً سياسيًا بمثابة رسالة من الحكومة. لا يعرف كيف لكنه أدرك أن الشيخ مجرد دمية. ضمن رسوماته اليدوية رسم لا يحبه كثيراً، أقرب إلى تشكيل كوميدي لكولونيل ديكتاتوري يُحرك الدمى بخيوط سحرية.

كانتْ خطوطاً بدائية لا يفتخر بها كثيراً. يحتفظ بأغلبها داخل صندوق سري يفكر في إحراقها جميعاً، مستقبلاً. أغلب أصدقائه قرروا أن يشهدوا الخطاب. كان قد دخل معهم في جدال حول أهلية الرجل.

«لا يمكنه أن يفعل شيئاً، طالما هو هنا لأجل السياسة، فإنه كان هناك».

«ماذا يعني هذا؟».

«يعني أنه ينفذ مطالبهم».

«لكنه شيخ القبيلة».

«ليس شيخي».

ظل وحده يومها. عبر كل الأحياء السكنية اختفى الجميع. الطرقات غدتْ خالية. بعض القطط تتسلق الجدران برشاقة. لا شيء آخر يظهر في الجوار. بعد الساعة السابعة سمع من البعض أحاديث متناقلة.

كان الشيخ قد وصفهم بـ «العوائل الضعيفة» مستخدماً لغة السلاطين القدامى في الفراغ الصحراوي، وأنه يمتلك المال ثم وعدهم بأمور معينة خلال مدة وجيزة من الزمن. كانوا قد تألموا من «الأوصاف البطريركية» التي استعملها المسن في حقهم، لكنهم استمرُّوا بالتفاؤل بسبب المال الموعود. مرت المدة المحددة ثم مرت أشهر طويلة بعد المدة المحددة، ولم يحدث شيء على الإطلاق. كل ما حدث هو أنه فقد مزيداً من الأصدقاء.

عندها فسر الفقدان على نحو مغاير: «الفقدان هو تلك النتيجة غير المرغوبة بسبب التناقض بين الوقائع».

بدا البحث عن التناقض سهلاً للغاية. قضى حتى أيامه الأخيرة من عامه السابع عشر بحثاً عنه. الاختلاف في تصرفاته أم في كتبه أم في الصور التي قام بجمعها عن عصور النهضة ربما في دفاتر والده؟ استعاد ذكرى إخباره لوالده عن رؤيته للشمس الراقصة. يومها ضحك بأعلى صوته. لف أنبوب النارجيلة حول عنق الأزرق للزجاجة ثم قال: «هذا شيء مختلف، صحيح؟».

«مختلف». ردد مؤكداً.

«ليسوا كثراً من يروون هذا. أنت من القلائل».

بالرغم من معرفته فيما بعد أنه مشاع أيضاً. الإحساس بالاختلاف. بالرغم من ذلك أدرج هذا الإحساس بين تصاميمه القصيرة باعتباره تفصيلاً خاصّاً به. كان تائها في فوضى ذكرياته. لا معنى للأشياء من حوله. سكون مطبق ودائم كأنه داخل غرفة معزولة. كان يُشاهد الحياة من وراء زجاج سميك. لا شيء متصلاً به. هل أحس بهذا فجأة وقتها؟ الظهور للأفكار والأحداث. الصدف التي لا تبدو كالصدف. أرهقه التفكير في هذه المسائل، لكنه لا يستطيع التوقف. لا

يمكنه أن يُوقف السيل المتوهج في ذهنه كمئات الشهب المتساقطة. لا بُدَّ أن يراها جميعاً. أن تلمسه في كل بقعة منه. سماء البلدة تتحول إلى ليل ماطر بالنجوم الذائبة. لكي يتجاهل كل ذلك كان يشرع بالركض باندفاع شديد، مخترقاً الطرقات الترابية والأزقة الضيقة بين الأحياء السكنية حتى يتفصد جسده عرقاً. عندها فقط يبدأ الإدراك أنه واقعي. لماذا؟ لأي سبب؟ كان عليه «أن يعرف» كل شيء. كل التفاصيل التي تعج داخل رأسه.

بعد انقضاء كل هذه السنين هو محتاج إلى تفسير مقنع. هل يمكن أن تحدث هذه الأشياء بالمصادفة؟ ألَّا يكون هناك شيء ما في مكان ما يُسبب له كل هذا الضياع. وأن كل هذا مجرد تيه. حين بلغ الثلاثين كتب قصيدته الأولى. واحدة من المرات النادرة التي ترك فيها الصورة ليتجه نحو الكلمات. كتب نصّاً ذاتيّاً خالصاً، كلمات مختومة بالصدق والجنون. قام خلالها باكتشاف أشياء مذهلة عن نفسه الأخرى. تفاصيل لم يكن ليصل إليها من دون ذلك الأسلوب.

«لماذا؟».

«لطالما كنت أحمل وجوداً خاصّاً».

«هل يسبب حملك كل هذه العزلة؟».

«ربما هو ثمن يجب دفعه، ففي النهاية لا شيء مجاني، لا شيء».

«صحيح، لا بُدَّ من دفع الثمن».

«لا بُدَّ».

15

حين كان في العاشرة بعد مدة بسيطة من رؤيته لتلك الشمس الراقصة، دخل في محنة حقيقية، نسي أن يحضر دفاتر حصة الرياضيات. مدرِّسة المادة لا يمكن التهاون خلال حصصها الدراسية، كانت تحب دوماً أن تفتش جميع المقاعد، الدفاتر والأدوات الهندسية والأقلام بألوانها الثلاثة يجب أن تكون متوفرة على كل المقاعد. الطالب الذي ينسى أيّاً منها يتلقى عقاباً قاسياً. رأى طلاباً يتعرضون لعقابها لأمور أكثر بساطة. هو نسي جميع دفاتر المادة مع أدواته في ذلك اليوم المشؤوم. عرف فقدانه لأدواته المدرسية قبل الحصة بدقائق. جلس متفكراً فيما نصحه رفاقه أن يفعل شيئاً. لكنه بقي صامتاً على مقعده. في نظره أخذ الأمر منحى آخر. كان قد وضع تلك الأدوات مع الدفاتر في الحقيبة ليلاً، لا يمكن أن يكون قد نسي؛ لأنه راجعها في الصبح، رآها موجودة ثم اختفتْ.

«لا يمكن».

«ماذا؟». سأله أحد التلاميذ يومها.

«وضعتها في الحقيبة، كانت هنا قبل خروجي، الحقيبة لم تفارقني».

«لا يمكن». قال الصبي.

«بالضبط». أجاب مندهشاً.

كانتْ المعلمة قد دخلتْ وقبل السلام أمرت أن يضع كل طالب أدواته ودفاتره مع كتبه على المقعد أمامه.

«أين أدواتك ودفاترك؟».

«لا أعرف». قال بصوت هادئ.

«لا تعرف، تقصد أنك نسيتها».

«لا، لم أنسها».

«أين هي إذن؟».

«لا أعرف». حدقت فيه المدرِّسة بسكون بال غريب، ثم قالتْ بصوت غاضب فجأة: «اخرج عند اللوحة سنعرف معاً أين اختفتْ». يومها تلقى على يديه ثلاثين ضربة مؤلمة. المدرِّسة تريد منه أن يبكي بسبب الألم. لم يفعل، حتى إنه لم يُبدِ أي شعور بالألم. غرق عميقاً في التفكير فيما حدث ويحدث. ظلتْ الأشياء تطوف ببطء واتزان، ضمن فراغات ذاكرته جزء ضائع ومعتم. عاد إلى مقعده بهدوء. جلس متجاهلاً كل شيء. كأنه في عالم مختلف.

بعد نهاية الحصة الدراسية عاد إلى حقيبته التي بجانبه ليخرج مواده الدراسية للحصة التالية، فوقعتْ عيناه على كراسات الرياضيات وعلبة أدواته الهندسية. ظل يُحدق لدقائق بصمت ثم عرف ما حدث تماماً. تجلى الله للجبل ثم حوَّل العصا إلى ثعبان وأنبت الديدان على جسد أيوب وعزل محمداً حتى الأربعين. لم يعد هذا سرَّاً.

قبل أشهر درسوا اختبار الله لإبراهيم الحنيف.

لا مجال للشك على الإطلاق.

إنه اختبار

اختبار من الله

بعدها بسنوات

كانا في المكتبة الوطنية.

«لقد حدث كل هذا. لا يمكن لأحد أن ينكر ما حدث كما لا يمكنني أن أنكر اختفاء الدفاتر مع أنها موجودة في حقيبتي. لا يمكنني مطلقاً إنكار الإحساس الدافق بالرضا وأنا أتلقى الضربات على يدي. هل هو نوع من المازوخية كما قرأت عنها في دراسات الأمراض النفسية؟ أنا عشت ما عشته وكان واقعيّاً جدّاً. الضربات تمثل الاختبار الإلهي كما وقع مع أيوب. لا يمكنني إنكار كل شيء كأنه لم يكن».

«أنت تعرف أن هذه الأشياء قد تبدو مختلفة جدّاً». قال باستدراك.

«لماذا قد تبدو مختلفة؟».

«لأنك لست مختاراً ربما». قالت بذات النبرة ثم أضافت «لهذا تصبح هذه الأشياء معقدة جدّاً».

«كأنها لا تكون كذلك إلا بالاختيار».

«الاختيارات والاختبارات تأتي مقترنة دوماً. فهي تحمل سمات الرفعة والنخبوية ولا يكون هناك فرصة للفهم العقلاني. التاريخ مليء بأشخاص شرحوا تجاربهم الشخصية عن الاختيار. البعض وصف بالجنون والبعض الآخر بترديد الهرطقات، قتل البعض ببشاعة، أحرقت أجسادهم ونشر رمادهم من فوق القلاع والجبال».

«هل يمكن أن يحدث كل هذا؟».تساءل بخفوت.

«لا يوجد شيء يمنع حدوثه». قالتْ بانفعال «العقل البشري الجمعي محتاج إلى هذه الأفعال على الدوام. حين مات غاليليو كان في عرف العامة شخصاً مهرطقاً. التاريخ أثبت أنه محق في كلماته. محزن جدّاً. لا يمكن أبداً فهم هذه القصص. دوماً تبدو مغايرة كأنها حتمية». صمت قليلاً ثم أضاف: «كيف يمكن أن يحدث شيء رهيب كهذا؟». كيف يمكن أن تؤمن بالمعجزات ثم تنكر بقسوة أن تكون المعجزة لشخص غيرك؟ كيف يمكن إنكار شيء كهذا؟ هل المعجزات مرتبطة بواقع معين لا يمكن أن تتكرَّر مع الآخرين أم أنها حلقة تضم جماعات معينة؟ هل يمكن أن تكون المعجزة جزءاً من الواقع الذي لا نراه؟».

«لا تفكر كثيراً في هذا». قالت له موضحة باهتمام «فلو كانتْ المعجزة تحدث فإنها لا تحدث إلا لسبب محدد لأشخاص محددين، لو كنت منهم فإنك ستتعلم أن تنكر ما حدث بعدم إخباره لأحد، المعجزة مثل السر الخاص بجماعة بعينهم حتى لو كان علنيّاً لا يمكن تقبله سريعاً».

«ربما هو كذلك، ربما المعجزة في الاختلاف عن الآخرين، حين تكون بعادات مختلفة بشكل مختلف حين لا تكون أنا، هل هذه هي المعجزة؟ هل يعقل؟».

«أنت تفكر كثيراً».

كان يفكر كثيراً وبشكل متواصل.

المعجزة في نظره هبة يجب تقبلها مهما بدت مؤلمة، من هذا المنظور وضع نفسه في بقعة ضوء. فالمدرِّسة التي جلدته ثلاثين جلدة على كفيه، دهشتْ من عدم تألمه وصبره، زادها حنقاً ظنّاً منها أنه يستهزئ بها، زادتْ من قوة ضرباتها حتى شعرت بأنها تضرب عدوّاً طبيعيّاً لها. أربكها عنفها كمدرِّسة وقبل هذا كأم أيضاً.

كتب هذه الفقرة ضمن يومياته الأولى مع حوارية قصيرة: «سرعان ما تحول غضبها المندفع إلى نوع من الإعجاب أم هي الشفقة؟ الصبر والملامح الحادة المتجمدة على نحو مشابه لتمثال حجري أم هو عدم الإدراك؟ الأنف الدقيق الحاد. البشرة السمراء المعتمة. تشكلتْ بضع حبيبات على جبينه كجواهر لامعة، وذلك البريق في عينيه، بريق مَن عرف نهاية الأشياء ، بريق المحنة في أشد حالاتها وضوحاً. زادتْ دهشتها وعظيم إعجابها به حتى استخف عقلها. أجاب على مسألة رياضية صعبة تحتاج إلى التفكير الهادئ، كانت تراقب يديه على اللوحة، كيف يخط تلك الأرقام والمعادلات كأنه يشرح لنفسه كل شيء».

«لم يحقد عليَّ مطلقاً. شعرتُ بالذنب. صبي لا يجب أن يُذنب. ملاك لا يجب أن يُعاقَب بالمرة». صرَخَت داخل غرفة المدرسات. كانتْ تبدو في حالة كشف وتوهج. سحبت الأوراق وأخذتْ تحدق في اسمه.

كان شيئاً حميماً بالنسبة لها، رائعاً ولطيفاً ثم أخذتْ تجهش بالبكاء. زميلاتها المدرسات حاولن تهدئتها بكلمات حانية لكنها واصلتْ البكاء لمدة طويلة حتى شعرت بالرضا. إنها شخص جديد.

هذا الخيال الصرف هو ما وضحه في صوره فيما بعد.

هكذا تخيل دوماً، في ماذا يُفيد هذا؟

أمنية ولدتْ حين كان في الجهة الأخرى من البلدة بعد العصر، يتمشَّى بهدوء بالغ، ليس كأي فتى في العاشرة، بل كرجل بواجب ديني عليه أن يؤديه، أحس بأنه يتوجب عليه أن يذهب إلى مخازن السلع التموينية البعيدة عن البلدة.

هناك جلس بهدوء متغلباً على الشعور بالإنهاك داخل الظلال المتشكلة وراء الجدار للمبنى ثم أخذ يحدق في الفراغ، بعض الكلاب تتسلق مخلفات المباني وتقفز إلى الجهة الأخرى، بعض الجراء السليمة البنية كانتْ تحدق نحوه ثم غابت في لعب متواصل كالأطفال، في الصور البلدة مختلفة تماماً، وهو شيء يُلاحَظ سريعاً.

16

بعد الستين لم يعد يشعر بأنه حقيقي.

بدأ يشعر بأنه خان شخصاً ما، بذلك الإحساس قضى على آخر سنواته المجيدة. وقف وسط الطرقات فاقداً بوصلته الفكرية. الشهوة العارمة والرغبة الجنونية. الموجّه الداخلي الذي اتبعه منذ عرف تفاصيل مقتل جده. الحقد البارد تجاه الدولة السنوسية. كره الدولة القائمة آنذاك وهو في قلب المعقل الروحي للسنوسية. خلال طرقاتها الترابية، بحيرتها ونخيلها، عبر كل أطوار تفكيره. كان مستعدّاً لفعل أي شيء من أجل الانتقام. هل نشأ غضبه بسبب الارتباط العميق للبلدة بالسنوسيين أم لأن فتاته الأولى مرتبطة عاطفيّاً بالبلدة السنوسية؟

الحكم الذي تنازل عن دم جده ولم ينتقم لموته. الكره ذاته كان مسلطاً على أبيه؛ لذا رفض العودة معه، آنذاك، ظل لسبع سنوات منهمكاً في ذاته. «يستكشف تلك الدروب المخيفة والمخفية في روح كل منا». كان يُحادث كل نخلة وكل نجمة في طريقه حتى توصل أخيراً إلى مبدأ القوة والسياسة. تفاعل مع أغلب القضايا التي تقع داخل وخارج حدود البلاد، وصل بتضامنه حتى الحدود الصينية.

كان مشحوناً بالطاقة الثورية

محبوساً ضمن الواقع اللا ثوري.

كان الواقع أشد أعدائه، بقي طوال الوقت، استطاع إخضاعه لسنوات، أما مؤخراً فقد بدأ يفقد السيطرة، أصبح ضعيفاً، جسده لا يحتمل القتال. الرجال الجدد في الدولة يُصالحون من كانوا يمثلون الأعداء في وقت سابق. قد يصبح كبش فداء منتظراً، فكر آنذاك، سيفضحونه علناً. ظل خائفاً لسنة كاملة. هيأ نفسه للهرب بعيداً إلى إحدى الجزر النائية. فكرة رومانسية أضحكته لأيام. ظل يراقب المكاتب الأمنية بحثاً عن «إشارات سرية» حتى رأى ذلك الملف فوق إحدى الطاولات.

قرأ الاسم الذي على الملف.

لمعتْ في ذهنه تلك الذكريات البعيدة.

كان طالباً في السنة النهائية ضمن المعهد الناصري، عقب أشهر من الانقلاب العسكري، قام أحد الطلاب برفع صورة الملك معتبراً إياه الوحيد الذي ساهم في بناء البلاد ووصف أجداد الملك بالمباركين وأعداءه بالأفاقين، ثم عمد إلى

تحطيم صورة ذات إطار ذهبي رائع، تُظهر تجمعاً مبتهجاً من الضباط الشبان أسقطوا الملك عن العرش. استفزه هذا الفعل الرجعي، فتشاجر مع ذلك المدعي وقام بالوشاية عليه لدى البوليس. ضابط التحقيق المناوب جاء شخصيّاً لمتابعة المسألة، كان كهلاً مستقيماً، بالرغم من الصورة المحطمة، أراد إقفال القضية بإلقاء وعظ أبوي عليهم وهو ما أزعجه، فهدد بنقل القضية إلى مستويات سلطوية عليا وأصر على إجراء تحقيق كامل.

عندها قام الشرطي بسؤال طالب من بلدة صحراوية حدث أن كان بالقرب من الصورة المحطمة، سأله عما شاهده بالضبط، فقال الطالب بوضوح تام إن الصورة سقطتْ من تلقاء نفسها، سقطتْ وتحطم زجاجها دون أن يقترب منها أحد، ربما لأنها لم تكن مثبتة جيداً. هذا ما قاله. وافق جميع الطلاب داخل المهجع على هذه القصة غير الحقيقية. أصبح الصحراوي بطلاً فيما صار هو منبوذاً داخل المعهد الناصري وانتشرت شائعات حول ما جرى حتى سمعها أهله في الجبل. الطالب الذي وشى به كان من قريته.

إلى أين تذهب عندما تخون شخصاً ما؟

سأل نفسه مراراً داخل ساحة المعهد وفي القاعات الدراسية ثم أجاب نفسه ببلاهة مذهلة «إلى ذلك الذي قام بإنقاذه». اقترب من الشاب الصحراوي. تحدثا مطولاً عما يجب وما لا يجب، لم يفهم مطلقاً ما حدث، لأي سبب يتم إنقاذه. ولِمَ لا يتم إنقاذه.

«إنه رجعي». قال مبرراً.

«إنه رفيق». أجاب بحسب ما تذكر بعد هذه السنين، لم ينس أبداً ذلك اليوم، لم يفعل. بدتْ حجته واضحة بالنسبة إليه، لا يفهم لماذا ليستْ كذلك للآخرين، إنهم أعداء لنا. نحن والقبائل الصحراوية التي فقدت وجودها نشترك في هذا العداء تجاههم.

«لا أفهم السبب الذي يدفعك للإيمان بأفاقين سلبوكم وجودكم باسم الإيمان».

«ليس الإيمان هو السبب، لا علاقة للإيمان بهذا».

«بماذا إذن؟». سأل بأسلوب ساخر.

«بالضلال ربما، أن تفقد ذاتك بسبب كراهية. أنانية».

مرتْ السنون.

كان على رأس دورية مسلحة بأزقة مدينة أجدابيا من أجل تأديب الإسلامين وتنظيف الشوارع من بقايا الجماعة المقاتلة ومراقبة الأوضاع الأمنية هناك. أثناء إحدى جولاتهم اليومية، ظهر شخص ملتحٍ داخل زقاق ترابي ضيق. حين شاهدهم متأهبين لمواجهة ما، التفت وبدأ يركض بالاتجاه المعاكس. أمره عدة مرات بالتوقف والاستسلام فوراً إلا أنه لم

يمتثل لذلك، فما كان منه إلا أن أعطى أمراً لجنوده بإطلاق النار عليه، فاستهدفوه بأمشاط كاملة من الرصاص. شاهده يسقط على وجهه. حين اقترب متفحصاً الجسد الغارق في دمائه، عرفه بالرغم من اللحية الكثة والنظرات الهلعة الأخيرة، فأدرك أن الزمن ادخره لشيء فظيع.

حدث هذا عام 1996.

طافت هذه «الذكرى المعتمة» في رأسه داخل المكتب الأمني أمام تلك الطاولة وهو يقرأ الاسم اللامع على ظهر الملف. لوهلة أحس بأنه تافه بشكل لا يُصدَّق. تطلع لصورة العقيد القائد المعلقة على الجدار أمام. كان يبتسم منذ خمس وثلاثين سنة. هذه الابتسامة لم تعد كما هي. الزمن بدل الكثير منها. هو نفسه تبدل. لم يعد كما كان، دبت الوحدة في مفاصله. أخذت ذكريات الماضي تحوم حوله. دماء. دبابات. كتائب متحركة. مداهمات وليالٍ حمراء في أعماق الوديان.

أراد أن يستعيد أحاديثه القديمة داخل المعهد الناصري.

«إنه هكذا على الدوام».

«لا يمكنني الاستسلام فقط لأنه هكذا دوماً».

«أنت تعرف جيداً أن هذا القتال ليس بجديد، قبلك الملايين قاتلوا بنفس الأسلوب وبنفس العناد الصلب».

«أنا لا أقاتل. القتال بلا هدف، فعل محبط، إنه بلا أمل حقيقي».

«أفهم ما تود قوله. حتى الإيمان يقود إلى الضلال».

«كيف يمكن دوماً التحكم بالرغبات، بالخيارات المبكرة والتي تكوّن دقائق شخصيتنا. الإيمان العميق كالعشق، لا يُدرك سره كما لا يمكن تجاهل التأثيرات الخارجية عليه. كيف يمكن أن أؤمن بالسلام وأنا معرض دوماً لإطلاق النار؟ لا بد أن أقاتل لكي أوقف كل شيء. في النهاية السلام طريق طويل نحو القتال المحتوم من أجل الحفاظ عليه. الإحباط حتمي. أُدرك أنه لا روعة فيما أقول. أجد هذا بسيطاً جدّاً، يبدو نوعاً من الزهد السخيف أو التوحش المفرط، لكنه يمنحني القدرة على النمو السليم بعيداً عن التقزز الداخلي. هذا محتوم. رفض تلك اللحظات الإيمانية من المستحيلات. عكس ما عليه أجدادي وشعبي الرحال الأكثر من محارب».

«لا شيء يبقى على حاله». قال مفسراً.

«أتظن ذلك؟».

«نعم، كما أراك أمامي، بلدتي مثلاً ذهبت بلا رجعة».

لحظة صمت، تنهد المسن ثم قال: «كانت واحة صغيرة ومذهلة، كنتُ هناك في الخمسينيات معقل الطريقة السنوسية. جدي استشهد هناك، كان قد التحق بالمجاهدين في ذلك الزمن. لا نعرف أين رفاته، سمعنا بوفاته من أحدهم كان معه كما فهمت، كنتُ صغيراً حين ذهبت برفقة أبي وبعض رجال العائلة، منهم عمي وخالي. نزلنا البلدة عند الظهيرة. الواحة كانتْ كالجنة التي تُفقَد. بحيرة وطيور الكركي وبعض السياح الإنجليز يصطادون بعرباتهم ذات الهدير. الأهالي بسطاء للغاية، لا يضطرون حتى لجلب الماء. كانوا يكتفون بالحفر لمسافة كف عند مجالسهم، لتتفجر المياه بغزارة، يتركونها لفترة حتى تسكن الرمال ويصبح الماء صافياً، عذباً ونقيّاً كدموع الأرض، شربنا من الأرض مباشرة بلا وسيط. كان جدي مات عطشاً في الصحراء مع عائلة صغيرة غادر بصحبتهم من البلدة على عجل، متجهاً إلى مصر، قيل بأنها عائلته، ربما أصيب بشيء ما: عيار ناري، مرض، لجؤوا إلى مغارة في الصحراء، مات قبلهم، قيل بأن الأربعة وُجدوا متحللين، تعرفوا عليهم من خلال ملابس الأطفال من قبل عائلة أخرى كانت تهرب من القتل العشوائي باستخدام الطائرات. القصص متضاربة. كان الرجل متأثراً جدّاً حتى بعد هذه السنين، لم يعد إلى الوطن حتى بعد الاستقلال، لم يكن يشعر بالأمان. تلك منحة فقدناها للأبد، سنة 1958 بكى والدي بعمق شديد».

«أنت مرتبط بها بالفعل».

«قضيت فيها عدة سنوات، من 1958 حتى 1965 تعرفت خلالها على أشخاص كثر من التبو، كنتُ قريباً منهم».

الحافلة توقفت تحت جسر بوهديمة، أقلت بعض الركاب ثم انطلقت متهادية كقافلة قديمة فيما أخذتْ زخات المطر تهمي بهدوء على الزجاج الأمامي للحافلة. الماسحات على الزجاج الأمامي تعمل لإزاحة المطر والضوء معاً، عبثاً. موسيقى المروكية تنساب كالقطرات الملونة. بنغازي في هدوء صوفي معتم. لا يكتفي المرء من قراءة المقالات عبر الويب بحثاً عن تاريخ المدينة الذي أختُصِر في المقاهي وأعلام من عصور متأخرة، قصص عن مباهج قديمة وحزن الرحالة السابقين، الثورات الصغيرة والانتشار السريع للوهن الداخلي، الارتباط العميق ضمن اللوحات والذكريات، لم يكن ببنغازي، بل لواحات الصغيرة ولأشياء أخرى أبعد من ذلك، للأساطير الحية، للصورة الكاملة التي ظهرت مع الزمن لكي تشكل الواقع الليبي الممزوج بالخيال العاصف، الكلمات تترك مكانها بهدوء لعالم صعب الملامح من الصور التشكيلية. الموسيقى المتعبة باهتزازات العود مع كؤوس الأنبذة المستجلبة بالتهريب. نوع من الحنين الجارف لواقع خيالي مدهش بالكامل يُقارب السخرية التي تحدث عندما تعيد الحياة ذاتها. الحياة التي تسعى جاهدة لإيجاد أسلوب جديد.

لعبة أخرى غير العشق المتضمن في الجسد الأنثوي والجمال التائه في الألوان والحفلات الصاخبة داخل ظلمات المزارع والمنازل المشيدة لاحتضان تلك النزوات. الارتباط بالمدن مشابه للارتباط بالفتيات. تناقضات هائلة تحكم تلك المشاعر. كان المسن قد اقترن بفتاة من البلدة. انتقل معها عبر البلدات والصحاري لكي يسكن بها في قمم الجبل الأخضر. لم يمنعه جمالها من تذوق المزيد، السنوات بالنسبة له، نزوات متكررة، على يديه تظهر علامات عن مواقعه الكثيرة. أحرف مخضرة

لبدايات أسماء فتيات عرفهم طوال حياته. أغلبهن صغيرات في السن. يزرن مخيلته المنهكة كل ليلة؛ فهو وحيد بشكل كامل. عائلته خرجتْ عن سيطرته. تاريخه في الدولة ذهب هباء. الحرس القديم. الوصفة الأخيرة التي قضت عليهم للأبد. التغييرات تسير بشكل مزعج، اليد القوية لجماعته داخل الدولة، لم تعد قوية. حاول مراراً خلق وحدات عسكرية غير الكتائب الأمنية. حاول دوماً أن يخلق وحدات صغيرة قوية منتشرة في عروق البلاد جميعها. منع الثورات، لا أحد يستمع لاقتراحاته.

إنه يفقد كل شيء: جسده، ذاكرته، مجده، الاحترام الذي أحس به طوال العقود الأربعة التي مضتْ. لم يعرف مطلقاً لِمَ يجب أن يحدث هذا. الرفاق كانوا يفقدون السيطرة. دوماً الوحدة تحدث بالفقدان. هو كان يفقد السيطرة. الفقدان أم الإحساس به؟ لماذا يحس بالفقد طوال الوقت، باللا جدوى في مسيرته؟ كان محبّاً للقراءة، يقضي الوقت في «قراءة السير الذاتية» لعظماء التاريخ. العظمة التي تأتي بالتزامن مع الأفول، اللا انتماء والسويداء.

كانا على إحدى الحافلات، وقد أخذ يتفوه بكل ما تعيه ذاكرته من جمل وجدتْ سبيلاً لتعيش داخل ذهنه المنهك، لسنوات حاول أن يصنع لنفسه خطّاً فنيّاً خاصّاً به، بالتحكم بثقافة الصورة. أن يعتمد على التأمل في المناظر الطبيعية وغير الطبيعية لمعرفة خياراته الشخصية.

عرف كيف يعتمد على مخيلته لصنع عالم خاص به، فبدأ يرتعش كمن وجد «طريق النبوءة» أخيراً. قلبه يكاد يتفجر حماساً. الدماء تجري بتوتر بالغ في عروقه. كبح أنفاسه في تلك الليلة الهادئة في الواحة ثم استسلم لكل شيء.

بدأت الأفكار تطوف به، تلك الأماكن الموغلة في القدم والتي أخذ يتذكرها دوماً كمسن وحيد. أماكن كان عبرها مراراً. النخيل المتعطش للمياه، المنكفئ بحزن والنجوم المحدقة بشراهة. القمر الذي ينشر ألقه الفضي كمياه قدسية منسابة. الصحراء الخالية حاضرة بشحوب عند كل أطراف البلدة. مستمعاً للقصص الخيالية عن تلك البقاع الموغلة في القدم. قصص استعادها في اللوحات الفنية التي عثر عليها.

17

يُحكى أن جماعات قبلية تاهتْ في الصحراء بكل أمتعتهم، رأوا فجأة الأضواء تنفجر في الأفق، تتبعوها فوجدوا أنها واحة مشتعلة بالجمال وقد اقترب منها القمر بألق مجاني ونادر. أهلها أقوام طوال استحكم بهم الهزال. أخذوا يحدقون إليهم بأعين غائبة متسعة كالمغارات. طلبوا ماءً فأرسلوا سهاماً ورماحاً نورانية لم تؤثر فيهم. كان ذلك غريباً بالفعل. قاتلوهم لأسابيع وأسابيع ومن ثم هزموهم عند الفجر الموعود، فوق تلك الأرض، باستخدام محاليل سحرية، اكتشفوها بالمصادفة وحدها.

كانتْ الجثث المضيئة تنتشر بفوضوية مذهلة، ثم بدأت تضمحل بهدوء. أخذتْ تتحلل بين حبيبات الرمال كأنها قطرات كبيرة منتفخة. شاهدوا بأعينهم ما حدث هناك، امتصت الأرض جميع الأجساد. الواحة المسحورة هي البلدة العظمى التي ذُكرتْ في كتابات القدامى.

كانت مسكونة بجنس غير بشري.

لا يمكن رؤيتهم إلا ليلاً تحت ألق النجوم.

جماعات عاشت هناك لسنوات لا تجرؤ على الخروج وترك الواحة العامرة بأنواع الثمار. كتبوا في أوراقهم أنها القطعة التي جُلبت بذروها اليانعة من حدائق الفردوس. بحيرتها نبع صافٍ لمادة الأحلام. قضوا هناك جميعاً من فرط السحر المحاط بالمكان؟ ماتوا جميعاً بمرض غريب واندثروا.

ظلتْ الواحة ساكنة بهدوء، تراقب العالم حتى ظهر بها فارس هرب بفتاته من بين قبضات الفرسان. اخترق بها الواحات والصحاري والوديان، وعَبَر الجبال، حتى رأى من بعيد الضوء المتوهج للواحة، وجدها خالية تماماً. العظام خلفتْ جزءاً من البقع الرملية الصلعاء من الحشائش.

كانتْ الرمال توجد فوق كل مكان عليه جثة، أما في المساحات الأخرى فكانتْ الحشائش اليانعة تنبت بقوة وعنفوان. نزل من على مُهريه ولمس الأرض، أحس بتلك «الحكايات القديمة» عن الواحة السرية تسري في الحشائش إلى جسده. التفت إلى فتاته ثم قال إنها لا شك الواحة المفقودة. كان أجداده قد قاتلوا الشعوب لكي لا يصل أي منها إلى هذه الواحة.

بدأ يروي لها أحلامه: «حين استيقظوا فجراً على أصوات سنابك خيول جيوش روما العظيمة منهكة وتائهة، كانوا يجرون وراءهم الأمم والحيوانات الشرسة، سرعان ما قاتلوهم لستة أشهر متتالية، ليلاً ونهاراً، تقهقرت جيوش روما، كانوا قد أخرجوا الأطفال والنساء تحسُّباً ثم أخذوا يطاردون مؤخرة الجيوش المنسحبة. الجثث تتساقط فيتركونها وراءهم. التروس والسيوف والرماح حتى الحيوانات الهاربة، لا يُترك لها فرصة النجاة كما لا يُترك للجيوش فرصة للنجاة.

كانت العمليات المتبعة هي إحدى أندر العمليات الحربية التي تلجأ إليها تلك الشعوب. الإبادة الكاملة، عدم ترك أحياء مطلقاً. قبل أن تنجح الجيوش في الاختفاء كانوا قد حاصروهم في بقعة معزولة من جميع الجهات وبدأت وقائع الاحتفال الأخير والأكثر ندرة. القتلى والدماء. الصراخ واليأس. تمَّت إبادة جيوش روما. جندي واحد فقط تمَّ القبض عليه حيّاً. تم قطع وجنتيه وشفتيه، أسنانه تركتْ مكشوفة، فأصبح كشخص قام من أسوأ الكوابيس، وجهه متلقص بشدة بسبب الألم الذي تسببه الرياح. تُرك ليعود لأهله بعد قطع جزء من لسانه، بشكل مثير للرعب. عندما ظهر بين باقي تمركزات جيشه كانتْ رؤية مرعبة، بلا شك دفعتْ جيوش روما المنهكة لأن تعتزل الصحراء نهائيّاً، بَنَت سوراً ضخماً؛ على أمل أن يموت أشباح الصحراء من العطش.

عاد الصحراويون إلى طريق الواحة.

بلا شك دهشوا لما حدث.

للمرة الأولى يفقدون طريقهم للواحة، انتظروا حتى حل الليل، نظروا معاً إلى الأفق من جميع الجهات، لا نجوم، لا أضواء ولا حتى زقزقات الطيور. كان السكون المُعتم هو فقط ما يحيط بهم. ظلوا لأسابيع يدورون في البقعة نفسها. تساقط الجنود واحداً وراء الآخر، موتى. على مد البصر رأى قائد المجموعة أن الموت لا محالة هو المصير النهائي.

تذكر ثمن الإبادات الجماعية. أجداده تحدثوا حول هذه الأسطورة. إفناء العدو ليس إلا إفناء للذات. مهما كنت متمكناً فلا تُفْن عدوك. العدو هو الحياة. تطلع للأفق ورأى بشائر الفَناء. جمع ستة وثلاثين شابّاً من مختلف الشعوب. أخرج لهم الوثائق التي تحمل الأحرف. منح لكل شاب حرفاً ليحمله إلى بر الأمان، ثم منحه الأحرف الباقية، صار لكل شاب حرف خاص به مع خمسة وثلاثين حرفاً إضافيّاً. أمرهم بالانطلاق إلى ثلاث جهات مختلفة ما عدا جهة العدو أي الشمال. كان ظنه شمالاً. رأى الشبان يتماهون مع الأفق ثم يتلاشون كالسراب».

وقف فوق الجثث التي تركت النصوص. أدرك أنهم مجموعة من التجار التائهين. دفن عظامهم في زاوية من الواحة وهو يرى تشكل الرمال وسط الواحة، لم يهتم في البدء، لاعب فتاته الشابة وضحكا معاً بين قامات الأشجار اليانعة. قطفا الثمار ثم أخبرها بأنهما وحدهما وأن الواحة ساحرة. لا يمكن لأحد أن يجدها أو يجدهما. قال لها إنهما آدم وحواء، فضحكت من الدعابة ومن المغزى.

اسمها تازر وهو آلي أليماي.

«ماذا حدث للشبان؟». سألته.

«حملوا العلامات وانطلقوا لعبور الصحراء». فقال وهو يستعيد الأسطورة من لسان جدته: «وصل ثلاثة وثلاثون منهم وتزوجوا مباشرة بأجمل الفتيات. حكوا لهم بطولات الجيش وأظهروا علاماتهم المدسوسة بعد أن بحثوا عن بعضهم ثم حملوا أنفسهم، للعودة إلى الصحراء بحثاً عن الجيش المفقود والواحة، جدتي تروي أنهم لم يجدوا شيئاً بالرغم من أن الثلاثة والثلاثين جميعهم اتفقوا على الموقع المفترض للجيش الصحراوي ضمن مواعيد متقاربة، إلا أن الجيش نفسه قد اختفى تماماً، لم يعرفوا ما حدث».

الأسئلة تدور مع الزمن، لا تقع غالباً إلا في لحظات محددة على أشخاص معينين ثم تتلاشى كالوهم. البعض يلتقطها مباشرة فيما يتجاهلها البعض الآخر ليعودوا لاحقاً فيعصرون رؤوسهم بحثاً عنها. لأنها تبدو لهم بمثابة الحل السحري لكل المشاكل التي تتسبب في عدم فهمهم لواقعهم. سؤال جيد وفي وقته، يمكنه أن يبدل جميع قواعد اللعبة. قد ينقذ تكرار هذا السؤال النابع من عمق الأساطير لعالم الواقع بين مئات الكتب التي تحمل في جوفها التاريخ والأشعار المستندة إلى أساطير تلك الشعوب التي عبرت الصحراء يوماً.

داخل دار الكتب الوطنية ببنغازي.

«لا نعرف قيمة الأساطير إلا ضمن ما ترويه الجدات». قال لها بغموض وأخذ يتصفح أحد المجلدات القديمة. فهو منذ التقى بها لم يكف عن الحديث، ولم تمل هي من الاستماع.

18

ما كان يعرفه المسن جيداً هو أن القتل متعلق بشدة بالتاريخ، تاريخه هو على الأقل، وبقليل من التحرير كان بدوره بدأ يظن هذا. في رأيه، التاريخ هو القتل بحد ذاته، فمنذ السبعينيات غدا الأمر هوايته التي يقدم خلال ساعات الذروة حين يتم إباحة كل ذلك الجنون في الشوارع. يكره حين يكون القتل في المكاتب أو في المصانع القديمة أو حتى في المواقع السرية في الصحاري، بين مخازن الأسلحة والنقاط التي يتواصل عندها رجال الدولة وتجار المخدرات، القادمون من الغرب والعكس.

كان يعرف بعض أولئك الأشخاص، إنهم خطرون للغاية، لكنه دوماً كان هناك، كلما دعت الحاجة إلى ذلك، يظل القتل السياسي لعبة يومية. في نظر الدولة هو من أبطال الحروب الأهلية الشرسة التي خاضتها البلاد طوال الثمانينيات حتى منتصف التسعينيات. كم من مواطن بريء تم قتله جزافاً طوال تلك الفترة القاسية؟

داخل المكاتب، حين يثمل، يكون بغيضاً للغاية، عندها يسرد بعض تلك الأحداث بنشوة النصر، فهو يمتلك نظرة مختلفة حيال كل شيء، نظرة تتصف بالغموض وعدم الاحترام. كان يسعى بقوة مع بعض الأصدقاء القدامى من أجل خلق جهاز أمني –كما يُسمى عادة تلك المليشيات– وخلق نقاط أمنية داخل الأحياء السكنية، في طول البلاد وعرضها.

كانوا يضحكون على فكرته.

«تريد صنع مافيا».

«بل الأمن». يقول.

«بتوزيع الأسلحة على الشبان في الأحياء، تريد خلق عصابات».

«بل حرس شعبي، بنصب رجالنا الموثوق بهم داخل الأحياء حتى تتم السيطرة على أي انفلات أمني».

«أتظن أن هناك انفلاتاً أمنيّاً سيحدث؟».

«هل سننتظر حتى يحدث؟».

يحدقون في بعضهم، كانوا داخل مزرعة الحاكم العسكري لإحدى المناطق الكبرى في الدولة: «أتعرف كم من المبالغ ستخسرها الدولة؟».

«مهما كانت، سنحافظ على الدولة، لن نعود إلى مثل حروب الثمانينيات والتسعينيات، ستكون أشد وطأة، أحترم ما حدث؛ لذا علينا أن نجهز لأكبر مما مررنا به بعشرين مرة».

«تريد خوض حروب شوارع في البلاد».

طلبه رُفض بشدة وأُمر بعدم العودة إلى مثل هذه الاقتراحات.

عندما وقعتْ أحداث السفارة الإيطالية، سُربت شائعات عن كونها مفتعلة، فيما أخذتْ الأنباء تتحدث عن علاقة ما حدث بجولات إحدى السفارات الأوروبية قبلها بمدة والتصريحات التي صدرتْ عن كون الدولة تسيطر بقوة على الشوارع وأنه ليس هناك أي خطر ضد السفارات الأوروبية، الأحداث كانتْ أكثر من مجرد غضبة لأجل الرسول.

كم تفاجأ حين سمع العقيد يتحدث على الهواء مباشرة في إحدى خطبه ويردد بحماس شديد فكرته الأمنية، إضافة إلى فكرة حل بقايا الجيش المنهك وخصخصة الشرطة، بتحويلهما إلى القطاع الخاص تحت مسمى الحرس الشعبي بين الأحياء السكنية. اعتقد أنها مسألة وقت فقط، وسيتم استدعاؤه، لم يحدث هذا مطلقاً، لم يتصلوا به أبداً.

طوال أشهر أخذ يزور المكاتب الأمنية، كان يقضي الوقت مع الأصدقاء القدامى ومع الشبان الجدد، الذين أخذوا يستحوذون على المواقع الحساسة بهدوء مدمر للأعصاب. لم يكن ممن يودون تصديق الشائعات عن الانقلاب الهادئ وكون أحد الأبناء هو من يحكم البلاد، بالرغم من الرحلات المكوكية، خلال المدن والتي يقوم بها أحد الأبناء من أجل كسب الولاء بالتحدث مع كبار القبائل ورجال الدين والتجار والعسكر، كل شيء كان يتحدث عن شيء لا يريده حتى جاء ذلك اليوم عند أحد أصدقائه، وكان من رجال الدولة الفاعلين، أثناء عشاء دُعي إليه داخل إحدى المزارع في ضواحي بنغازي، اشتكى له من كل شيء، وأنه لا يُلاقي الاحترام الذي يستحق.

ضحك صديقه وقال: «لقد أخطأت يا صديقي، أخطأت كثيراً، لطالما تحدثتُ معك عن هذا اليوم، كان لا بُدَّ لك من أن تسمعني جيداً».

لم يفهم، فشرح له رفيقه: «هناك شيء واحد نخرج به: المال، الحسابات، الدولة منحت لنا الوقت وفرص لجمع الأموال، لصنع مستقبل لنا ولأبنائنا، إنما أنت مصر على العمل كراهب مجنون، أتعرف؟ لا ينفع في هذا العالم إلا المال يا صديقي، قيمتنا الأخيرة».

«عن أي مال تتحدث يا رفيقي، تعرف جيداً أنني أكبر من هذا».

«صدقني، أعرف يا صديقي، أعرف ويعلم الله أنك ستواجه الكثير في الأيام المقبلة».

«ماذا تعني؟».

«لا تهتم، لا بد أنك سمعت عن حكم الابن».

«سمعت. لا أظن أن هذا صحيح».

«إنه حقيقي وصحيح ويحدث الآن، يحدث جّداً». قال الرفيق.

عندها نهض من على كرسيه، لم يعد قادراً على المكوث الهادئ، دار في حلقة صغيرة، قال بعدها: «مَن أعرف لن يترك هذا المنصب».

«كلنا نعرف هذا، لكن الزمن لديه فكرة أخرى».

أحس بأنها كلمات مراوغة، سأل وهو يعود إلى كرسيه: «انقلاب؟».

«سمعت بأن هناك تصفيات واسعة ستقع، في المناصب، محاكمات، أكباش فداء لعناصر الأمن المتورطين في التصفيات والعمليات العسكرية التي وقعتْ خلال الثمانينيات والتسعينيات».

«ماذا؟».

«كلنا متورطون، وقد تم تسميتنا بالحرس القديم، كل من حضر اللقاءات التأسيسية للمثابات الثورية وعمل في الخدمة الفعلية، أنت تعرف من أعني».

ضحك بشدة حتى دمعتْ عيناه.

«نحن انتهينا، أتصدق؟».

استمر في الضحك في حين التقط هو أنفاسه.

«ماذا ستفعل؟».

«لا شيء، اشتريت شقة في الجنوب الفرنسي، أنصحك أن تفعل أمراً مشابهاً في الوقت المتبقي، وعليك أن تسرع».

في ذلك اليوم أدرك أنه انتهى.

ففي الأيام التي تلتْ اكتشف بوضوح الخطة الانقلابية. إنها بالضبط كما تقول الأجهزة الدعائية الغربية، توريث وانقلاب داخل القصر، اختفى الرفاق القدامى، لكنه لم يتوقف عن التردد على المكاتب الأمنية، شائعات عبر تلك المكاتب، نقاشات بأحاديث تسيء إليهم تحت مسمى الحرس القديم، ادعاءات مغرضة، وقد تم صنع بؤر أمنية داخل الدولة. الحلقة الأضعف أصبحتْ ذات قدرة على تحريك القبائل. الجيش والكتائب الأمنية، سُحِبَت تماماً. لم يتبق إلا القبائل وقد ظلتْ تعطي وثائق مبايعة فيما هي تحدق بشك لكل ما يحدث، تسويق الفكرة بين أفراد الشعب مهمة كانتْ على عاتق شيوخ القبائل، اللقاءات التي تمت كانت موسعة، بشكل بعث في ذهن كل مواطن ليبي أن هناك ما يتم إعداده، ولم يكن هناك أي خوف.

سمع مراراً عن موت الكبير، عن جلطة أصابته، عن إصابته بمرض قاسٍ وأن حياته غدتْ مجرد أوهام معزولة عن الواقع، وأنه يرسم داخل عزلته خرائط جديدة للعالم، ويراسل قادة ماتوا من قرون، رسائل لا تصل إلى أحد، وأنه يعتبر نفسه مجداً عظيماً وسراجاً ينير دروب البشرية، يُقال بأنه يتحدث يوميّاً عبر برامج لا تذاع، ويلتقي بجموع وهمية، ويلقي خطباً عصماء هي مجرد تكرار فظيع لأشياء غير مترابطة.

لم يكن يصدق أيّاً من هذا، أن يتحول البطريرك القابع في طرابلس إلى مجرد أداة أو أنه يغرق في دوائر الوهم والعزلة. كان يعرف أن حياة العقيد مضادة للعزلة، حتى أنه ربط نفسه بخيوط وثيقة بالعالم من حوله، بالرغم من دمويَّته التي تُتداول عبر وسائل الإعلام الغربية، إلا أن الديكتاتور الليبي جعل من نفسه نجماً، أقرب إلى مثال فني، سيغفر له الغرب كل سيئاته لمجرد لعبة بسيطة متمثلة في رغبته للإصلاح والقضاء على الفساد، سيغفرون له حتى ولو باعتباره مجنوناً بوجوده تستقر المنطقة.

الغربيون لا يحتاجون إلا إلى مجنون ليغفروا له كل شيء.

سنة 2008 جاء الخطاب الصاعق عن الحرس القديم، علناً، فقامت القيامة ضمن شرايين الدولة، بالنسبة له دائماً التعبير الأمثل كان هو جعل الدولة تحت المنظار الأمني الدائم، فقد حدثتْ مشاكل أمنية، أدرك من الوهلة الأولى أنها تحمل بصمات رجال الأمن القدامى، بعضها كان شارك في وضع أساليبها منذ ما يُقارب عشرين سنة، يعرف تلك الأساليب، إنها فعلاً تبدو مضحكة، وذات عنف مفرط حتى دون الداعي له، أدرك أنه ليس وحده من يُقاوم داخل الدولة، خصص وقتاً للكشف عن البقية، استقر رسمياً داخل فندقه، وحوَّله إلى غرفة عمليات له وحده، يتجول في المدينة، يلتقي بالرفاق، يتحدث معهم، يجمع المعلومات ثم سمع بأن أحد أبرز رجال الأمن القدامى مات بالسكتة القلبية وقد كانت تلك النكسة الكبرى، كان أحدَ الصقور ضمن النظام، وأحد الأجنحة التي ساهمت في تأسيس المثابات الثورية، وكثير من الخلايا السرية داخل المنظومة الأمنية في البلد، ولم يعد هناك أمل في إحياء أي شيء.

في المأتم رأى بعينيه مدى العجز الذي وصلتْ إليه الدولة. تطلع في الوجوه وفي الأساليب التي يعتمدها رجال كانوا أعمدة الحكم، كانوا أقرب شيء إلى صورة عظيمة بدأت تبهت تحت واقع ساخر. شاهد شخصاً من الكبار يرد على تحيات بعض من القادمين، وهو مضطجع على جنبه دون أن يكلف نفسه عناء الجلوس أو الوقوف ثم حين دخل أحدهم، وهو واحد من الرجال الجدد، وكان قد استلم موقعه في الدولة، فيما كان هذا الشاب يمد يده بالمصافحة والتعزية قام هو بمدِّ رِجل، أصيب الجميع بالدهشة، كان مشهداً محزناً للغاية، فما كان من الشاب إلا أن صافح تلك الرجل الممدودة بكل احترام ثم جلس في مكانه.

كان المسن موجوداً، فأدرك أن ما حدث أمامه ما هو إلا إعلان حقيقي على نهاية زمن الكبار، إنهم لم يكونوا بقادرين على فعل أي شيء لحماية مناصبهم سوى الإقدام على أفعال صبيانية وإهانة ضيوفهم داخل مآتم أهاليهم.

النهايات وشيكة!

ظل يدور بين أروقة المكاتب الأمنية على أمل التقاط تلك اللحظة أو إيجاد خطة بديلة يُقدم عليها الحرس القديم، وقد رضي في إحدى الليالي بهذا اللقب حتى إنه نحت مصطلحاً جديداً من ذات الطينة: الحرس الطفولي، ضحك منه عميقاً وقد نقله لأحد الأصدقاء خلال جلسات السمر، فضحكا عميقاً حتى دمعت أعينهما وانقلب الكأس من يده.

أثناء إحدى الجولات، شاهد اسماً لافتاً على ظهر أحد الملفات. سحبه بهدوء كما كان يمكن أن يفعل قبل أشهر قليلة، لكنه هذه المرة أحس بالقلق، ولأول مرة يشعر بالخوف على أحدهم، ومن أن يتم خذلانه، حين سأل أحد المحققين الشبان عن صاحب الملف، استمع إليه باهتمام ثم قال: «هذا الشاب يهمني».

«لكنه ضالع في عمل تخريبي».

«مع ذلك يهمني».

«سيدي، أنت تعرف حساسية الموضوع».

عندها ابتلع ريقه، ربما لمعت عيناه، وهو يهمس بشكل ظن فيما بعد أنه كان أقرب إلى اليأس وأنه كاد يبكي مثل كلب صغير بين يدي ذلك الحارس الطفولي، ما كان إلا ليأمره لو كان الطلب قبل أشهر فقط.

«قلت لك إنه يهمني، أقول».

نظر إليه المحقق، في عينيه مباشرة، هل حرك عينيه مثل كلب مستجدٍ؟ فقد قال له المحقق الشاب: «حسناً. هنا ملفات عنه، كما أن هناك سبعة صناديق ضبطتْ من غرفته، سنقوم بتسليمها لك».

«جيد، لن أنسى هذا». قال بصوت حاول أن يكون متعالياً، ولا بد أنه فشل؛ لأن المحقق الشاب قال: «أفعل لك هذا لقاء ما قدمته للدولة من خدمات، لكنني أريد منك أن تظل صامتاً ولا تتباهى بشيء».

كان الشاب يأمره بالصمت، بالرغم من أنه بدا محبطاً ومهيناً، إلا أنه قال بخنوع: «لا تخشَ شيئاً». أخذ الملفات وقبل أن تغرب الشمس استلم الصناديق التي قدمتْ له، فيما بعد أخذ صناديق أخرى، بأسلوب مغاير، شاعراً بالفرحة الغامرة، كأنه كفَّر عن ذنب قديم.

في اليوم التالي لبث واقفاً خارج المبنى حتى خرج الشاب صاحب الاسم الذي على الملف واستقل حافلة، أسرع خلفه وهو يشد على يديه حماساً، صعد على متن الحافلة، راقبه وعرف أين ينزل، ثم انتظره في اليوم التالي.

حين أعلن الشاب الخوف في وجهه، أراد أن يخبره بأنهما يشتركان في الخوف ذاته، لكنه تردد قليلاً لأنه لم يُرد إهانة نفسه أكثر، ثم حين فعل فيما بعد أدرك أنه لم يشعر بأية إهانة.

19

كانتْ ليلة هادئة بالنسبة للمسن. السير كان يؤذيه، فقرات ظهره تحتك ببعضها، الطبيب التونسي شجعه بأنه يمتلك أبرع فقرات تجاه شيء يخصه، إنها الحياة، لا تبشر أبداً بالخير، لكن بوسعه السير دوماً. كان قد عاد إلى فندقه مباشرة، وقبلها بأيام كان حصل على آخر صندوق من بعض الشبان الجدد. في زاوية من الغرفة كدس سبعة صناديق عليها عدة أختام، كانتْ مجهزة للحرق، إلا أنه أنقذها في اللحظات الأخيرة.

تمدد على سرير، قرأ قرابة مئة وخمسين صفحة من «الأخوة كارامازوف» هاله ما في الكتاب من أفكار تهمه ثم قام بفتح الصندوق الأقرب منه، فوجد فيه كمية من الصور الشخصية، الكتب التاريخية، نثر الصور على السرير وفتح الصندوق الثاني، العشرات من الموسوعات باللغة الإنجليزية مع مجلدات أفول واضمحلال الإمبراطورية الرومانية.

خلال ساعة تقريباً كان قد أخرج من الصناديق الأخرى العشرات من المتعلقات الشخصية: يوميات بألوان وأفلام وجهازي لاب توب مع فلاشات ذاكرة وقصص هزلية مع مجلات قديمة وقصاصات ضخمة من عمود سواح لمحمد محفوظ، لا بد أن الشاب كان يشتري صحيفة العرب لقراءة هذا العمود اليومي بالذات، كما عثر على العشرات من نسخ اللوحات الفنية الكبرى في حالة جيدة: إيفان الرهيب وابنه إيفان 1873 للفنان إيليا ريبين مع لوحة أخرى بعنوان: عودة غير متوقعة 1884. إعدام الليدي جين غراي للفنان بول دولاروش من عام 1833. لوحة ميتشكوف في بيريزوفر 1883 للروسي فاسيلي سوريكوف. عمال يقشرون أرضية خشبية لغرفة للفنان الفرنسي غوستاف كايبوت 1875. الكيمونو البرتقالي للفنان الإيطالي جيوسيبي ديل نيتسي. بورتريه شارلوت كورديه للفنان بول جاك يودري 1862. جامع الكتب للفنان الإيطالي جوزيبيار شيمبولدو 1566. كسل لذيذ للفنان الأسترالي روبرت يني 1897. منظر للغسق مع ضوء القمر الواهن للفنان الروسي إيزاك ليفيتان 1899. طبيب تشريح للفنان الألماني غابرييل فون ماكس 1869. زواج غير متكافئ للروسي فاسيلي بيوكريف.

أخذ بفتح الصناديق، ويخرج ما فيها باهتمام متزايد، كان الشاب التونسي قد دخل من أجل موعد الدواء الذي يأخذه المسن، فأصبح يعاونه في مهمته الجديدة بإخراج كميات إضافية من اللوحات، المزيد من الصور الفوتوغرافية، الفلاشات التي تحتوي على أفلام قصيرة، أنيميشن لا تتعدى الأربع والعشرين دقيقة، تحدث فيها عدة مواضيع عظيمة مثل نهاية الحياة، توقف وسائل الاتصالات، فتشرع الشائعات بالانتشار وتشعر الحكومات في كل الأرض بأنها مهددة من قبل شعوبها، تحدث مواقف عصيبة سببها سوء الفهم، شاهد هذه الأفلام باستخدام لاب توب الشاب بعد أن قام التونسي

بمساعدته، وجدها أفلاماً مشوقة وتحتوي على مشاهد بها رغبات مجنونة، تابعها مراراً خلال الأيام التالية، ولم يتغير اهتمامه عن المرة الأولى بصحبة التونسي، ثم أخرجا كل الصور من جميع الصناديق، علقا الكثير منها على جدران الغرفة.

«إنها المرة الأولى التي تهتم فيها بالغرفة». لاحظ التونسي.

«إنها المرة التي أجد فيها ما يستحق الاهتمام».

«أين وجدتها؟». سأل التونسي ضاحكاً، كان يعلق واحدة بعد أن تأملها.

«هدية من صديق».

«لا بُدَّ أنه مصور من معمل بيروت».

«أكثر احترافية». أجاب المسن، كام يتمعن بدوره إحدى اللوحات.

«لا بد أنه مهندس».

«لا أعرف».

«أليس صديقك، كيف لا تعرف؟».

«لم ألتق به منذ ثلاثين سنة».

«أو، غريب». قال التونسي «ظننتُ أنه أصغر سنّاً».

«لماذا؟».

«إنها الصور...». قال ثم ابتعد إلى الوراء قليلاً كأنه يتأكد من شيء ما غامض، استحثه المسن ليكمل جملته فقال: «إنها شبابية، هكذا تبدو».

«شكراً لك». قال المسن وهو يمثل دور الغاضب. عندها ضحك التونسي وقال بمرح: «لا أحد ينكر كونك شابّاً». كان المسن يقلب صورة عن هارون الرشيد حين قال: « لا أحد: فقرات ظهري و مفاصلي و عدم القدرة على النوم والبروستاتا».

ضحك التونسي مرة أخرى مفضلاً عدم الرد. طوال تلك المدة التي عمل فيها مع المسن، أدرك بالضبط أنه رجل من الطراز القديم، مثل رجال المافيا العظام الذين تعمل هوليوود على جعلهم أساطير شعبية ضمن حياة بالأبيض والأسود، فلا ألوان في حياة المسن، على الأقل حتى مؤخراً.

كان مولعاً بالبدلات الإيطالية المخططة، يدخن بشراهة ويسير خلال الليالي إلى مطاعم صغيرة يقضي فيها الوقت متطلعاً للجدران، حين يسأم من هذا التجوال كان يخرج من أوكاره الارتجالية، لينطلق في واحدة من رحلاته إلى غرب وجنوب البلاد، طرابلس العاصمة، سرت، سبها. محتكّاً بجماعته القديمة ممن أصبحوا يسمون في دوائر الأمن بالحرس القديم.

التونسي ظل بصحبته لمدة كافية ليعرف عنه الكثير من الصفات. رأى بعينيه أصحاب المناصب العليا في المدن، يأتون إلى صالة الفندق على أمل لقاء قصير به. كان يمنحهم دقائق معدودة، يحل مشاكلهم باتصالات من هاتف الاستقبال، تأتيه الجماعات الجديدة، المنظمات الخيرية، أصحاب الشركات من الدول الغربية، يتحدث معهم باللغات التركية، الإنجليزية والفرنسية، كان يمتلك تلك النظرة القديمة للعائلات الموالية للأتراك العثمانيين، يعتبر هذا التاريخ جزءاً منه، يمنحه القوة أمام القادمين من أوروبا وبلاد الغرب عموماً، كان بوسعه القراءة بالإيطالية والتي تعلمها خلال مدة وجيزة لا تتعدى الستة أشهر حين تم تعيينه مسؤولاً أمنيّاً على أحد فروع شركاتها في الصحراء. طوال تلك المعرفة به، لم يعتقد أنه مهتم بشيء فني، عدا ولعه بجمع البطاقات البريدية، التي يواصل الظن أنها نوع من التواصل السري فيما بين الأجهزة الأمنية.

«ما لا أفهمه هو كيف يمكن التفكير على هذا النحو، هل هذه صور فوتوغرافية أم لوحات مرسومة وتم التقاط صور لها؟».

ضحك المسن.

«إنه إبداع، سمعت مرة عن مزج بين التصوير والرسم، ظننتُ لمدة أنه تصوير فقط، إنما هذه الصور الهجينة تبحث في أشياء عبقرية».

«لا بد أنه أستاذ».

«إنه كذلك، صدقني، وستلتقي به».

«جيد أود حقّاً رؤية أي عينين يمتلك».

كان المسن يحمل بين يديه صورة بدتْ له أكثر روعة، عليها عنوان: «فتاتي». هذه اللوحة بالذات كانتْ من بين تلك التي ظلتْ في مخازن الدولة، أرهقته حتى حاز عليها، دفع رشاوى مختلفة، استخدم المحسوبية من الشبان الأصغر سنّاً حتى إنه استجدى فعليّاً إحدى الراهبات الثوريات ليحوز على تلك المجموعة الأخيرة من المخازن، بلغ عددها قرابة أربعة صناديق كبيرة.

«ستفعل وستكون مسروراً». قال المسن، عندها قام التونسي، اتجه ناحية الكمودينو وسأل: «هل تناولت دواءك؟».

«ليس بعد». أجاب المسن بلا اهتمام.

«تنساه دوماً، عليك أن تأخذه».

«سأفعل». كان منكبّاً على تمعن اللوحة بين يديه.

«هيا، هيا». قدم له التونسي دواءه، ابتلع الحبوب سريعاً ثم شرب كوب الماء وألقاه بعيداً بغضب مفتعل، رفعه التونسي وهو يجرب نكات غير ناجحة لم يسمعها المسن مطلقاً.

«حين نكبر لا يظل إلا الفن».

هكذا فكر المسن في تلك الليلة، ثم واصل التفكير على هذا النحو بالذات بعد سنوات حين وجد نفسه على مشارف الموت، مهدداً ويجد نفسه للمرة الأولى خائفاً من الموت ثم يؤكد أن ما يعانيه ليس خوفاً، بل هو أقرب إلى الحنين لماضيه البعيد ما قبل عام 1973، ثم يعود ليعلن لنفسه أنه بسبب خوفه، ظل تائهاً بين مشاعره المقموعة وذكرياته المتوحشة، ارتد لأعمال تاريخه الشخصي، بحث عائداً حتى لعام 1973 يقف مثل حصان متأهب يتطلع في وجهه الشاب، وهو يعاني سذاجة بلا حدود، حالماً بالقوة والدولة والانتقام.

وصل إلى ذروة سطوته خلال الثمانينيات حتى منتصف العقد الأول من الألفية الجديدة، كان وضع ذاته باعتباره أحد العناصر المهمة في الدولة التي انهارت مثل قصر رملي بحلول عام 2011 فشعر بالسوء حين لم يتذكره أحد من أعدائه المزعومين، بقي في الظل، تائهاً في ألعابة الجديدة، شاكراً القدر الذي سمح له بمزيد من الوقت.

بدا سعيداً حين قابل صديقه الشاب مجدداً في تلك السنة بعد غياب دام خمس سنوات كاملة قضاها باحثاً عنه داخل أروقة دار الكتب الوطنية ومكتبات بنغازي الصغيرة والمنتشرة ضمن أزقة المدينة، والتي سرعان ما تقلصتْ وانطفأتْ مثل مصابيح معطوبة، ليلتقي به في لحظة هادئة في أحد شوارع بنغازي، بصورته القديمة، محملاً براوية قصيرة وبدفتر يوميات مع قلم بين أصابع يده الأخرى باللون الرمادي الكامل بحيث يظل مجهولاً، دون أن يقدر على الاستقرار في الظل، إنه مُشِعٌّ مثل الغيوم في منتصف يوم شتوي.

20

حين خرج الشاب من دار الكتب الوطنية، كانتْ السماء تشع ببريق يخطف الأبصار، كخاتم ماسي في إصبع حسناء. عند الأرفف أحس بأن فتاته تقف بالقرب منه، دون أن يتطلع أدرك أنها هي، فغرس عينيه في المجلد بين يديه وصلى في سره ألَّا تكون هي. قلبه لم يعد يحتمل. أغمض عينيه بين صفحات المجلد لثانية، لثانيتين، لثلاث ثوان.

حين رفع رأسه مجدداً، كان الظل الثقيل للقرين الأبدي قد اختفى تماماً، سمع وقع الخطوات المبتعدة، فأحس بالإنهاك التام، حمل المجلد إلى مقعده، لاحظ أنه كان يحمل مجلداً لدوستويفسكي.

وضعه على الطاولة ثم قام ليخرج، عبر الأرفف دون أن يتطلع مباشرة أحس بأن الأعين منصبة عليه، أحس بها، لكنها لم تكن هي. نزل السلالم. وضع بطاقة الرائد ثم أخذ متعلقاته الشخصية. خرج بهدوء مفتعل فيما أخذت الغيوم اللامعة ترسل ضوءاً شفافاً مثل دموع أسطورية. حين وصل مسرعاً إلى نهاية الأدراج الخارجية، سمع اسمه ينادى بصوت أنثوي.

التفت، فرأى شابة تقترب منه، لمعان السماء أثر في عينيه، فلم يميزها جيداً إلا حين اقتربت منه كفاية، فوجد في عينيها نفسه.

«أوه، كم أنت سريع!». قالتْ هذا وهي تبتسم ثم: «كيف حالك؟». مدتْ يدها مصافحة، ثم وكأنها لاحظت استغرابه الذي ظنت أنه عدم معرفة، فوضحتْ قائلة: «التقينا سنة 2006 في مكتب حسان».

«عرفتك». قال قبل أن تنهي تعريفها بنفسها وهو يبدي إعجابه.

«كيف حالك؟».

«بخير، أشعر أن زمناً طويلاً قد مر». نظر إليها، كانتْ تبدو ناضجة جدّاً وقد نمت جيداً بقوة تدفعها من الداخل باتزان بالغ، مذهل. الكون كان رحيماً معها بلا شك، شعر بشيء من الفخر المفاجئ.

«خرجتَ مسرعاً، فجأة». قالتْ بابتسامة.

«كنتُ تذكرتُ شيئاً». بدا على وجهها بعض الخيبة ثم قالتْ: «رأيتك مصادفة، لم أَرد أن أدعك ترحل دون إلقاء التحية». لم يعرف ما يقول، كان يحس بالسعادة الملتهبة في داخله، كما أنه أحس بخفة ونشاط مبالغ فيهما، وعلى نحو

مباغت، فقد التحكم في عواطفه، نسي ما كان يجري من حوله، نسي البشر، نسي جمال النساء والقرن الأبدي، لوهلة نسي حتى عشقه الذي عاش معه لسنوات، إنه إنسان جديد كليّاً في تلك اللحظات القصيرة، بدا أنه أيقن جمال الحياة من حوله، الجمال الذي يشع من الداخل، وبدا كل شيء منطقيّاً جدّاً، إنه هنا لأجل ما يحدث الآن، وإن السماء نفسها قررتْ هذا اللقاء المذهل، ليُدرك تماماً ما كان يُدركه في تلك اللحظة الأبدية. كان يحدق فيها منتصراً، في عينيها، وجهها، خصلات شعرها حتى ابتسمتْ مدركة ما يجول في داخله، إنها السعادة بأن يجد المرء أنه مرحَّب به دوماً: «أردتُ أن أسلم عليك».

«شكراً». قال وهو يهم بالعودة إلى دار الكتب الوطنية، فمدَّت له إحدى مذكراتها، أخذها بشكل طبيعي كأنهما في الجامعة، ثم عادا معاً للداخل، أخذ البطاقة مرة أخرى من مشرف الاستقبال. كانت قد صعدتْ قبله بخطوات ثم انتظرته عند أعلى الأدراج.

حين صعد إليها، ابتسمت ثم سبقته بخطوة، وما إن زرع خطواته على الطابق الأول حتى حاذته في المشي، كانتْ لحظة انتصار كونية، وكانتْ أقصر منه بعدة سنتيمترات، أحس بها، برائحة منعشة، كان الضوء الرمادي اللامع للشتاء يدخل منهمراً من النوافذ. السحب كأنها تغطي الأفق، والكتب على الأرفف تبدو مغبرة، أمَّا الأعين فقد أخَذَت تلمع أكثر، والخطوات التي أخذ يزرعها كانتْ واثقة، ممتلئة بالفَخَار. الفتاة بجانبه تسير مجارية لخطواته، فخفف من سرعته متذرعاً بإعادة المذكرة إليها. التقطتها بعفوية مذهلة، بابتسامة ساحرة، أحس بأنها أكثر أناقة وجمالاً. في خطوته التالية رغب عميقاً في احتواء كل شيء دفعة واحدة: تساءل كيف يمكن فعل هذا؟!

وعيه اتخذ مساراً مذهلاً ولامعاً، مثل مشهد سينمائي عن اكتشاف الأحاسيس الأولى للعشق، إنها تولد ثم تظل تحت التراب، لتنمو من جديد في لحظات غير متوقعة، بذور العشق ليست هي جذوره وليست هي نباته، لو كان في غرفته لضحك عالياً على هذه الأفكار الجنونية الممتعة.

هل هناك أسطورة تروي عن شجرة العشق، كما تروي عن شجرة المعرفة، هل لشجرة آدم وحواء علاقة بالحب الأول واكتشاف الآخر؟

تطلع للمجلدات المصطفة بانضباط ساحر. المكتبة، العشق، النمو، تفاصيل هي الأخرى تعيش في أعماق لوحاته القديمة. فكر في اللحظة التالية، بأنه أحس بها قبل قليل. الإحساس بأن حيه القديم يقف على بُعد خطوات منه حتى وهو يقرأ كلمات دوستويفسكي عن ظهور الابن الشرعي للقيصر، عن تلك اللحظة المجنونة ومحاولة استخدام الفكرة الدينية، التي كان ليستخدمها ضمن صوره، ليس لأجل ظهور الابن، بل لتجسيد الأب نفسه. أين يغيب الآباء؟ هل كان ذلك الإحساس مجرد خدعة ذاتية؟ وهمٌ عابر لشخص يبحث عن العشق. هل من الممكن أن تكون حقيقة؟

التفت بعينيه القلقتين في لحظات، جال بهما الردهة، شاهد خمس بنات متفرقات، يعبثن بأجهزتهن المحمولة، وواحدة تقلب في دفاترها الدراسية، لا يمكن على الإطلاق تحمل تَمَنٍّ كهذا دون أن يتحقق، لكن مع ذلك يظل حاضراً في الذهن كأنه يتحقق دوماً. كان منشقّاً بين عالمين، إنه يختبر أحاسيس جديدة، نمو عريق مختلف في قلبه، مثل نبتة خيالية.

حين دخلا قسم الأدب الغربي، فقد إحساسه بالكثافة.

التفتت إليه مبتسمة.

«تمنيت أن أراك دوماً».

«حقّاً؟».

«شعرتُ بهذا دوماً». أمسكتْ بيده، مررتْ بأصابعها بين أصابعه، تسربت كالرمل للحظة ثم تشبثت به كالحلم، مرتْ عبر جسده قشعريرة لذيذة، بدتْ له أكثر أماناً.

«حلمتُ بك!». ردد في نفسه. كان قد فعل دوماً، وقد أنجز لوحة فنية عظيمة عنها، لكنه لم يعد يتذكر شيئاً، إنها موجودة في جزء من أحلامه، جزء غامض أشبه بقصيدة لاتينية، لم يكن بوسعه حلها إلا أنه قال: «حقّاً؟».

«نعم».

«تبدين لطيفة».

«حقّاً؟». قالتْ ثم ضحكتْ لأنها قلدت طريقته الغريبة في الحديث.

أعجبه تقليدها ولم ينزعج.

«هل كنتِ أنتِ من وقف بالقرب مني قبل قليل؟».

«أين» سألتْ متعجبة.

عرف عندها بأنها لم تكن.

جلسا معاً إلى نفس الطاولة، مجلد دوستويفسكي ما يزال أمامهما على الطاولة. كانتْ قد اقتربتْ منه بشكل أحس ببشرتها تضيء في عينيه، فحاول أن يتراجع قليلاً، فصر الكرسي تحته، بصوت متألم، التفت للخارج، رأى سعف الدوم وقد بدأ يحتج بسبب الرياح القوية، في قلب اللمعان الناتج عن الغيوم الرمادية والمضاءة.

«اختفيت طويلاً». قالتْ، فكر لوهلة سبح خلالها عبر النافذة وعاد.

«كان زمناً غريباً». أحس بالغضب من نفسه لأنه قال هذا، لكنه لم يتوقف، بل زاد قائلاً: «كدتُ أترك البلاد للأبد».

«خمس سنوات مرت على آخر لقاء».

«فقدنا خلالها الكثير».

أحنتْ رأسها ثم تمتمتْ: «حسان؟».

«نعم، وضعتُ في نفس المبنى، لم أكن أعرف».

«أخبرونا بأنه مات بالسكتة القلبية».

«متى أخبروكم؟».

«بعد القبض عليه بثمانية أشهر تقريباً». هز رأسه متأسفاً في اللحظة التي أرجعتْ خصلات شعرها المتمردة إلى خلف أذنها، بدتْ مكشوفة مثل روضة من رياض عدن، لا يمكن أن تكون الأشياء أكثر جمالاً، أحس بالتوتر في داخله، فقال بشيء من التردد: «سمعتُ بأنكم سافرتم إلى سويسرا».

«لسنا نحن، عائلتنا ظلتْ». أجابتْ

«بدا كل شيء محبطاً، شعرتُ بأنني آسف جدّاً، حين خرجتُ من السجن لم أجد أحداً».

«كيف كان سجنك؟».

«ليس قاسياً، أحسستُ بأنهم نسوا أمري ثم خرجتُ بعدها بشهر».

مرتْ لحظات صمت، سمع خلالها النقرات الأولى للأمطار تدق على الزجاج السميك للنافذة، تطلع للخارج، فأخذتْ الأمطار تزداد هطولاً حتى بدأتْ تتكسر بقسوة على الإسفلت.

«هل فكرت فيَّ؟». سألتْ بشيء من التردد وبابتسامة صفراء.

«كثيراً». أجاب بصدق.

«كيف فكرت؟».

«كنت دوماً تلك الفتاة الصغيرة التي تتحدث عن صوري بأسلوب الكبار».

ضحكَت ثم سألت: «والآن كيف تراني؟».

«كبرتِ».

«لأي حد؟».

«ما يكفي لأخاف منكِ». عندها أفلتت ضحكة رنانة، غلبتها بكفها.

«كنت دوماً في خيالي، مشابهاً لأمر باعث على السعادة، صورك لم تغب عن بالي أبداً».

«صوري؟».

«نعم، إنها غير قابلة للنسيان».

«أذكر أنك كنت متحمسة جدّاً».

«جدّاً».

«حديثك عن الأهمية والضوء، كان عظيماً».

«بالضبط، أظن أنني قلت هذا في تلك المرة، هل كنتُ غبية؟».

«لا». قال مبتسماً ثم أضاف: «أشياء مجنونة حدثتْ».

«هل هي سيئة؟».

«ليس كثيراً». قال بصوت حزين مستسلم، هاله أن يغدو مرتاحاً في حضرتها بهذا الشكل وبهذا الحزن غير المخفي.

بدتْ له مبتسمة ومرتاحة وفيها غموض ظن أنه حزن أيضاً، ربما كان كذلك، يعيشان حزناً واحداً، بنفس المشاعر، إنما لكل منهما شيء مميز في حزنه أو فرحه؛ لهذا ينجذبان لبعضهما، حلل هذا في ثوان، كان يعرف في جزء من ذكرياته أنه وبلا شك لمس تلك الجزئية البسيطة من حزنها بكلمة أو إشارة، ربما حتى بلحظة صمت.

21

خلال لحظات الصمت، أمسكتْ بمجلد دوستويفسكي ثم بدأتْ تقلب فيه، كان على مر السنوات قد وضع مئات الإشارات على الصفحات، بدتْ له مهمة، قلبتْ فيها وجالت ببصرها ثم أخذتْ تقرأ قليلاً، تنهدتْ ووضعت المجلد على الطاولة، كان يشعر بأنه واقعي أكثر من أي وقت مضى، الضوء الشفاف، المجلد الأزرق الكثيف، حذاؤها الأبيض، ذو المقدمة الصغيرة، قدماها صغيرتان كما سيفضل أي إمبراطور صيني.

«هل ما زلت تواصل تصميم الصور؟».

«نعم». قال.

«تبدو مهموماً». قالتْ متسائلة وهي ترجع خصلات شعرها إلى وراء أذنها، كانتْ خصلات متمردة حقّاً.

«لا، لكنني منذ مدة أحاول تصميم صورة واحدة كبيرة».

«لا بد أنها معقدة».

«إنها كذلك؛ فهي تحتوي على كثير من التفاصيل».

«تفاصيل؟».

ابتسم.

«إنها التي تجعل من الصورة كاملة».

«أتذكر أنني لاحظتُ هذا في صورك، أتعرف أن عندي نسخة من لوحتك عن قوت القلوب».

لم يكن يعرف هذا، إلا أنه قال: «إنها إحدى أولى لوحاتي».

«أحببتها دوماً».

«ربما فيها شيء منك».

«لكنك لم تكن تعرفني حين قمت بتصميمها».

«ربما لم نلتق، لكنني عرفتك دوماً». ابتسمت، أمالت رأسها يساراً ثم قالتْ وهي تتطلع في عينيه: «تحب الغموض، ها».

«لا، الوقت فقط ما أحتاج إليه لأكون واضحاً».

«مع هذا أراك واضحاً».

«أنت واثقة».

«ألا يجب أن أكون؟».

«يليق بكِ، وهذا جيد». قال ثم نظر إليها بالتحديد وسأل: «ماذا تفعلين؟».

«تقصد في حياتي؟! أدرس التاريخ وأمتهن الصحافة كما أنني أستعد لتقديم فيلم قصير».

«فيلم قصير؟». أعجبته العبارة، إنها رنانة وباعثة على الطموح.

«نعم، فيلم قصير». هز رأسه مستفهماً، فأوضحت: «تلقيتُ دورة في صناعة الأفلام القصيرة، وجدتُ سيناريو جاهزاً عن شاب يدمن على حبوب الهلوسة، يرتكب جريمة مريعة، قتل عائلته».

كانت تلك قصة مشهورة، حدثت في إحدى مناطق بنغازي.

«سيكون عملاً معقداً».

«إنه كذلك بالفعل».

«لماذا هكذا موضوع».

مطت شفتيها متفكرة ثم قالتْ: «أظن لأنني وجدتُ نصّاً جاهزاً ومولاً مستعداً لطرح الفكرة من دون مقابل أو خوف».

«هل هو نص قوي؟».

«إنه واضح وأخلاقي».

ابتسم.

«يبدو دعائيّاً، ألن تبحثي عن موضوع أفضل؟».

«لو وجدتُ أفضل منه، لاستبدلته».

«لديَّ بعض المواضيع». قال مازحاً.

كانت مواضيعه تحتوي على الأغلب قصصاً عن القتل أيضاً، لكنها مبررة بقصص حول العشق، موجودة ضمن صوره الكثيرة، متناثرة، العشرات من القصص القصيرة، من أجل تكوين المشهد العظيم في رأسه، على غرار إيفان الرهيب أو بطرس الأكبر، العودة من الرحلات الأوروبية أو حتى مصاحبة تلك الرحلات حتى نهايتها المأسوية.

في جزء قصيٍّ من ذهنه، كان يمتلك قصة.

«سأحكي لك قصة». قال راغباً في إثارة إعجابها.

«أوافق، مزاجي جيد لسماع القصص». قالتْ وهي تقترب منه أكثر. كان يحس بحرارة جسدها، اقترب منها بدوره، حين بدأ يسرد ما في ذهنه، كان يفكك الكلمات ويجمع الصور، ويبتلع ريقه، ويتمتع باللحظات.

«القصة حدثتْ في بلدة جنوبية، قوات فرنسية كانتْ في البلدة، إنها تتخذ منها قاعدة للهجوم على البلدات الجنوبية الأخرى. خلال تلك السنة بالذات أتت فتاة غريبة من مكان مجهول، قيل إنه جاءت مع مجموعة من العائلات المهاجرة. الفتاة في الثامنة عشرة، سُميت بالبيضاء لأنها لا ترتدي إلا الفساتين البيضاء المطرزة فيما بقية الفتيات يرتدين الفساتين المشجرة، والتي تحتوي قصصاً عن الغابات البعيدة والمتشابكة الأغصان، نمور وأسود عليها، كانتْ تبدو قصيرة، فهي تكشف عن السيقان النحيلة بكتل من الفضة. هذه الفتاة كانت ترتدي حذاء جلديّاً بأربطة تصل حتى أسفل الركبة بقليل، مع فستانها القصير جداً، فهي تعمل عند الفرنسيس. قيل إنها طباخة وقيل إنها ممرضة، إنما كانتْ كريمة للغاية وتساعد الجميع، تقدم الطعام والمواد الغذائية، الملابس الشتوية لكل مَن يحتاج. كانت تسعى لإطلاق سراح المقبوض عليهم، تخفف العقوبات عن البعض بقدر ما تستطيع، وكانتْ لأجل هذا محبوبة جدّاً. في البلدة سرت شائعات عن كونها عشيقة الجنرال. اعتبر مبعث هذا الحديث حسداً من الأعداء. بعض من عرفها قال إنها ليست كذلك، وأن الجنرال مسن ستيني بحاجة إلى العناية، وهي تقبع معه وتقوم بخدمته لقاء راتب شهري، وأنها من أغاديس، وقعتْ في الأسر وتم القبض عليها خلال إحدى المعارك، لم ينقذها من الموت سوى أنها قامتْ بعلاج أحدهم ضمن الجيش الفرنسي، لا أحد يعرف الحقيقة».

كانتْ تستمع إليه باهتمام، صمت لثوان ثم واصل: «ما حدث هو أن الجنرال ومجموعته تركوا المدينة بعد فترة، فظلتْ هي داخل أحد المنازل، كونتْ بعض العلاقات مع بعض النسوة، فيما أكثرية البلدة كانوا يحترمونها، إلا أنها ظلتْ بعيدة عن الجميع، لا تحتك بأحد إلا إن دعتْ الضرورة لذلك. لم تعد ترتدي الأبيض، التزمت بالأسود والرمادي، لكن الناس ظلوا يلقبونها بالبيضاء».

بدتْ منتبهة، مدركة أن هناك شيئاً ما سيحدث.

«في صباح أحد الأيام عثر في البلدة على عشرات الصور الفوتوغرافية، العشرات منها تُظهر البيضاء عارية وفي حالات مخجلة مع قادة الفرنسيس، واكتشف الناس أنها مجرد عاهرة، من يومها تجاهلها الجميع، واكتفوا بكراهيتها سرّاً، واحتقارها علناً، يضايقونها في الطرقات حتى إنهم يلمسونها، ظلتْ على هذه الحال لأشهر، وفي أحد الأيام وخلال أحد الأعراس، دخلتْ ساحة الرقص وأخذتْ ترقص بجنون مطبق، كان جسدها شبه عار، يتوتر بتقلصات الخيول، يتموج كالبحيرات العظيمة، كانت تهدر بقوة ألف فرس، وقد بكى الشيوخ لأنهم لم يروا في حياتهم فتاة مثلها، ها هم يودعون الحياة ويتركونها وراءهم، يقال إنها استخدمتْ كل التقنيات التي تعلمتها من الأوروبيات، العاهرات الأوروبيات، في تلك الأمسية طعن خمسة من الشبان أنفسهم بسبب من الجذب، لم يقدروا على تحمل كل ذلك الجنون الجسدي المرعب، مُلئت الأرض بالأوراق النقدية، نزل الشيخ بنفسه ورقص أمام صدرها وأحياناً تحت قدميها وقد كانت ترتدي ملابسها البيضاء المُخَصَّرة والتي قامتْ بقطع أجزاء منها، وسطها يكاد ينقصف».

ضحكتْ الفتاة فيما واصل هو بلذة.

«في تلك اللحظة، خلال الذروة المجنونة للشهوات، يصل شخص، مسحوباً إلى حلقة الرقص بسبب الجنون ما كان يحدث، ينظر ثم يميزها، يتقدم ببطء، وفي عينيه حمرة الغضب، بين يديه سلاحه الناري، أمر عادي، ثلاثة أرباع الرجال لديهم أسلحة نارية، يطلقون منها في الهواء تباعاً أو معاً، لكن هذا الرجل صوب السلاح إلى قلب الفتاة، وقبل أن يفهم أحد شيئاً، أطلق عليها النار من تلك المسافة القريبة، شاهد الجميع جسد الفتاة يُقذف بعيداً ثم يتقدم منها مجدداً ويطلق النار على الرأس».

صمت في دار الكتب الوطنية، ساد الهدوء، كأنهما لوحدهما ولا أحد.

«يا ربي». قالتْ.

«حدث تماماً كما وصفتْ».

«لماذا يفعل هذا؟».

«كان يراها من قبيلة دونية، لا تستحق كل هذا الاهتمام».

«لم أفهم».

«إنها مسألة أفريقية صرفة، إنها من طبقة الحدادين، وهي طبقة محتقرة منبوذة في مجتمعات جنوب الصحراء؛ بالتالي فهي محتقرة لا ترقى إلى هؤلاء الأشراف».

«يا ربي، أمعقول هذا؟».

«غير معقول، لكنه يحدث، وهذا ما يصلح ليكون فيلماً».

القصة جزء من لوحته الكبرى.

22

أمام لوحته الكبرى في تلك الليلة، بدأ يستعيد جمال ما حدث قبلها بأيام، داخل دار الكتب الوطنية، كانتْ فتاته تقرأ بعض القصائد الصينية وفي عينيها تلك الظلال الهادئة. حكت له عدة مرات عن المتعة التي تجدها في تلك الآسيوية.

«تحمل مشاعر مضيئة كالحزن والابتهاج بالطبيعة والموت الشاحب. نقرات المطر على الأعتاب الخشبية للبيوت، أوراق الكرز الندية بشهوة رائقة. الإشراقات الباهرة في الكلمات التي تخرج من التجارب العميقة. إنها ببساطة قصائد عشق حتى وهي تتحدث عن الموت والفناء والمثالية».

«اليابانية أم الصينية؟».

«ربما هي نزعة آسيوية، الرهافة الحاذقة الباحثة عن السلام الروحي بعيداً عن عنف الواقع، الكلمات والطبيعة».

«تبدين مثل راهبة». قال معجباً بها.

«حقّا؟ لم أعتقد هذا، والدي يصفني بالمحاربة».

«راهبة محاربة وتقرأ قصائد عن العشق والموت». ضحكتْ برقة وتطلعتْ خلال النافذة. الأمطار تهطل بعناد شديد، كأنها عاصفة تريد أن تغرق المدينة بطوفان كاسح، السيارات تسرع في الهرب مع الأضواء المنسابة بأرق كسول.

الساعة الثامنة والنصف مساء. الأروقة خلت بهدوء. آخر شاعر ثمانيني جمع أوراقه بالتزام تام وغادر بتثاقل مبتسماً لهما. في قلبه قصيدة عشق بين أروقة المكتبة. قلبه دق متوهجاً حين غادر الشاعر. سمع الدماء في عروقها تضج بالأحلام. لمس كفها الممدودة بهدوء، فابتسمت. قام وشدها ببطء أولاً حتى خرجتْ من كرسيها فأخذها دفعة واحدة كموجة هادرة، أسندها إلى أرفف الأدب الغربي. كانتْ بعض المجلدات ناقصة. مجموعة دوستويفسكي مندثرة. قبلها على عجل فيما وضعتْ كفها الرقيقة على صدره كان يبحث بشكل محموم بين شفتيها عن طعم الحياة، بالنسبة لها كالماء العذب. أنفاسها الحارة تزيده عنفاً، تستفزه. عدة دقائق، بدتْ بعدها مرهقة وبدأت تدفعه. كبح نفسه بقوة وأخذ يُداعب كفها المفرودة فيما أخذتْ تتطلع في عينيه باتصال إلى مدى النضج الذي هو فيه.

«ماذا تريد مني؟». سألته متأخرة.

«قلبك، أريد دفء الاهتمام». أجاب وهو يلهث تباعاً.

«لا تقس علي، لا تفعل».

«لن أفعل، أنتِ كل شيء بالنسبة لي». كان يعني كل كلمة قالها، الوحدة التي تحيق به قاسية جدّاً حتى شعر في بعض اللحظات بأنه يقترب من الجنون.

كان يحادث كل شيء حوله، يسمع صدى حواراته الشخصية ثم يغرق عميقاً في تصميم الرسومات الذاتية باستخدام الصور التي التقطها والكلمات التي كتبها عن صوره المزمعة. لم تبدُ الحياة بهذا القدر من الوضوح من قبل. كلمات دقيقة وسحب ثقيلة تعبر الأفق بهدوء، فوق شواطئ المتوسط وأشجار الدوم على أرصفة الطرقات. شموخ المدن مثل ثمرة صعبة وقاسية، ليست تفاحة، بل ثمرة دوم أقسى من أغلب الثمار. تحدق من فوق إلى حركة الجميع.

كان يعرف ظروف غرس كل شجرة على حدة. تحدث مع رجلٍ عمل في غرسها عبر المدينة. قال إنهم غرسوها كأنهم ينجبون أبناء. الشركات دعمتهم باهتمام نادر. كل شجرة دوم حكاية بذاتها. أخذ يلتقط لها الصور. يكون تاريخها الحي بهدوء وبلا ألوان، السبعينيات حتى الثمانينيات وأوائل التسعينيات. الحياة ليست سوى تلك اللحظات القصيرة والتي لا نظن مطلقاً أنها مهمة. ضمَّن صوره كل تلك اللحظات التي يظن أنها مهمة في حياته.

في تلك الفترة بينما هو يلتقط التفاصيل الصغيرة للمدينة، رأى عند الميناء حصاناً أبيض واقفاً بإنهاك، بدا عليه كبر السن، مترهل الجسد، بنظرات مظلمة بدتْ عميقة بالحكمة والصبر، كان يتطلع بهدوء إلى الفراغ. من ورائه تظهر الرافعات العالية. القطع البحرية. السفن الرمادية الكالحة بجانب القوارب الصغيرة والمتوسطة، كلها متوقفة. تأمل للمناظر غير الطبيعية لكنها تخلق تلك الخلفية المتناقضة والرمزية في آن واحد. وقد علا الصدأ كل شيء. بدا له الحصان غاية في الغموض. التقط صورته وعبر نحو الكورنيش.

عند قرابة الثالثة والنصف مرهقاً أخذ يتطلع إلى صوره، بعد أيام. الحصان الأبيض يتطلع إليه مباشرة عبر الصورة. عند نهاية حدقته اليمنى دمعة كبيرة متجمدة. وجه حزين، كالشمع المذاب، كوجه تمثال تاريخي لجواد أسطوري من إحدى الملاحم، لثلاث ساعات بحث في تفاصيل الصورة.

أخرج تلك الصورة غير المتقنة وأخذ يستعيد الماضي مستحثّاً ذاكرته للعودة عدَّة سنوات إلى الوراء. الجزء الدقيق من لوحته الكبرى. فسيفساء الذكريات تُظهر عشرات الوجوه تحف بالكهل الأبيض. تنزلق بسرعة من على سلسلته الحديدة الصدئة، ذات الصوت المكتوم، المتداخل مع رقرقات المياه وقفزات الأسماك في وهج الضوء المنبعث من المدينة.

عاودته الحمى، اشتعل جسده ورأسه بالأفكار، ليلة باردة، لو كان في بلدته لخرج راكضاً، لو كانتْ في بنغازي «كازينوهات للرقص» لأنهك جسده فيها حتى الفجر التالي. أخذ يتطلع إلى النجوم عبر النافذة، يكتم في نفسه الرغبة في الركض والصراخ. عيناه متوترتان وقد احمرَّتا كثمرتي فراولة، انتفختْ وجنتاه. كان يكبح العنف في داخله. حمل قلمه وخط

عدة أبيات شعرية قصيرة. لم يكن بوسعه أن يختم تلك المشاعر بختم سحري ليوقفها في داخله. أخذت تنبعث كشرارات وصوت نشيج متقطع، دمعت عيناه لوهلة، أحس بالوحدة الطاغية.

جسده في كامل نشاطه، حزن لأنه سيفسد يومه في الغد، لن يكون قادراً على التصوير. جسده النشط، المنبعث بالطاقة، في تلك اللحظات، سيتحول بعدها بقليل إلى هشيم، إلى رماد خامد، كأعقاب السجائر. حدق في النجوم. تمنى أن تسيل إلى الأرض شهباً، لكنها لم تفعل. عدَّ نجمات صغيرات تتوقد بابتهاج بعيداً عن متناول الروح الحزينة، المكتئبة.

هدأ بصعوبة كأنه خاض مضاجعة هائلة، رضا عميق تسلل على طول جسده باتجاه ظهره، منبعثاً كما بدا له داخل عروقه عبر أجزاء جسده المتعب، دفق منعش مع خدر لطيف أسلمه لنوم متناسق كعنق راقصة باليه. تلاشى التعب كليّاً.

اللحظات تكرر ذاتها.

هل تتكرر بسبب الذكريات؟

اللوحات المصممة بعناية على أوراق A4 الملونة الحواف، الزخارف الأندلسية بكلمات بالخط الديواني تتحدث عن حدائق أشبيلية، الحظ السعيد والجمال المتعلق بالشَّعر الذهبي، قصص عشق ابن حزم التي وضعها بعناية على حواف لوحته ناقلاً من طوق الحمامة تفاصيل العشق، مستغرباً من تلك الأشياء الصغيرة والتي لا تتغير حتى بمرور مئات السنين، الجانب المتكرر من الحياة، ما يجده المرء في كتابات الفلاسفة منتصف القرن عن انتهاء التجديد في الحياة.

كالليالي العربية تمر تباعاً بنفس الشخصيات، القصص المتداخلة تنساب بهدوء، النهاية هي في التوقف، القسوة النابعة من الحزن واليأس، المواقف النهائية بمثابة سمة في الأعمال الأسطورية، تلك الرغبة العميقة في الشيء الوحيد الذي لا يجب أن ترغب فيه، لكنك تفعل؛ لأنه يحمل أمراً مهمّاً تبحث عنه، تفصيل كإيماءة بسيطة، ذكرى بلون الشعر الذهبي، جاذبية قديمة متضمّنة في الأوراق الأولى للحياة الأندلسية. أحياناً كملاحظ دقيق يراه في أحلك اللحظات، أكثر أوقاته ظلمة وصعوبة. تلك الأوقات التي تجعله في استسلام تام لكل عوارض الحياة الصحراوية، للأفكار السوداوية التي تتركه عند حافة الهاوية، ليراها تلمع في لحظات درامية بالنسبة إليه، قد تكون لا شيء للآخرين، تمر بارقة تحمل تلك السمة الشديدة الغرابة والتي تصر على العودة الأبدية.

إنه الحصان الأبيض عند الميناء، الحصان المنهك. تعرف به أثناء حلم متواصل الغرابة، مهشماً ويقطر دماً غامقاً كالأزهار الذابلة، تسقط متكسرة على أرضية عظمية.

23

الميناء البحري المتخيَّل من عام 2007.

الصدأ يعلو كل شيء.

الأفق خالٍ إلا من ثلاث سفن دائمة الرسو هناك، أحياناً تبدو حواف السحب مضاءة، فيما تعبر النوارس بشوق حزين تلك البقاع من الأفق، فاردة أجنحتها المتسخة الحواف، مطلقة زعيقاً يتلاشى مع الرياح بلا صدى. الميناء دمر كليّاً أثناء الحرب العالمية خلال الأربعينيات. عملت الحكومة الليبية في فترة الملك على تسليمه لشركة يونانية سعت لإنشائه من جديد خلال الستينيات.

أثناء هذه المدة شهد تحولات عدة أسلمته في النهاية للصدأ، عقاباً للمدينة التي يحرسها باهتمام، فتحول من مجرد ميناء يعد بالحديد إلى رمز حقيقي لكل ما يحدث في الجوار على مسافة قريبة منه تقف «منارة إخريبيش» ترسل ضوءاً صارماً يخترق المسافات.

كان يلتقط الصور بهدوء حين لاحظ أن الأبيض المتوسط يُلقي بأعشاب بنية غامقة على الشاطئ، سرعان ما تجف لتتحول إلى طبقة كالرماد، تتهشم عند الدوس عليها بخشخشة هوليودية، كالمؤثرات الصوتية في أفلام الجريمة.

قبض على بعض منها. سأل أحد رواد البحر: «ماذا تسمى هذه؟». نظر إليه الرجل متفحصاً لوهلة، قال: «لستُ متأكداً، لكني سمعتُ أحدهم يطلق عليه تفن البحر». هز رأسه متفكراً وهو يحاول التأكد مما قال. ابتسم بشرود وسأله: «لماذا تريد أن تعرف؟». «بدتْ لي غريبة». برر. فتساءل: «حقّاً؟». «هذا ما حدث». برر مرة أخرى. «لا شيء غريباً أكثر من هذا». لم يفهم إن كان ما قاله سؤالاً أم حديثاً اضافيّاً، تركه بابتسامة، واصل مسيره ناحية الميناء وهو يراقب الأعشاب الجافة وقد وجد اسماً لها: «التفن». اسم يليق بشيء غريب يطرحه البحر، لثوانٍ عاد لسحر رؤيته الأولى للبحر.

كان في الخامسة، أخذ يهتف بانتشاء صاخب: «بحيرة، بحيرة». والده خلف مقود السيارة أخبره بأن هذا يدعى «بالبحر»، البحيرة أصغر بكثير من هذا الكم من المياه. لم يفهم آنذاك، ظل يدعو البحر بالبحيرة. هذه إحدى أقدم ذكرياته. يتساءل دوماً هل كان يقلل من حجم كل شيء منذ صغره؟ هل هذا يعني أنه أمر متأصل فيه؟ هل قلل من قيمة الذكريات والأحداث قبل أن تصبح الأحداث مجرد ذكريات؟ هل يقلل من شأن نفسه والآخرين؟ لماذا يفعل هذا بنفسه وبالآخرين؟ البحر ممتد باتساع رحب. توقف عند المنارة وبدأ يلتقط الصور. حين عاد من شروده الإبداعي، كان قد قطع

مسافة طويلة من آخر لحظة كان واعياً خلالها. إنها لحظات شرود قاسية تدهمه أثناء المشي ليكتشف بعدها أنه أقدم على كثير من الأشياء التي لم يكن واعياً بها. لا يمكن أبداً التوقف عن العودة إلى تلك اللحظات، في ذكرياته، لحظات لا يبدو خلال صاحب إرادة حقيقية.

آنذاك رأى الحصان المنهك، محكم الربط بسلسلة حديدية مثبتة إلى وتد مغروس في الأرض بقوة. كل شيء يعلوه الصدأ. وقف في مقابله دون أن يدرك ما أمامه حقّاً. حدق في العينين المظلمتين. الجسد الصلب المتساقط من عليائه. الشعيرات الجافة على الخطم الأسود الأنيق، بدا مثل لوحة استهلتْ من الذاكرة. قوائم صلبة أخذتْ تفقد أغلى ما تملك من صلابة، حوافر مهشمة بلا ألم. كل صورة من هذه ملتقطة بعناية خبير جنائي، كأنه في مسرح جريمة، كل شيء موثق بهدوء، الرافعات بدتْ في تناقض فظيع مع الجسد المثقل بالحزن، الوبر الأبيض القاسي على ظهر الحصان، ذيله النحيل بسبيب أنيق وجميل، بدأ يفقد لمسته القديمة ولمعان زمن الشباب. الترهل عند الصدر، كل شيء كان يتحدث عن تلك السنة المكتظة بالأحداث السياسية.

سحب الصورة إلى جانب الصور الأخرى، مزج الحواف بدقة، خفف الألوان الفاقعة للرافعات، ظلل مخفياً تلك الأجزاء التي علاها الصدأ تماماً كما تُظلل الكتابات الدعائية غير المرغوب فيها والجمل الخادشة للحياء من المسلسلات وتسجيلات برامج الواقعية. كتب في دفتره عن ضرورة إجراء مقارنات بين كل تلك الأجزاء الصدئة وبين الترهلات التي تظهر في جسد الكهل. أعاد الميناء إلى صورته الأولى كما تخيلها بعد الإنشاء والترميم من آثار الدمار الحربي وإلى الجهة نفسها بضوء خافت وألوان أقل، وضع الحصان الكهل وقد عاد جواداً مشدود الجسد. دقيق الخاصرة. مندفع الصدر بثقة كاملة. خطمه اللامع رطب بالطموحات. بدتْ له الصورة مفارقة نادرة.

إعادة كشف مذهلة لما تحمل الصورة الحقيقية من تناقضات رمزية. فالحصان المنهك هو الوحيد الحي القادر على الحركة في محيد الميناء؟ الكسل الناشئ ليس من الحصان الكهل، بل من الآليات المتوقفة. نظرات الحيوان تلوح كثقوب سوداء تسحب لعوالم مختلفة متداخلة وغير متوافقة. كل شيء هنا كان يختلف عن ذاك الموجود في البعد الآخر. بعضها يظهر أكثر طولاً فيما يبدو البعض أقل من حقيقتها. الصورة الثالثة عن نفس الموضوع، بدتْ له غموضاً هائلاً بعد انتهائه منها، تراجع للوراء قليلاً، الليل يقترب من نهايته، النجوم تنبض قلوباً في الخارج، قطرات الندى تتشكل بكثافة وشفافية، الأزهار تنمو بين الصخور.

«الآن تبدو متناقضاً لأبعد درجة، أليس رائعاً ما أنت فيه؟». ملأ الشاشة بذلك الجزء من الصورة، حيث ظهرتْ الثنائية المتناقضة بوضوح ملهم: الشباب الناصع والشيخوخة، الألوان الفاقعة والمخففة بحيث تبدو غير ملونة.

«كأنك أمام مرآة زمنية، لو رأيت نفسك عبر مرآة كهذه ماذا ستعتقد عندها؟ لا بد أنك لن تهتم؛ لهذا تبدو شامخاً، لا خوف من المستقبل في نظرك. أنت اللحظة الحقيقية للحاضر. اللحظة في أصفى صورها، لو كانت للحظات أي صور. حتى بعد هذه السنوات تبدو كما يجب عليك أن تبدو دوماً».

صغَّر الصورة. وضعها في قلب المجموعة. قلب الفسيفساء. «اللوحة الأسطورية» جزء منها بورتريه ذاتي له مع تركيب معقد لعدة صور متداخلة داخل عينيه، حلم أو كابوس مدمى، بحيث تبدو فوضى هائلة. حين توضع مجزأة في إطار الشرائح على الباور بوينت تشرح حكاية يصعب روايتها بخبراته المحدودة في الفوتوشوب، وعدم الفعالية التي يبديها البعض حيالها. إلا أنه أصر على وضع الصور بطريقة خلاقة على الفوتوشوب بالذات، بعيداً عن الشروح الكتابية التي عادة ما يلجأ إليها صناع الصور الرمزية؛ لتفادي سوء الفهم أو توجيه تفكير المتلقي نحو القصة الأساسية.

ترك اللوحة المترامية تعج بالعشرات من الصور المنتقاة، لتحكي عشرات القصص بعشرات أخرى من الظلال التي بدورها تتحول إلى قصص ممتعة. التفاصيل أخذت تزداد في الصورة الواحدة.

لم يعد يحتمل كثافة الذكريات أكثر من ذلك؛ فراح يؤدي بحماس تمارين ضغط سريعة. واحد، اثنان، ثلاثة... عشرين، ثلاثين، خمسين حتى إذا أحس بالإعياء والتوتر.توقف متمدداً على ظهره.

الذكريات لم تفارقه لحظة واحدة. أرقته في كل دقيقة أثناء تمارينه الجسدية. غدتْ جحيماً بالنسبة إليه. الرسم. الصور. التذكر المجهد. الصداقات غير القوية. اللا جدوى من عالمه الصغير الذي لا يستطيع أن يكشفه لأحد، دون خوض التعقيدات. التاريخ الذي يقرؤه بتزايد، بدأ يتركه لمزيد من القصص الخيالية.

تلك الصورة العنيفة التي أتمها قبل أشهر قليلة، أثناء الثورة الجارفة لمشاعره حيال الملك إدريس قبل أن يصبح ملكاً وبجواره إبراهيم الشلحي وهما يتهيآن من أجل الصلاة، في حي فكتيوريا بالإسكندرية، كانا يقفان بأدب جم. بعدها صورة أخرى أخرى للملك حزيناً لأجل الشلحي المقتول على يد واحد من رجال العائلة السنوسية كأن التاريخ يُتَضمَّن في الصور على هيئة تناقضات لا نهائية. التناقضات التي عمل عليها لجمع كل مشاعر الحزن التي يعرفها، بحث في الأفلام المنزلة من اليوتيوب عن كيفية التحكم بالتجاعيد.

درس بعضاً من المقالات حول علم النفس وعمليات التجميل. بحث عن صور الفنانين والمشاهير في لحظات حزنهم الأكثر وحدة، حين يفقدون الأعزاء عليهم، بحثه أوصله إلى تكوين صورة تجمع ملامح «الحزن الملكي»، وضعها في صورة الملك السنوسي، الذي حزن ليس لأجل شخص من خاصته فقط، بل لأن الفكر السياسي أخذه إلى متاهات لم يكن مستعدّاً لها. متاهات أضاعت الدعوة الروحية للعائلة السنوسية. في الجزء الواضح من الصورتين المجمعتين في صفحة واحدة ثمة استنتاج سياسي: الدعوات الروحية تموت بنجاح استقلالها، بأيدي دعاتها.

لا أمل لأية دعوة سياسية بغلاف ديني كما لا أمل للسنوسي في تلك اللحظات، التناقض هو ما قتل تلك الدولة حتى قبل أن يمسها الضباط الصغار. الحزن جزء منه خيبة أمل. الصورة بدتْ جريئة، وضعها في ملف الصور السياسية غير المكتملة.

«التناقض لا يقتلك أنت؛ لأنك لا تهتم بالصورة، لا تهتم باللحظة، أنت فقط لا تهتم بشيء حقيقي؛ لذا تظل القوة الحقيقية معك، لو كنت سياسيّاً، فستحرز نجاحاً ساحقاً؛ لأنك لن تهتم بالأخلاقيات وحكم الآخرين».

هذا ما قاله للحصان الأبيض عبر الصورة.

كان قد اكتشف هذا منذ لقائه الأول بالجواد وقد بدأ يناديه بصديقي.

كان طريفاً بالنسبة إليه أن يدعو حيواناً بصديقي.

أحياناً تكون مثل هذه الأحداث الجديدة متوافقة تماماً مع الواقع، لم يكن ليستطيع الوصول إلى هذا الفهم، باستخدام الكلمات وحدها، اضطر لأن ينتظر عدة سنوات حتى يخترع تلك الصورة السياسية عن العائلة السنوسية، في عمق الميناء والجواد والحزن الملكي.

كان أول «عمل شبه سياسي» ينهيه.

24

منذ بدأ تصميم الصور خلال سنته الجامعية الأولى، صمم صوراً لبعض نجوم الرياضة وهم يدلون بالتصريحات ويلقون التحيات المزيفة لأصحاب محلات ألعاب الفيديو بالبلدة، كما أعاد تصميم صور عن رالي باريس داكار وهي تخترق الصحراء الكبرى. الرمال المرتجفة تحت عجلات الزمن. صور ملتقطة بكاميرات الآخرين. بحث عنها طويلاً عبر صفحات الويب.

كتب عليها دعايات رخيصة لمحلات الصاغة وللباعة الجوالين بأكياسهم الضخمة. رسومات لفتيات الثانويات التخصصية. عروض للدوريات الرمضانية تتضمن بعض المأكولات التي تنعش العروق بعد صلاة المغرب وتلك التي تعيد الحيوية بعد الصلوات الليلية الطويلة. الصور انتشرتْ بسرعة. رونالدو يقف على طريق ترابي ما، يصافح صاحب محل ألعاب الفيديو. فانتازيا تدفع الأطفال لإنفاق أموالهم داخل تلك المحلات الصغيرة، يتلقى هو القليل منها، القليل الذي يمنحه قدرة الدفع لمحل الإنترنت للبحث عن صور تاريخية جيدة من أجل مشروعه الهلامي.

ذات مرة وجد بورتريه رُسم يدويّاً للاستكلندي الميجر لاينغ الذي قتل في الصحراء الليبية بأكثر طرق الاستخباراتية غموضاً. منذ تلك الصدفة أخذتْ الجريمة السياسية تعيد إنتاج نفسها في أغلب أعماله. كان تفصيلاً مدهشاً. أقدم على أكثر عروضه الفنية جموحاً. وضع كل التاريخ أمامه. أعاد تصميم كل شيء. أحيا حسونة الدغيس مجدداً، تحدث معه مطولاً عن الصورة السياسية خلال تلك الفترة الملتهبة. مقتنعاً جدّاً بما كان يحدث. فقدان الواقع. الشمس الراقصة. الحديث مع شخص مات منذ أكثر من مئة وخمسين سنة خلت.

كان يبحث بإنهاك عن الصورة الحقيقية لما حدث فوق تلك البقعة من الأراضي الليبية، تلك البقعة من أفريقيا، قرأ المراجع التاريخية التي كُتبتْ لتفسير المعضلات السياسية. الحوليات الليبية. رسائل القنصل البريطاني حول الميجور المغدور. لم يكن الماضي بأكثر سحراً ونظافة من الوقت المعاصر. كانتْ الحياة حتى هنا وفي هذه اللحظات الأكثر ندرة تعيد نفسها، إنها تقود عمداً إلى التيه؟ قرأ شيئاً كهذا في مذكرات والده. الذكرى ناقوس. والده قتل خلال الأحداث المؤسفة إبان الثورة الإسلامية ضد حكم العقيد الليبي. الجميع يتفادون الحديث حول ما حدث ذلك اليوم، لم يكن يعرف إلا القليل؛ فقد قُتل والده بوحشية على قارعة الطريق. كيف يمكن تخيل حدوث مثل هذه البشاعة؟ فكر طويلاً حتى فقد الأمل في معرفة شيء. لا أحد يتحدث حول الموضوع ولا أحد مهتم بإيجاد تفسير معقول لهذا التصرف البربري. مقتل والده. اضطر يائساً

للتجول عبر البيوت حاملاً عشرات الأسئلة التي لا يجرؤ على طرحها أمام أحد. حين وجد ثيمة «القتل السياسي» مصادفة في طريقه الفني أدرك أنه وجد «السبب الحقيقي» لوجوده على قيد الحياة.

كان محبوساً منذ البدء وموثوقاً بحبل مفتول، الحادثة مضى عليها زمن طويل. حادثة مرتبطة بحوادث أخرى سياسية انتهتْ منذ زمن. الصورة المتخيلة عن الملك الحزين على إبراهيم الشلحي لم تكن إلا صورته الشخصية. التناقض الذي عاشه طوال تلك المدة، الكره الخفي تجاه الدولة القومية والسكوت القسري، كثيرون هم في تلك الحالة.

الصورة عبارة عن أسلوب توثيقي لمشاعره الخاصة.

خلال عقد كامل لم يستطع أن يطلق تلك المشاعر لأحد؟ ظل محبوساً في أعماق ذاته، بشكل ظلامي، مسكوناً بالأشياء الفنية، بالعشق الميت، الحي في قلبه. تساءل لمرات تحت الضغط، في عمق أحلامه: «لماذا يحدث هذا؟». عندها يكون واقعيّاً بشكل يبعث على اليأس. فريسة لأشد ذكرياته جنوناً. ظل يستعيد رؤيته للسروال الجينز في عرض باريسي. ظل يبحث عن وسيلة فنية لتهدئة جنونه الشخصي. الموضة كانتْ تائهة، قبل أن يجمع في شبه متحف باريسي سنة 1989 أي قبل ثلاثين سنة تقريباً. قرأ هذا التفصيل الجميل في مقال فني مترجم. متحفه الشخصي ولد منذ كان في الخامسة. أرشيفه الخاص يضم صوراً عن الموضة والأفكار حتى ذكريات لأشخاص آخرين.

حين شاهد تلك الفتاة وهي تترك القاعة مارة من أمامه، تغير شيء ما فيه للأبد. أحس بالهواء النقي يندفع كرائحة النعناع الريفي. تنفس بعمق كأنه ولد من جديد، ورأى السماء للمرة الأولى بندف كالثلج، ممتدة بسطوع مبهج. كان كل شيء مشرقاً. بحث عنها لمدة شهر، نسي خلالها كل شيء عن نفسه. أحب ثلاث فتيات خلال شهر واحد، ظنّاً منه أن كل واحدة منهن هي صاحبة الجينز الشهواني، ليكتشف فيما بعد أنها ليست هي. كاد يُجن حتى وجدته بنظراتها الباسمة، إنها الفتاة الرابعة، نهاية ذلك الشهر، ولم يبحث عن فتاة أخرى، كانتْ هي، بأجمل ساقين رآهما في حياته، جسد جنوني، بدتْ له نهاية كل شيء غير حقيقي في حياته والبداية الفعلية لكل شيء حقيقي. أدرك أن نجاته تكمن في عمق عينيها. أربكته هذه النظرات الباسمة، أحس بها كإعصار جارف. اختلطتْ أوراقه بشدة حتى فقد اعتداده المراهق وشجاعته الطفولية. انهار ضمن لوحته المصممة فيما بعد كمبنى تجاري ضخم. بدتْ عيناه متعلقتين بالسماء، لدرجة لم يعرف معها أنه سقط في الهاوية اللا نهائية، شيء ما ظل يحاول السيطرة. لم يكن عليه أن يتخذ تلك المواقف الصلبة حتى حيال الفتاة الوحيدة التي أحبها بعمق، لماذا يحدث هذا لبعض البشر، يرغمون حتى على تجاهل مشاعرهم الأثيرة؟ حاول أن يعرف السبب مغرقاً نفسه في موسيقى الراي. مغرقاً نفسه في التساؤلات باحثاً في «عمق الأعماق» عن السبب الذي لأجله يفعل كل ذلك كأنه فيزيائي موهوم بنظرية منهارة أو كممثل فاقد للموهبة من بعد مجد مسرحي.

كان تماماً كهؤلاء

كالحصان الأبيض المنهك الموثوق لوتد صدئ.

أمام ذلك الجواد عند الميناء قال بكل صدق: «تبدو منهكاً يا رفيقي، منهكاً بقدري وأكثر. كلانا منهكان يا صديقي، كلانا متوحدان ومعزولان لا نمتلك إلا بعضنا، أتعرف قد لا نملك حتى بعضنا؟».

تحرك الحصان مقلباً التراب بحوافره المقشرة، تحرك عكس السلسلة التي أخذت تصدر صوتاً كضحكة مكتومة، بدا له الأمر غريباً وممتعاً.

«كلانا نعاني المشكلة ذاتها، أتصدق هذا؟». أضاف على إثرها. حرك الحصان نفسه أكثر في ذات الاتجاه ثم حدق في وجهه. عيناه غطستا عميقاً في عيني الحصان المعتمتين. شعر بتلك اللحظة بينهما تشتعل في صدره. «أجل، نعاني ذات المعضلة، لسنا وحدنا في هذا، قبلنا أشخاص كثر عانوا مثلنا، المتنبي عانى مثلنا تماماً».

نفض الجواد رأسه عدة مرات.

«أبداً لا تستغرب، كان بدوره محكماً في قصر الكافور الإخشيدي كما حبس المئات مثله في قصور فخمة ومدن عظيمة. أنا أيضاً محكم الربط بطريقة لم أفهمها بعد، لكنني محكم كجواد إمبرطوري. أشعر بالذل في كثير من اللحظات كأنني بلا معنى أو كأنني أغمس فمي مباشرة في بقعة مليئة بالأعين المتقززة. آسف، لكنه أمر مذل على نحو ما بالنسبة لنا. كنتُ وما زلتُ محكماً يا صديقي. لست وحيداً على الإطلاق».

كان الحصان قد كف عن الدوران، شرع ينظر مباشرة من فوق كتفه. المدينة الصاخبة، السيارات تعبر مسرعة تاركة الأضواء تنساب برقة في الأثير الذي يزداد إظلاماً. في عمق عيني الحصان لمعتْ أضواء السيارات، هكذا تخيل، حين اقترب ليتأكد أظلمتا فجأة.

«لا بد أنك تذكرت شيئاً». قال فيما أطلقتْ السلسلة صوتاً مكتوماً كالضحكة. «أهي ذكرى مفرحة؟». الصمت يخترق برقرقات المياه حين يتوقف السيل الهادر للمحركات. كل شيء يبدو له مغلَّفاً بنثار سحري كشرارات ألعاب الخفة، البرد يخف، ربما ظهرتْ نجمة وحيدة خلال السماء بسبب الظلمة التي تهبط عند انطفاء أنوار الأعمدة. لتظهر تلك النجمة بمحاذاة الأفق، سماء بنغازي لا تمطر نجوماً، بعكس بلدته الصحراوية، التي تمطر سماؤها نجوماً باتصال كمهرجان قبلي صاخب كما أنها في مهب طائرات العبور الوامضة بأضواء ملونة، لا يرتوي منها مطلقاً، كل ليلة يشرع في متابعة طائرات العبور، يتخيل أنها تخترق الأجواء من أوروبا إلى أفريقيا، وإلى أبعد من ذلك، نيويورك، هونغ كونغ.

وضع هذه الذكريات المصممة إلى جوار الأخرى، أضافها بعناية ضمن عالم لوحته الكبرى، بقيت هناك طوال السنوات الخمس الماضية، كان نادلاً في المقهى ثم أصبح عاطلاً، ثم عالة على أهله بلا مصدر للدخل، ينفق خلال الشهر ما يساوي ثلاثين ديناراً، لكنه لم يترك لحظة بحثه عن صورة جديدة والتفكير في فتح مكتب خدمات إعلانية مجدداً.

لم يفعل مطلقاً.

لم تعد الأمور ميسرة للفهم.

25

كان في مواجهة بعض من رفاقه من الأحياء الداخلية، أصبح الأصدقاء خارج مجال اهتماماته، الكتب، الصور، الجامعة. أحياناً يفكر بفسخ كل صداقاته بأولئك الذين لا يهتمون بالكتب والفن. كان بطريقة ما يشعر على الدوام بأن أحاديثه الجمالية عن الفن والسياسة موجودة في أذهانهم. اقترن التفوق في أنظارهم بالتفوق عليه حتى أصبحت الملتقيات والمجالسة مسألة منهكة للأعصاب، فهناك دائماً حديث جانبي لا يُثار بوضوح، يرد هذا أحياناً لحساسيته الزائدة في التعامل مع الآخرين، لكنه يشعر به على نحو متزايد، حساسية أو غير ذلك، هو يشعر به، لطالما عرف أن مشاعره صادقة. خلال أشهر قليلة قرر أن يعتمد على ما يحس به تجاه الأحداث التي تعترض طريقه.

ضرب عزلة قاتمة من حوله، بذات الهدوء الذي يواجه به مصاعب حياته، نظر إلى نفسه في المرآة –ذات مرة– وجه نحيل، عينان غائرتان، فيهما الملايين من الأحلام الغارقة، محيط آخر لم يُكتشف بعد، أنف دقيق يحكي عن عنف أرستقراطي قادر على محق أغلب الأخلاقيات لولا ذلك الجبين العريض الذي يحوي عقلاً بذاكرة تصويرية هائلة، معبأ بالذكريات والخطط والجمل الحكيمة تلقاها من والده.

تلك الجمل تعاوده أثناء لحظاته الحاسمة، فيحني رأسه، يُفكر باتصال، يغوص عميقاً في نفسه ليحادث كل أوراق والده، المذكرات والذكريات، الأصدقاء، الرموز، كان يرى أجنحة النسور تخفق كرايات إمبراطورية. يخف كل غضبه. يفهم أنه شيء أكبر من كل هذا. أكبر من ذلك الغضب. لن يترك له الغضب فرصة لإكمال مشروعه الفني المتعلق بالتصميم. لم يمنحه هذا شيئاً حقيقيّاً، عليه ألا يغضب. يتنفس بعمق. كما يتنفس الصبح، كما يتنفس الأطفال حين يتعقدون أمام فعل أو قول مبهم. جزء من معضلته في ذاكرته. فهو لا ينسى مطلقاً الأحداث التي يخوضها، تظل موجودة في ذهنه مهما صغرتْ. هنا تكمن مشكلته وقد عرفها بمساعدة عشرات الأفلام الهوليوودية التي اتخذت من فكرة الذاكرة لعبة لها. قرأ ما قاله بورخيس عن صعوبة تلك الحالة. ليتذكر المرء أو أن يحلم بكل ذرة غبار على كل فنجان قهوة كل التفاصيل المتناقضة في الحياة. غالباً ما يتخذ من هكذا مقولات ومشاهد كمراجع واستشهادات وأدلة من قبل رجال معترف بصحتهم العقلية. فكر على الدوام في حل رياضي لترويض الذاكرة ولأن أغلب مراجعه القريبة كانتْ إما أدبية أو سينمائية؛ اقتنع بأن الفن هو «الحل الوحيد».

كان في الخامسة عشرة حين قرر هذا للمرة الأولى. اتخذ من الأفلام موجهاً حقيقيّاً لحياته. تعلم اللغة الإنجليزية بسرعة عجيبة، فهم تلك الأشياء الصغيرة التي ظنها دقائق مهمة لتكوين الشخصية العالمية. الحفلات. أغاني. الملصقات. أسماء

الكُتاب. الممثلون والممثلات. عناوين الأفلام وأجمل المشاهد وأكثرها تأثيراً. الخلاصات التاريخية الحاسمة عن التوتر العقلي. البحث عن الكتب التاريخية التي تتحدث عن أصول الفن، التصوير، ليوناردو دافنشي. كتابات النِّفَّري والملخصات القديمة عن فنون الرسم والألوان والخطوط العربية من أساتذة كابن مقلة كما بحث عن الترجمات لكتب تتحدث عن عصور النهضة الإيطالية والأوروبية. اللوحات المتضمنة في الموسوعات الفنية والتاريخية الكبرى. كانتْ متسلسلة بحسب الأحرف الأبجدية كما عمل على مراقبة صور الأعلام، المشاهير في التاريخ الإنساني؛ لمجرد المتعة الخالصة. كانتْ ملامح الموتى من قرابة مئتي سنة تحمل سمات ذات طابع غريب. سمات لا بد أنهم اكتسبوها بُعيد الوفاة مثل صورة الميجور الاستكلندي ألكسندر غوردن لاينغ المرسومة قبل سفره.

حين يُحدق إليها ينتابه شعور بأنه شخص منذور لحدث تاريخي غامض ومبهم حتى بالنسبة له، كما يجد هذا في صور والده. العينان الحالمتان والسكون يفقدانه أغلب ملامح الحياة الصاخبة، كأنه بلا مشاعر حقيقية تضطرب في داخله. لا تضطرب ولا تنساب، بل خلو كامل من المشاعر. والده في آخر لقاء به بدا مثل شبح من مكان مختلف. شيد سياجاً حول نفسه، عزله عن العالم كلية حتى فقد أحاسيس المشاركة. وجهه في الصورة التي التُقِطَت قبل سفره الأخير بأشهر يجعله شبيهاً بالرحالة الاستكلندي. معزول بالطبيعة. كلاهما قُتل في ظروف غامضة. كلاهما قُتل لأسباب سياسية، مثل المئات الآخرين. الفكرة دفعت الحماس في صدره وجعلت الدماء تغلي في عروقه. ظهر الدم أبيض في لوحاته كرسومات الكوميك. القتلة المأجورون ظهروا بدورهم بأعين تقدح شرراً، لا يمكن تجاهل تلك اللحظات حين يقررون نهائيّاً، عبر تلك الصحراء الشاسعة، وضعهم داخل حلقة دائرية لتتبع الخصم، كان تقليديّاً ومباشراً، بلا اقتفاء لأي أثر ولا ركض للحاق بالهدف أمامهم على الدوام، إنها إحدى أكثر العمليات العسكرية رعباً، أن تلازم خصمك، تراقب كل تحركاته، لتفنيه كأن لم يكن، هذا ما حدث، ضاع بهدوء، تاركاً كل تلك الآمال معلقة فوق سماء تلك البقعة.

هكذا رسم تلك الجزئية من القصة، عشرات الظلال على الرمال وعشرات السحب في الأعلى، كالظلال. أراد أن يضيف الرؤية المأساوية لعملية الاغتيال، لو كان بوسعه استخدام الموسيقى، يمكن أن يفعل هذا في قصة منفردة على قناته باليوتيوب أو خلال فيلم روائي قصير، أما على لوحة أسطورته، فإن هذه القصة تعتبر هامشية جدّاً، إنها لا شيء بالمقارنة مع هدفه الأسمى، إنها ليست إلا قصة مساعدة تشرح ما يعتمل في قلبه، ربما كان ما كتبه القنصل الإنجليزي عن غوردن لاينغ يشرح القليل حول التيه، بسبب خيبة الآمال الكبرى التي تعقد على شخص من هامش الإمبراطورية، نصف منهك ومريض جسديّاً.

النبوغ الذي يُدهش قلب الفنان حتى ينسى تلك الآلام الوجودية، بعدها يصبح شاعراً ليشرح عمق المأساة. ضمن لوحته الغامضة عن القتل السياسي، وضع تلك الأيام الستة التي مرض أثناءها «الميجور في سيراليون» وهو في طريقه إلى معسكر زعيم أفريقي لإنقاذ روح زعيم أفريقي آخر بداعي الوفاء؛ لتعاونه الكامل مع الملكية البريطانية. كل التفاصيل تحفُّ

بالصورة الكبرى كأسطورة شمالية بحتة. جمع القتلة على هيئة ملائكة بحسب الرؤية المسيحية، أطفال بنظرات لا تحمل حقداً، بل يعملون كأنهم يقدِمون على واجب مقدس من قبل جمعية سرية من دعاة دينيين كبار.

كانتْ تحركاتهم الأسطورية تُماثل الرقصة الشمسية. الملاحظة الصعبة تحتاج إلى نظرة فاحصة لرؤيتها، إنها تحتاج إلى عين مدربة لترى. الأسنان الحادة كأنياب بيضاء تجعلهم أقرب إلى مجموعة حيوانات مفترسة، بصفات مضافة بالرؤية المسيحية التي تخيلها من دون مساعدة. هكذا أراد أن يبدو المشهد. أيقونات أرثوذكسية في الصحراء. من بعيد تبدأ الرمال بالتحول. نباتات غريبة الشكل تنبت. شيء غير طبيعي. يحدق الميجور الاسكتلندي نحو السماء ليرى ترسبات طفولته. القصائد اللاتينية المنسوخة من المواقع. الهمسات الرقيقة كأغاني أسطورية من الصحراويات المحاربات. بدأ يستسلم بهدوء للوهم. لن يحدث شيء آخر. القتل نفسه مجرد حدس وتكهن. لا يمكن رؤية أي سلاح. فقط دماء بيضاء تنساب فوق الرمال. لقطة سريعة حشدها ببراعة في مساحة صغيرة جدّاً، تعج بالتفاصيل، كالرسوم اليابانية، تحدث عن أجداده. قصة الاسكتلندي دفعته لتصميم تلك القصة عن المجاعة.

عندما تاهت العائلات التي تركت الواحة، بدأ الأطفال يصرخون من الجوع. النسوة أنهكن أنفسهن من القلق والحزن. عندما ظهرتْ براعة الجدات في تذكر الأساطير القديمة. حين ضرب الجوع قديماً تلك البقاع. يقال إن أمراً غريباً حدث. جمعن ثمار الحنظل، فبدأن بتفتيتها، أخرجن بذورها، كانتْ تنضح بالمرارة، تلك الفسحة التاريخية الرهيبة، بين صرخات الأطفال والحزن على فراق الأحباء، تم تكديس تلك المرارة القاسية وتحويلها إلى مادة يمكن أكلها، ذات طعم ساحر حين تُضاف بعد طحنها إلى عجين التمور المتبقية من الأعوام السابقة.

في صورته الخيالية تظهر عجوز حكيمة ومنهكة تأخذ كرات الحنظل، تفرغها لتجمع بذوره بدأب وكد، تصنع منه تلك المادة المنزوعة القوة والمروضة الطعم. بطريقة ما كان يستفيد من وجه العجوز التي قابلها في العيادة، شيء من التعاطف، بدا له تحويراً للأحداث، لكنه تناول من تلك الأكلة في حياته مئات المرات حتى إنه لن يصدق أن الحنظل مُرٌّ كما يدعي بعض الشعراء.

هل كان ذلك قبل ستة آلاف عام؟ الحياة كانتْ مغايرة آنذاك. الإبداع كان مذهلاً لأجل العيش. يُحدث تغييراً حتى الأعماق، ليتحول كل شيء في الخارج. أن يسلب من الحنظل مرارته بأسلوب شبه فني. فكر مراراً في تصميم هذه القصة الشخصية ضمن سلسلة من الصور.

26

على الحافلة سنة 2007 كان غارقاً في محاولات لفهم التفاصيل القومية، بعد التحقيق معه من قبل القوميين. كان يفكر بالذات في تلك اللوحة حين تعرف بالمسن السبعيني، بدا في مرحلة إنكار للذات بفرملته حائلة اللون وبذقنه النابتة.

«كانت الحياة بسيطة في السابق، لم تعد كذلك، مطلقاً لم تعد بسيطة».

«لا شيء بسيطاً».

«أترى؟». هكذا غدت الحياة بلا هدف.

«كيف؟ ماذا تعني؟».

«في السابق كنا نعرف ما نريد، كنا نريد تأسيس عائلة، تحترم آباءنا فنحلم بدورنا أن نكون آباء يحظون بالاحترام، هذه الأيام كل شيء تغير، لم تعد الحياة مفهومة».

على الحافلة، المطر ينهمر، الدفء يشيع كحكاية شتوية عند المدفأة. نظر إليه لوهلة ثم جعل يتابع المدينة من خلال الزجاج، أنفاسه ترتسم بحرارة على الزجاج الجانبي، خط عدة أحرف، كانتْ شعاراً له أيام الجامعة، عرف أنه فريسة شرود حقيقي، أصابعه تعمل بشكل آلي، تخط تلك الأحرف مراراً، بخار تنفسه يعيد محوها بطبقة بيضاء، أصابعه تعمل على خطها بدقة. تمدد على الكرسي. الحافلة تنساب عبر الليل الهادئ نحو وجهتها، الموسيقى المروكية تطوف كلمسات رقيقة للروح. فغرق عميقاً في ذكريات أبعد، إنها إحدى اللحظات التي تشابه الدمى الروسية، ذكريات داخل الذكريات.

في تلك الليلة، أمام تفاصيل لوحته الكبرى تذكر أنه غرق في 2007 في ذكرى أكثر قدماً. كان طفلاً يجاهد لصنع سيارة سلكية. الأسلاك لا تطاوع يديه. أصابعه لا تعمل على إخضاع السلك الصدئ، كان يشده بعنف، عبثاً يحاول أن يكون محترفاً كما هو ابن عمه، الأكبر سنّاً. الأسلاك دوماً تُظهر اعوجاجاً واضحاً للعيان. هناك صورة لسيارة سلكية مُثلى في ذهنه، لم يستطع وضعها وصنعها كما في ذهنه. متذكراً تلك الأيام يجد نفسه تائهاً في منتصف النهار، قبل سنوات طويلة في حلم **تازري** متوهج. السير في تلك الطرقات الترابية، أن يكون موجوداً في تلك الأزقة حتى بالتخيل، حدث سحري. واقع محيطه ينبذ مسيرات عاطفية كهذه، إنها مشابهة لمسيرات العار التي يُخضع لها قادة الشعوب المهزومة.

«كنت أحمل صليبي». هكذا يردد كأديب من الستينيات. مجموعته الصورية متميزة حيالها. التعريفات بالنسبة إليه مرتبطة بشكل وثيق بالواقع الاختياري، كالتعامل مع مرارة بذور الحنظل. توجب عليه أن يُبدل «خصلة ما» أصيلة في

الواقع وإلا فهو لا شيء. فكر أنه بحاجة إلى إسكات تلك النقاط البربرية الجامحة في دمه! هل هو مكتئب حتى يصف ذاته بالبربري؟ السر الروماني هو ما خلق هذه التسمية في السابق، السور نفسه ضمن لوحاته، فلِمَ يستعمل هذه التسمية الآن؟ أيشعر بالتناقض لأنه يستعمل فنّاً غربياً في التصوير؟ هذا غير حقيقي، فالصورة عرفها أجداده قبل ذلك. رسم الحيوانات على الكهوف للسيطرة عليها كما يفعل هو تجاه الحياة، رسم دقائق الأشياء للسيطرة عليها. هل هو منشق؟ ربما شخص مثله يجب أن يعيش في عقاب أبدي داخل أفكاره التي لا تكتمل في أعين الآخرين، بين رسوماته التي ينهيها لنفسه. دون أن يجد تلك اللحظة المثالية للتوقف. الذكريات المتدفقة. المشاعر تزداد على الدوام. لا يمكن التوقف عن التخطيط بالرسم.

«لم تعد الحياة كما هي، علينا أن نفهم هذا ونترك أنفسنا كالقمصان المعروضة للشمس، لتفعل بنا الحياة ما تشاء». انسياب المياه على زجاج الحافة مشابه لانسياب الدموع.

«أتبكي أيها المسن، أتبكي؟!».

«يجب أن أبكي، لا شيء أفعله بعد سوى البكاء، ضحكتُ كثيراً، كما يضحك شبان هذه الأيام، ضحكات أكثر رجولة وفحشاً، يجب أن أبكي بقدر ما ضحكتُ. هكذا هي الحياة، أتفهم؟ كل شيء واضح بالنسبة لي».

تذكر كل هذا أيضاً، كانا على المقعد الخلفي. لم ينس لحظة واحدة. لم يكونا يمتلكان سوى ذلك الكرسي لوقت محدد. أخذ يتحدث بأسلوب أشبه بالاعتراف عن الحرب العالمية الثانية: «شوارع بنغازي خلت من الجميع، الأهالي تركوا المدينة بسبب القصف، خلال الأربعينيات كنا مشردين، الأوروبيون يتقاتلون فوق الطرقات التي شقوها، نراقب كل شيء بصمت، وقد خسرنا كل شيء مهم. بدتْ الحياة كأنها وصلتْ للحضيض، ثم لا نعرف كيف حدث ما حدث. أخذت الحياة تعود. لا أبي عرف ولا جدي كان ليعرف. الحياة عادتْ سريعاً كأن الحروب كانتْ مزحة حتى لم نعد نجد أي أثر ظاهر للحروب في نفوس الليبيين. الأمر مذل حتى الأعماق. كيف ينسون تلك الجراح؟ كيف يتجاهلون الصداقات التي أخذتْ تنشأ بين أعداء الأمس والحكام؟ كنتُ في بلدتنا الصغيرة، حين أخذتْ الأنباء تتواتر عن عودة المستثمرين الطليان إلى البلاد. كان حدثاً مزعجاً لأغلب القبائل. شعرتُ بأنه يتوجب علينا أن نثور ضد الحكام لنحطم كل شيء حتى جماجمهم. كل شيء أصبح للبيع، كأننا نعيش فيلماً آخر من عصور الاستعمار. كل شيء قابل للبيع. كل العائدات ترجع إلى الحسابات الأمريكية. هوليوود عالمنا الجديد. جندي إيطالي يطعن قلب مواطن ليبي، بحربة بندقيته حتى ظننتُ أن هناك ولعاً خاصّاً أقرب إلى الهوس لدى الطليان لغزو الليبيين، هل هناك هوس من هذا النوع؟! فقدتُ جدي عقب الاحتلال الفاشي للبلدة خلال ثلاثينيات القرن الماضي».

شرح باستفاضة عن تلك الصور.

كان الجيش الإيطالي قد أعدم العشرات من الرجال والنساء، قصفوا المنازل الطينية الآمنة، كوَّموا الجثث والتقطوا الصور التذكارية. قامت فرنسا بوضعها كالطوابع البريدية، منصات إعدام بالجملة، الطوابع الفرنسية تُظهر مجموعة من

الليبيين أسرى لدى الجيش الإيطالي، برؤوس منكسة وقد ربطتْ أيديهم إلى الخلف بانتظار المصير المحتوم، مشاهد دائمة للإعدامات الجماعية، مواطنون يُساقون مكبلين إلى ساحات المذابح.

«العشرات من الصور التي جمعتها موجودة عندي، تستطيع استخدامها في تاريخك الفني. بوسعك أن تفهم منها أمراً ما، ربما تصمم بواسطتها لوحة تاريخية كما فعلت مع القرمانلي، لكنك تنسف كل هذا بدحرك للقوات العسكرية الإيطالية من على الشواطئ الليبية، لماذا فعلت هذا؟ لأي سبب؟ هل لأنك تعاني مشكلة مع التاريخ؟».

لم يجب، لم يتكلم، لا ثقة.

فكرة نسف الجهاد أمر يسكن التاريخ الليبي على الدوام، كالصور التي يمحوها بسبب عدم دقتها في أحد التفاصيل، الحقيقة والخيال أمران بلا هدف في عمق الصورة، إنهما مثال بسيط لتناقضات الإنهاك لديه بمثابة اختصار لكافة التوجهات النضالية ضمن تحرك قَبَلي معين، الزعيم يرى بأن جده هو فقط من قاتل وأن الجميع كانوا محض هاربين من أمام الجيش الإيطالي، آخرون ينسبون جهود القتال لأشخاص محددين، ينفون جهاد شعوب كاملة موجودة في المنطقة ولديهم قادة رفضوا حتى توقيع اتفاقيات السلام مع المحتل. اتفاقيات لولا الحرب الثانية، لَسُلِّمَت البلاد على طبق من ذهب للاستعمار وفقدان الهوية.

«هل شعر برغبة في دحض كل تاريخ الجهاد؟». سأله المسن.

«لا. صورة الجهاد نفسها تبدلتْ، لم تعد هي مقاومة الطليان، فقدتْ ذاكرتها القديمة، كل شيء يفقد ذاكرته، دوري هو المحافظة على ذاكرة التاريخ».

«بنسف الاحتلال؟».

«بجعله أسطورة بخصائص فنية».

«أرأيت؟ لهذا السبب بالذات أعطيك هذه الطوابع».

كانت خمس عشرة بطاقة بريدية صغيرة، تفوح منها رائحة القدم والتاريخ، جمعها خلال مسيرته الخاصة باعتباره مناضلاً ثورياً. أخرجها من جيبه ملفوفة في كيس بلاستيكي مخصص لحفظ البطاقات الشخصية ثم كيس آخر يحوي صوراً لبعض أوائل الأساتذة في تاريخ البلاد من سنة 1911 حتى السبعينيات، تأملها باهتمام ووضعها في جيبه، كل واحد منهم يشبه الروائي البرتغالي خوزيه ساراماغو، بصرامته في الوهلة الأولى متصلبون داخل زمن تقع خلاله الأحداث للمرة النهائية.

27

حين روى لها قصة «مقتل البيضاء» أحس بتأثرها الشديد، بالنسبة إليه ظل الحدث مأساة وقعتْ بحسب القصص المتداولة بالقرب من مكان ولادته، قبل نصف قرن من ولادته؛ لذا فإنه عاش ضمن تفكير متناقض، بين الغضب والصمت. اكتشف خلال الفترة الأخيرة أنه يرى في مقتل البيضاء رمزاً يمكن استخدامه لإثبات التشوه الأخلاقي للمجتمع بأسره؛ بسبب تبريرهم لتلك الجريمة التي وقعت أمام أعينهم. في صورته التجريبية خلق تفصيلاً آخر لم يكن موجوداً في الواقع، تفصيلاً غامضاً من واقعه الخاص، يظهر داخل اللوحة: طفل على هيئة ظل.

سعى مراراً لجمع تفاصيل هذه اللوحة الشخصية، ظلت بين مخططاته، وفي دفاتر يومياته كاملة ونائمة بهدوء الأميرات، حتى ذلك اليوم الذي قرر فيه استنهاض جميع ذكرياته، كان بحاجة إلى حافز سياسي، لديه فكرة عن كون السلاطين سبباً لبدايات هذا الجنون، عمليات القتل التي تبدو عشوائية، من أجل إخضاع المجتمعات؛ لأنها تحمل الطابع التكريسي التقديسي ذاته الذي يسم بقية المحرمات القبلية، أن يكون وراء هذه الأفعال الشنيعة والمشينة طابع سياسي له علاقة بالسلاطين- شيء مقبول تماماً بالنسبة إليه؛ لأنه يمكن إلغاؤه بفعل سلطاني. خلال عمله على لوحته، واصل التفكير بأنه رد فعل سياسي تجاه تلك الطبقة من المجتمع، لأسباب مجهولة، لم يكن يهتم بالأسباب.

مع مرور السنين ظل التخطيط تائهاً بين الظل والمشهد الحقيقي، بين البقاء بعيداً أو التورط العاطفي في المشهد، ظل مصاباً بالشلل المعرفي إلى أن وجد لوحة «إيفان الرهيب وابنه إيفان» بدا كأنه اكتشف تلك الحقيقة بين المشاعر ضمن المشهد وبين الحكم الخارجي من قبل الفنان، في تلك اللوحة تناقض غريب، أشياء كثيرة تظهر بغموض فيها.

النظرات الذاهلة، الدمعة الحزينة، الأعين التي تبحث في الفراغ، الصراع الرهيب الذي وقع بين عالمين مقربين من الداخل، لا يمكن أن تصل إلى حدود الكراهية المطلقة؛ لذا وقع المقتول في حضن قاتله، بل هناك طبيعة مختلفة كانت تقاتل لحماية أشياء هي أقل قيمة من العلاقة التي تربط بين المتقاتلين، لم يكونا مجرد أب وابنه، كما لم يكونا إنسانيين في تلك اللحظات التي سبقت وقوع الصراع. هناك دافع آخر يتحكم بهما، كانا منصاعين له أكثر من طبيعتهما الأولى.

في صورته لم تكن مشاعر الناس في طبيعتها الأولى، الفقدان أمر وجودي كما أن إيفان الرهيب ليس إلا تائهاً تاريخيّاً، منذ البداية فكر دوماً بأن كل ما حدث متعلق بالسياسة. عثر على راحته في نظرية التورط السياسي، استقرت فيها كل تصوراته حيال مقتل البيضاء، رسم طفلاً في اللوحة دون أن يبالي بالتورط العاطفي؛ لأنها مسألة متعلقة أساساً بالتورط، الطفل كان هو والده، ليمثل الفكرة المشتتة والتي لا يستطيع فهمها جيداً.

كيف يمكن له أن يكون هناك، وسط الحفل، حيث الابتهاج الجنوني، ملابس البيضاء المخصرة، لفتاة في ذروة حالات الرقص ثم يظهر رجل غامض بقتلها لدواعٍ سياسية، كيف يمكن؟ طفل على هيئة ظل في زاوية اللوحة. ظلت تلك الفكرة ناقصة بالرغم من كل التفاصيل في حياة إيفان الرهيب، ثم عثر من أحد المواقع الفنية على لوحة «إعدام الليدي جين غراي» للفنان الفرنسي بول دولاروش. إنها بالضبط عكس لوحة ريبين، فيها تدخل واضح من قبل الفنان الفرنسي، ضد حدث حقيقي من التاريخ الإنجليزي.

داخل غرفته، في تلك الليلة، قضى وقتاً في محاولة استعادة ملخصاته عن تلك اللوحة؛ ومن ثم ربطها بلوحة ريبين، وأخيراً إيجاد المفقود من لوحته. أدرك بأنه يسعى للكمال المستحيل، إلا أنه أدرك أيضاً أنه لو وجدتْ البيضاء فرصة لمعرفة مصيرها؛ لاستجدتْ مثلما فعلت الليدي غراي، ربما كان في استعطافها ما يثير المشاعر، عندها كتب في دفتره متسائلاً بتشكك إن كان الاستعطاف سيفيدها، في الغالب لن يفيد، كتب هذا أيضاً، كلما استعطفت أكثر كلما غدا أسلوب قتلها أبشع.

تطلَّع مراراً في لوحة دولاروش، رأى الجلاد، والذي لم يبال بالسيدتين الباكيتين ولم يبال ببراءة الضحية، المعصوبة العينين، بقماشة بيضاء، لا نوايا سيئة في قلبها وفي نظرتها للأمور السياسية، وهي مندهشة من أنها ستلقى حتفها، اللوحة بشعة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، الموت بلا سبب، كون أصحاب الأمر السياسي غير ظاهرين في اللوحة، إن كانت اللوحة لفنان مجهول، لو عثر عليها وكان الناس لا يعرفون بقصة الليدي غراي؛ لكان الانطباع الشخصي مختلفاً، ليس هناك مبرر واضح لقتلها، ليس هناك سبب يدعو لذلك، لن يعرف أحد السبب الحقيقي، ستغدو اللوحة غامضة، كابتسامة موناليزا. في لوحة ريبين كل شيء واضح، شخصان تصارعا وقتل أحدهما الآخر، خطأً، والقاتل نادم وهو يبكي، الجميع سيعرفون أن أباً قتل ابنه، حتى لو لم يعرفوا إيفان الرهيب وقصة مقتل ابنه تاريخيّاً، إنما الليدي غراي، فإن قتلها بشاعة رهيبة، وهو تورُّط عاطفي واضح في اللوحة.

هل قصد الرسام الفرنسي فعل هذا؟ إنها لمسة رائعة منه، ذكاء حقيقي لإظهار بشاعة ما وقع، يكفي أن يشعر الناس بأن القتل لم يكن له من داع. حاول إيجاد أسلوب مشابه أثناء إعداده لوحة مقتل البيضاء. لم يجد إلا إيفان الرهيب والليدي غراي من أجل إتمام لوحته الخاصة؛ لأنهما تحتويان على الإنسانية الكامنة والبشاعة المرعبة.

عندما شرح لفتاته كل هذه التفاصيل الجنونية، خلال جلستهما التي ازدادتْ حميمية، واصلت التطلع إليه وهي تحرك رأسها إلى الأعلى والأسفل، متفهمة سبب تشتته.

«هل تعاني هذا مع كل لوحة؟». سألتْ.

«تقريباً». قال.

«أليس هذا مبالغاً فيه؟».

«حياتي كلها مبالغة مجنونة». ضحكت معجبة.

كانت هذه إحدى الجُمل التي يظل يكررها على مسامع المستغربين من استغراقه في لوحاته. أثار إعجابهم في وقت ما، تلقى عدة رسائل من الغرباء وإطراءات من الأصدقاء، الذين ظن أنهم صاروا يحبونه أكثر.

«كيف واتتك هذه الفكرة؟».

«ليست مجرد فكرة». كان يجيبهم.

«مهنة؟».

«لا موهبة». قال متفاخراً: «لم أتعلمها لأجل المال، جاء المال لأنني أمتلكها».

عندها ترتسم علامات عدم الفهم على وجوههم.

«أليس رائعاً أن تجد عملاً مريحاً كهذا؟».

يبتسم في العادة.

«اختراع عمل أسهل من إيجاده».

يتواصل الضحك.

في النهاية تكون التسوية غالباً بسلسلة مزحات أخرى. بعض الجُمل الصغيرة قام بنحتها بأسلوب فكاهي لإبعاد تلك المشاعر السلبية والمضادة للإلهام والتي لا يتحملها مطلقاً ويعتبرها فيروساً مدمراً لموهبته، الشكوك!

حين يتحول الحديث إلى نوع ممل من الإسفاف تجاه ما يفعل، فإنه يغدو أكثر تقريرية، يوضح لهم بالأرقام المكاسب المادية، يتحول لشخص مختلف، كأنه يقرأ من يومياته من تلك التجارب التي مر بها ولم يعالجها جيداً في الواقع، من ثم يضع لها بدائل متعددة على ورق اليوميات، إنها تحتوي على الخيبة، وأساليب مذهلة لتفادي تلك الخيبة.

مع إنه يظل يعتقد أنها تكتب لتبقى بين الصفحات، إلا أن الواقع يؤكد أنه يستعملها خلال اللحظات الأكثر توتراً، أثناء تصميم لوحة ما. كان يبدو مجيداً فيما يفعل؛ فهو يفعلها بسهولة، وبالدرجة المطلوبة من الإتقان، وبالاستمتاع والتجاهل اللازمين لإنهائها، في يومياته كان يضع تصنيفاً للشخصيات التي يُصادفها داخل مجتمعه الصغير والمضطرب. البعض لديهم إمكانيات تفوق القدرات المتاحة لهم.

من بعد الأحداث السياسية الهائلة شرعت تلك الشخصيات السطحية في الظهور تباعاً بأسلوب الثمار التي تطفو حين تغمرها المياه، لكن فيها شيء فاسد وغير نقي، تظل على الواجهة حتى يظن الناس أنها جيدة، ثم يكتشفون أنها مجرد ثمار فاسدة، فيبدؤون البحث ضمن العمق. في رؤيته داخل تلك الغرفة شبه المعتمة، هو يفوق ذلك العمق، رسوخاً. وأن ما

يبدعه أمر يفوق مجتمعه المادي بأسلوب مضحك للغاية، حتى إن التفسير المتاح للرأسمالية في ذلك المجتمع مشوه بشكل بغيض. إنهم يدركون بطريقة ما أنها الوسيلة الجيدة للعيش، إنما هم يدركون هذا لسبب واحد، أمام المرآة أعلن هذا السبب، ليرى وقعه قبل أن يضمنه لوحته الكبرى، مجتمعه يفوق أي مجتمع آخر في الجمود والأنانية.

كان بوسعه أن يفرد لوحات كثيرة في تكسير أخلاقيات الأنانية والجمود داخل مجتمعه وسيكون أكثر وحشية، ولن يستخدم الفكاهة مثلما فعل «محمد الزواوي» فأفكاره تعتمد على الأساطير الشعبية أو تحويل الصورة العادية إلى أسطورة ضخمة، يجمع عناصر الأسطورة المعروفة بالنسبة إليه، في المساحة الضيقة للوحاته، لتتفجر عنفاً في الأغلب، فحجر الأساس في عمله هو الكشف عن أقرب جريمة سياسية للوحة، إنها جريمة حاضرة على الدوام.

ففي سنة 1996 استيقظ على خبر مقتل والده، خلال إحدى عمليات التمشيط في أحياء مدينة أجدابيا.

الجرائم السياسية، دوماً قذرة.

28

كان صغيراً، مبتهجاً وفيه جزء من المأساوية، في مكتبته الخاصة حوالي ستة وسبعين كتاباً، أغلبها عن العصور النهضة، مقتطفات من أسرار دافنشي، وتخيلات مايكل أنجلو مع العشرات من القصص السياسية، التي ربطت الفنانين بحكومة عائلة ميديتشي الفلورنسية، حبّاً أو كرهاً، عدة مجلدات مخصصة لهذا الموضوع مع كتب تشارلز ديكنز للناشئين، لوحات معبرة عن بعض مشاهد في الرواية، دايفيد كوبرفيلد، أوليفر تويست بلغة مبسطة من منشورات بنغوين، مع القصص الأخرى التي تتضمن رسومات أنيقة بخطوط سوداء رقيقة، كالرسومات اليابانية عن هروب الغزلان وشوق الأباطرة للمحظيَّات المغنيات وسط المعارك النهائية التي تنذر بسقوط الإمبراطورية.

تفاصيل صغيرة تم رقنها في الكتب عن الشعب الصيني كما كانت لديه مجلدات تاريخنا للصادق النيهوم، يُطالع الصور المستمدة من الموسوعات العالمية الكبرى عن القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين، ورسومات رافائيل ودافنشي وفان غوخ مع الصور المتخيلة لبعض الشخصيات التاريخية مثل خير الدين بربروسا وتحطيم البوارج الأوروبية، بتلك اللحية الحمراء كضوء الغروب وبعض من الفنانين الصغار الأقل شهرة الذين تخيلوا مشاهد أكثر جمالاً عن التفكير البشري العادي، بطل دوستويفسكي المراهق وهو يصر على عدم أكل الكثير والاكتفاء بالخبز والملح، جنود طليان يأكلون السباغيتي مع اللحم المفروم قُبيل انسحاب عسكري شهير بين صفحات «وداعاً للسلاح» لإرنست همنغواي.

قرر جعل الأدب صوراً في لوحاته الشخصية، لم يكن مولعاً بالبورتريهات الذاتية فقط، إنما كان يضع في لوحاته الأولى كثيراً من قصصه اليومية، حتى إن البعض رأى في هذا التصرف أنانية مفرطة، مثل ممثل لا يقدم إلا شخصيته الحقيقية، لم يهتم بهذه الآراء بقدر ما كان يتابع ردود أفعالهم أثناء مشاهدتهم للوحاته، فالرأي في الغالب لا يوازي المشاعر الظاهرة في الوجه، إنها تتبدى في الوجه، في العينين وفي حركات اليدين الدائرية والتشتت العام من الاندهاش. تلك اللحظات هي الأكثر أهمية في نظره، يظل يُحدق في وجه المتابع للوحاته ملتقطاً ردوده الصادقة فحسب ولا شيء أكثر. الرأي ليس إلا أسلوباً دفاعيّاً، في حين التعابير العفوية تمثل الحقيقة الساطعة في معرفة رد الفعل.

ما كان يؤرقه هو عدم معرفته ردة فعله الخاصة يوم سماع مقتل والده. غالباً ما كان يحلم بتلقي الخبر على نحو دائم يرى نفسه غارقاً في الضحك الهيستري. بدا له مثل هذا التصرف مرعباً، أن يضحك بشدة لمقتل والده، وتلك البشاعة التي سمع الناس يتهامسون بها داخل كوابيسه. كان يبدو له أشبه بإيحاء جهنمي فعلاً.

حين يستعيد هذا الكابوس، يغرق في محاولات يائسة من أجل رؤية ذاته الحقيقية. حقيقة ما فعله يوم تلقيه الخبر. كان يعرف ما ينقصه، ليس أسلوب التذكر المعروض في أفلام هوليود التي يدمن متابعتها، إنما بالأسلوب الشخصي الذي لا يظهر إلا في الأفلام الرخيصة، حينما يظهر الشخص المتذكر كأنه يسكن الكاميرا، كأن العدسة التي يشاهد بها المتلقي هي عيناه، تلك الذكريات تحدث مجدداً في مجال عينيه، هذه الاستعادة تسمح له برؤية مشاعر الآخرين داخل أحلامه، ضمن أعينهم تتوالد مجدداً تلك المخاوف إلى جانب الحزن العميق في النفس، ينظرون إليه ويقفون لمصافحته في اعتدال، يشدون على يديه حتى يشعر بعظام أصابعه تحتك بخشونة، هذا ما يؤكد أنه لم يضحك على الإطلاق، وأن حلمه المتكرر محض كابوس غير عقلاني.

فيما بعد أدرك أنه كابوس يليق بمطالعاته، فهو بلا شك نابع من تفاصيل حوارات إيفان مع الشيطان. كان في الرابعة عشرة حين قرأ هذه الصفحات. آنذاك لم يعرف عنوان الكتاب، وجده مع كتابين آخرين بلا أغلفة ولا عناوين، كان نصف المتن موجوداً، ثم أدرك ماهية تلك الكتب عن طريق «الصور الذهنية» التي التصقت بمخيلته. كتاب البؤساء. الجزء الرابع من الأخوة كارامازوف الذي يحتوي على حوارية إيفان الملهمة مع الشيطان. الكتاب الثالث كان أجزاء من رسائل إخوان الصفا، اهتم بها كثيراً قبل أن يفقد حماسه في منتصف العشرينات من عمره؛ لأنه لم يكن يعرف قيمة مشاعره الخاصة أو ردة فعله تجاه القضية الأهم في حياته.

إنها تلك الفترة التي بدأ فيها البحث عبر الإنترنت عن الفنانين الذي فقدوا آباءهم أثناء الطفولة. كان يقرأ المقالات المكتوبة عنهم، رواياتهم الموثقة على أمل أن يجد ما يُعيد إليه روحه التائهة، كان يتطلع إلى صور والده، متذكراً رحلاته خلال الصحراء، ابتسامته، باحثاً عن تلك الذكريات التي تجمعهما.

تلك العوالم موحدة تماماً بحيث لا يكون قادراً على فصلها عن بعضها. قضاء الوقت على جهاز الكمبيوتر ليس إلا رغبة ملحة ومحاولات حثيثة لفصلها عن عالمه الخاص، وهي مهمة أشبه بشخص يُخرج نفسه من زنزانة ألد أعدائه باستخدام ملعقة صغيرة، ليست جنوناً أو تصرفاً مبالغاً فيه، بل ببساطة شديدة هي محاولة يائسة لنجاة من واقع مزعج.

ذات مرة سأله أحد الأصدقاء: «ماذا تعني هذه الصور؟».

«تعني أن العطلة ممكنة». قال بعفوية.

«كيف ذلك؟». عندها مال نحوه بهدوء، فرد أصابعه ثم شرح واصفاً: «أنت تعمل في مجال المناسبات، مجالك صعب للغاية، أدرك هذا، تقضي الوقت من أجل إرضاء رغبات متناقضة، هناك أفراح، أعراس تتطلب خياماً لها كما أن هناك في نفس الوقت مآتم تحتاج إلى خيام خاصة بها، أنت توفر للاثنين، تقدم لهم طلباتهم بصمت تام، لكنك تظل دوماً موجوداً ، لك دور في الفرح ولك دور في الحزن، دون أن تكون جزءاً منهما، إنما تظل مشاركاً فيهما. هذا واقع لا يفهمه كثر، يظل مقلقاً بالنسبة إليهم، تلك النظرات الصغيرة القاصرة، لمدى فاعلية ما تقوم به اجتماعيّاً، شيء من الأحقاد، كثير من

النكات السمجة، إنما أنت فقط تؤدي عملك». كان يستمع إليه باهتمام عندما أضاف: «مهمتي أن أكون هناك في اللحظات التي تحاول فيها الاسترخاء وأمنحك عالماً مختلفاً، رفاهية هادئة خاصة بك وبمشاعرك، أنا بالنسبة إليك شخص يقول لك: تلك النظرات القاصرة لا تعني شيئاً، العطلة دوماً ممكنة». هز رأسه بتفهم في حين أضاف هو: «هذا ما تعنيه أعمالي». صمت استمر للحظات ثم قال بعدها: «أنا فقط أؤدي عملي».

«عملك يبدو غريباً». قال صديقه متفهماً: «لكنك مُجيد فيه، تجني المال وهذا يكفي».

ابتسما معاً في ذلك اليوم. هكذا أحاديث عابرة في حياته، تعيد له السكينة كما أنه يعيد تذكرها بعناية ومن عدة زوايا، في كل مرة تبدو له مثل الخلايا المتجددة تحتوي على عمق دائم النداوة.

تماماً كما حدث حين التقى بشاب غريب داخل أحد أسواق بنغازي خلال ذروة العمليات الأمنية بعد الثورة. كان كل شيء يذهب للجنون التام، إنما ببطء شديد و بأسلوب حاسم. الشاب الغريب كان أسمر البشرة، طويل ويلعب كرة السلة ويقال إنه لاعب محترف. كان يعرف صديقاً له هناك، فتحدثا عن بعض الرسومات، ليس لشيء إلا لأنه حديث مشترك بينهما ولا يريدان أن يظلا صامتين. فقال الشاب الأسمر الطويل إنه كان يرسم دائماً باستغراق وبصعوبة من أجل إتمام لوحة واحدة. كان يتحدث بألم بالغ الوضوح. آنذاك كان هو يحاول إيجاد رسام يساعده في تخطيط لوحة كان يفكر فيها.

قال للشاب الأسمر: «أريد أن أصمم صورة على الفوتوشوب عن صحراوي ملثم يقف فوق مساحة رملية، هل تستطيع أن ترسم لي مخططاً؟».

«لا». قال الشاب الأسمر بحسم لا يقبل النقاش.

اندهش من ردة فعله، التي بدتْ غاضبة.

«لماذا؟». سأل

عندها ألقى الشاب بقنبلته: «أنا لا أمتلك قدرة التذكر». ابتسم بمرارة ثم واصل قائلاً: «كنت أرسم بشكل جيد، أرسم كمحترف، رسومات لا يمكن التفريق بينها وبين الواقع، تعلمتُ هذا، كما أنني كنتُ موهوباً. لكنني تعرضتُ لحادث، أُصبت في رأسي، استغرقتُ وقتاً طويلاً حتى استعدتُ عافيتي واستطعتُ الوقوف مثل شخص طبيعي. حاولتُ الرسم، فلم أقدر على ذلك. هذا مضحك بقذارة، كنتُ قادراً على رسم الشخصيات الكارتونية ببراعة، لكنني مؤخراً غير قادر على تخيلها، غير قادر على رسم ما لا أرى، وفي منتصف الرسم أفقد السيطرة على خيالي، على رأسي، أفقد السيطرة تماماً لأضيع فوق الصفحة لأرسم أشكالاً مقززة. الرسم صار عذابي».

ضحك بصوت عالٍ قبيح.

أخرج من حقيبته رسمة صغيرة فردها على الطاولة.

«هذه رسمة مزيفة، إنها مقلدة، لكنك حين ترى الأصلية ستعرف أنني فقدتُ الموهبة، لم أعرف في حياتي أن الموهبة تكمن في الذاكرة، لم أكن أعرف لولا ظروفي الخاصة، الموهبة تكمن في الذاكرة على ما أعتقد، لن أستطيع استعادتها، أنا لا أعرفك، أراك للمرة الأولى، لكنني أمتلك من الذاكرة ما يكفيني لأتعرف على أصحاب الموهبة. أنت تمتلك الموهبة. أعرف هذا، لكن مهما كانتْ موهبتك فلا تعتمد عليَّ في شيء أو على أي شخص آخر، لو قلنا إن الموهبة سر في الذاكرة، فعليك أن تبحث في ذاكرتك عن حلول لكل المشاكل المتعلقة بموهبتك، فقط».

لم يتبادلا حديثاً آخر حول الموضوع، بل قضيا الوقت في أحاديث مفتعلة عن الفتيات والرقص والأفلام والأحوال الداخلية لسوق الحديقة. آنذاك كانتْ الإعلانات الفيدرالية تجتاح شوارع بنغازي، كما أن صراعاً هائلاً وقع بين شارعين داخل سوق الحديقة بالأسلحة الخفيفة، لم يصب خلالها أحد. أجواء أعادته إلى أحداث أكثر قدماً في حياته.

29

كانوا داخل سوق الحديقة حين قررتْ مجموعة مسلحة مهاجمة السوق، انتشر النبأ، فتمركز شبان من السوق فوق المحال التجارية، وعلى أسوار السوق؛ ليعدوا أنفسهم لمهام القناصة، تحضيرات بدتْ أشبه باستعراض مسرحي.

حين أتت المجموعة الأخرى، كان السوق كله في حالة استنفار، الأجانب من السودانيين، التشاديين، الفلسطينيين والسوريين- بدؤوا يغلقون دكاكينهم، كانوا يستغرقون ساعة ونصف الساعة في الأوقات العادية بين أحاديث السمر وترتيب البضائع على مهل، في ذلك اليوم انتهى كل شيء في ربع ساعة، ليغدو السوق مغلقاً بأكمله، وأخذوا يسمعون دوي رصاص، كان هناك وابل كثيف من الرصاص.

استعادة ما حدث في اليوم التالي كان مضحكاً. لم تقع إصابات خطيرة؛ لذا أخذوا بالضحك على أولئك الذين تصرفوا بحماقة.

«الخوف ميزة في تلك الظروف».

«صحيح، الشجاعة غبار صرف». كان أحدهم قد عبر هارباً دون أن ينبههم، قبل ذلك بأيام كان يعي بطولات فائقة في الشجاعة، وقد آذاهم هذا فأرادوا الانتقام.

«الجميع يعرف أن صاحب أعلى صوت في الغرفة، هو أكثرهم جبناً».

ضج الجميع بالضحك لسماع العبارة الهيولودية.

«لن أكون غبيّاً لأرد عليكم».

«أوه، نعترف لك بالذكاء، فأمثالك لا يقتلون بسهولة».

«سأخبركم بشيء سمعته، حين تهاجم قرية أو مدينة أو حتى جماعة، لا تخف من الشجعان؛ فإنهم سيأتون إليك ليلقوا حتفهم، أكبر الخوف هو من أصحاب الرأي فهم ينجون ليميتوا أعداءهم في الغد».

عندها فاق الضحك كل الحدود.

«جبان فيلسوف».

«لا».

«أنت جبان فيلسوف».

«تريدني أقتل لأثبت لك شجاعتي».

«أبداً، مستحيل، نريدك سليماً ومعافى وفيلسوفاً، لا تغامر يا فيلسوفنا».

«الشجاعة أن تظل حيّاً».

«أنت ذكي جدّاً على أن تكون شجاعاً، ذكي على الموت».

«الفتيات لا يفكرن في رجل ميت».

«الفتيات لا يفكرن في متخاذل».

«المتخاذل يجد فتيات أكثر من الميت».

«حاضر، أنت مثابر على الجبن». كان الضحك سمة تلك الأيام، مجرد الضحك بلا أي سبب، ليس لأنهم سعداء وليس لأنهم تعساء أو لأنهم يقولون أشياء مضحكة، أنت لا تحتاج إلى قول أشياء مضحكة من أجل الضحك، أنت فقط تضحك لتبدو الأشياء مضحكة وبحاجة إلى هذا الضحك بين الجموع. كانوا مؤذين أحياناً في الضحكات ولم يكن الأمر ليتوقف.

خلال تلك الأيام العصيبة، أرادوا ألَّا ينسوا بعض الأشياء الصغيرة، إنها تغدو بأسلوب ما هويةً خاصة. تلك الهوية التي لا ينجح دوماً في رؤيتها، كل ما يراه هو ردود أفعال الآخرين حتى اختلطتْ أغلب التعريفات بالنسبة إليه، الهوية مثلاً أصبحتْ متعلقة بالآخرين بشكل مرهق، أن تجتمع مع المئات في صفة وجودية واحدة، تظلون تراعونها على أنها حقيقة تاريخية، فيما هناك شخص مثلك تماماً ومن المفترض بأنه من نفس المجتمع إلا أنه يمتلك هوية مختلفة، وبوسعه دوماً الابتعاد عن التجمع المقدس. لا يمكنه مطلقاً تقبل الآراء التي يروجها البعض حول النجاح الفردي.

في هذه النقطة، كان يتهم المجتمع بالأنانية، لا يُظهر هذا ضمن صوره، بل العكس تماماً ما يظهر في صوره الخاصة، مجتمع أقرب إلى يوتوبيا رجل وحيد ومتعب، كالذي وجده بورخيس في إحدى قصصه الساحرة، رجل يضع صورة مجتمع وعصر بأسره خلال لحظات خاطفة، لقاء واحد، هذا مشابه لما كان يحاول صنعه، رجل واحد داخل كوخ سقفه كالسرج، يجلس منتظراً زائراً من قرن مختلف ليوضح له ما وصل إليه العالم، سعيد بالانتحار وبالمحارق التي سنها رجل من الصالحين يدعى أدولف هتلر. يوتوبيا رجل واحد منهمك في تذكر اللحظات وبسبب من هذه اللحظات المتتالية؛ تتبدل الوقائع، لتغدو مجرد أحلام بلا ضبط وبلا عقلانية. لحظته الخاصة كانت مجهولة مثلما تكون بعض التجارب غير مفهومة في الحياة،

لكننا نعيشها بالرغم من ذلك، نخرج منها من دون أية موعظة أو خلاصات مستفادة، إنها مجرد أحداث مررنا بها، شيء ما فيها يظل جامداً وغير قابل للفهم أو التحليل، إنها التفاهة بحد ذاتها.

إحدى لوحاته تحمل عنوان: الاشتهاء والتفاهة. تشرح حادثة قريبة الشبه بمقتل البيضاء وكأنها اختبار ميداني، وهي تعرض قصة شاب من بلدته، كان على علاقة بفتاة راقصة في الحفلات التي تقام في الأحياء العشوائية، ثم بدأت الغيرة تتمكن منه، تشتعل في نفسه، ترفضه الفتاة بسبب تشبثه المؤذي، يغضب ثم يقتل الفتاة بوحشية خلال ليلة باردة، بإحراقها خلال حفل جماعي، ليقتل معها قرابة سبعة رجال، كانوا في قمة الابتهاج والثمالة.

قصة عمل عليها لمدة ستة أشهر محمومة، لم يكن خلالها قادراً على الجلوس إلى جهازه، جسده يتقد بالإبداع، الفتاة والشاب معاً، اللحظة الأخيرة قبل الإشعال، كان هو فوق المبنى يُحدق إليها فيما كانتْ هي وسط حلقة السُكارى، داخل غرفة ضيقة مليئة بالعطور وعرق الرجال المهتاجين، بالرغم من ذلك شاهد برود هائلاً في عينيها، مع نار مشتعلة في عينيه، الشعلة تحرق قطرات العرق في حبيبات مضيئة مثل «بدايات أو بقايا» شرارات تتناثر عبر الأرجاء، بكسل شاعري. لا شيء في الصورة يُوضح العذاب المرعب الذي سينشأ بعد لحظات، الرجال مبتهجون وهم يلوحون بأطرافهم، ببدلاتهم الأنيقة، الفتيات الأخريات مبتسمات يجمعن الأوراق النقدية التي تتناثر بدورها مثل المطر الموبوء، المصابيح حولها الذباب المتكاسل، الأكواب المقلوبة، الفرشة العجمية أسفل أقدامهم، عليها صورة لنمر أبيض يصارع في قفص، كما أن الطاولات كانت عليها بعض الأوراق النقدية المتناثرة، الفتاة هي الشيء الوحيد الساكن، المتعادل في نظرتها، وهي تتطلع إلى الشاب فوق السقف، ليس هناك شيء على وجهها يدل على الخشية، لا نظرة مفاجئة ولا خوف، إنما نظرة ساهمة محببة من عاشقة ترى معشوقها في وقت مؤلم.

ماتت الفتاة في المستشفى، قيل إنها نطقتْ باسمه، فشكُّوا في أن له علاقة بما حدث، شاهده البعض فوق السقف قبل الحريق، كما أنه لم يكن مستقرّاً في ذلك اليوم وراح يهذي أمام جدته بأنه قاتل وغد، ثم عض نفسه أمام الناس حتى أدمى يديه. كان في حالة سيئة، لكن أحداً لم يجد شيئاً ملموساً ضده. حين روى للفتاة هذه القصة ضمنها فقرات مذهلة.

«بعد أشهر». قال بهدوء: «علق نفسه على شجرة وسط الشارع ليلاً، وجدوه في الصباح وعلى رقبته ورقة، كتب بحقد واضح: هذه البلدة أكرهها، سأحرقكم في الجحيم، لن أتركها مطلقاً».

داخل دار الكتب الوطنية، عن تلك الصور أبدت الفتاة رد فعلها بصمت متفاجئ أولاً ثم قالتْ مرددة: «تائهة».

ابتسم.

«طبيعة غريبة».

«هل كنت تعرف الفتاة التي أحرقتْ؟». سألته بتشكك.

«رأيتها عدة مرات». قال بلا مبالاة.

«من أين هذه الصورة؟».

«إحدى شخصيات ألعاب الفيديو، وجدتها الوحيدة التي تعبر عنها».

«هل كانتْ جميلة لهذا الحد؟».

«أكثر مما تتصورين».

«مسكينة».

«نعم، مسكينة».

«إنها تشبه البيضاء». لاحظتْ.

«نعم، أعتقد أنها تطور منها داخل ذهني».

«هل مات الشاب منتحراً؟».

«لا، لكنني أردتُ أن أنهي القصة بأسلوب لائق». نظرتْ إليه بتمعن.

«ماذا حدث له؟».

«لا شيء محدد، ترك البلدة».

«لم يتم القبض عليه».

«تم التحقيق معه، لا أدلة».

«هناك شهود».

«لا، لم يقدم أحد شيئاً، الهذيان لا شيء، بالذات إن التزم الجميع بالصمت، على اعتبار أنها تستحق نهايتها».

نظرة رعب طفيفة على وجهها، وسألته بمشاعر متضاربة.

«أنت هل تظن أنها تستحق ما حدث لها؟».

«لا أحد يستحق ما يحدث له».

«لماذا رسمتها على هذا النحو؟».

«لأنها بدتْ لي حقيقية على هذا النحو، كما أنها بدتْ قصة جيدة».

«هل تراها كذلك حتى الآن؟».

«حين أتذكر التفاصيل وأرى الصورة، أدرك أن كثراً سيعتقدون أنه غلاف للعبة فيديو، تتعلق بمهمات ينفذها بطل ما، ربما سيعتقدون أنه قادم لإنقاذها من البرابرة، نظرة الفتاة، كل المشهد فيه شيء بطولي، لو استطعت معرفة أن الصورة ستتحول إلى الأجواء البطولية؛ لم أكن لأصممها على هذا النحو».

تطلعتْ في وجهه لوهلة ثم تمعنت في الصورة مجدداً، استغرقتْ وقتاً حتى اقتنعتْ بأن في الصور شيئاً بطوليّاً، ليس لأنه أمر غير مقنع، بل لأن الزاوية مختلفة والفهم مختلف، شيء ما لا يمكن فهمه لسبب ما غامض. بالنسبة لها البطولة كانتْ في الفتاة، من الواضح أنها مركز كل شيء في الصورة.

«تريد نزع البطولة».

«لا، ليس بعد».

«ماذا كنت تريدها أن تكون؟».

«هل قرأت شخصية باتا؟».

«لا». قالتْ بأسف.

«حاضر، إنها شخصية ضمن رواية الواحة، الجزء الثاني من رباعية الخسوف لإبراهيم الكوني، إنها امرأة بارعة الجمال، استطاعت أن تسحر عائلة لثلاثة أجيال، يُقال إنها حين كانت في التاسعة من عمرها، قتلت والدها بسلاح ناري، تفصيل فلسفي مهم جدّاً، اعتقد الجميع أنها عملية إطلاق حدثتْ بالخطأ، إلا أن مربيتها قالت مؤكدة إنها كانتْ تبتسم وكانتْ تعي ما تفعل، وقد غسلتْ يديها بداء والدها وكانتْ تعي جيداً ما تفعل. إبراهيم الكوني أخذ هذه الشخصية إلى ذروة البطولة في حبكة روائية بارعة، حتى أصبحت الشخصية الأساسية في النص، تمتلك كل أدوات البطولة المطلقة، كأن الحياة تعمل لأجلها، وأن الوجود بأكمله فاسد لينتج امرأة مثلها وكان لا بد من فعل شيء قبل إسقاطها في الرواية، لا بد من إسقاط سطوتها البطولية، الكوني حين أراد التخلص منها؛ أخضعها لسلسلة مذهلة من المشاهد، جعلها تصعد في انتصارات على خصمها الذي بدا كأنه يزداد ضعفاً وانهزاماً أمامها عاجزاً عن فعل شيء، إلا أن تلك الانتصارات لم تكن إلا فخاخاً في سبيلها وأنشوطة تزداد ضيقاً حول عنقها. فقدتْ جمالها، أصيبَت بمرض جلدي، حبستْ في سجن جدرانه من الملح، وبالت عليها أم واحد من عشاقها، كان فقد عقله بسبب العشق، كان مشهداً طريفاً، وحين تم إخراجها من السجن زهد فيها عاشق آخر كانت تستغله للتأثير في رجل كانتْ تعشقه بقوة ولأجله أرادتْ أن تدمر كل شيء، كان العاشق المزيف قمة انتصاراتها، حين شاهدها بعد خروجها من الحبس، هرب منها مرتعباً بسبب بشاعتها».

كانت تستمع إليه.

«حين تريد أن تدمر شخصية، فإنك تنتزع منها كل أشكال البطولة، وهذا ما فشلتُ في فعله».

«فشلتَ؟». هز رأسه مؤكداً. «نعم، الشعور البطولي كذبة، مثلما لا تستطيعين جعل الشاب الذي قتل بطلاً، لم يكن عليَّ أن أجعل من شخصيتي بطلة».

«ربما هناك شيء بطولي حتى في الشر». قالت الفتاة.

«لا بد أن يكون صحيحاً، فأنا لم أتقصد جعل الأمر بطوليّاً».

لحظات من الصمت.

فكر خلالها في فترة إنجازه لهذه الصورة، ظلمة الليل، بحث عن المعنى الحقيقي للبطولة، هل يكمن في فعل المستحيلات، أم عند التضحية بالذات، أم تكمن في إثارة مشاعر الإعجاب لدى الآخرين؟ ظلت المسألة معقدة، في رأيه كيف يمكن جعل إنسان ما بطلاً وتجاهل أشخاص آخرين، كيف يمكن فهم البطولة؟!

تطلع إليها بهدوء وهو يتأملها، بدتْ مثل فرصة أخرى.

ولادته الثانية!

30

ولادته الأولى كانت في الجنوب، ثم ترك كل شيء هارباً كالمجنون إلى الشمال.

«رغبتُ في أن أكون مصوراً في إحدى الصحف الشمالية». هذا جزء مما كتبه ضمن يومياته للسيطرة على تفاصيل حياته: «لكنني أفسدتُ كل شيء، وقبل أن أسقط نهائيّاً أنقذني حسان، آنذاك كان يضع اللبنات الأولى في عالم الإعلانات. خلال المدة التي عملت فيها معه، تحسن وضعي المادي. أصبحت حرّاً لفترة ثم تدخلت الدولة وأفسدتْ كل شيء مجدداً، أعتُقِل حسان لأسباب سياسية، لتعلن بعد ذلك فقدانه. لسبب ما كنت أدرك أنهم سيلقون القبض عليَّ. لم أكن أمتلك مكاناً أهرب إليه، لم أكن بقادر على العودة إلى الجنوب. وقد عايشت تجربة الاعتقال السياسي، ولم ينقذني إلا أنه ما يزال في رصيدي وقت لأعيشه. عشتُ في قلق حتى شهدتُ انهيار الدولة الاستخبارتية. كنتُ تحولتُ منذ تجربة اعتقالي إلى شخص شبه مجنون، لم أعد قادراً على التوازن، لا أقدر على التحكم بذكرياتي، أحاول دوماً أن أجمع أجزاء منها إلا أنني أشعر باقترابي من بقعة خطرة، قلق عميق ينتابني، أبعد دون أن أجد وسيلة لفهم ما كان يحدث لي. منذ مدة أسكن جزئيّاً بين أرفف دار الكتب الوطنية، أعبر المكتبات المحشورة في زوايا المعتمة من بنغازي. أزور بعض الأصدقاء. أعمل بعض المهن التي تجلب لي المال القليل بما يكفي ثمن أدواتي وإيجار غرفتي، طعامي، ثمن شرائي للورق وتحميض الصور، وهو ما تجاوزته بعد العثور على جهاز كمبيوتر جيد أعمل عليه لاستعادة بعض من لحظاتي القديمة».

مر وقت طويل منذ ترك بلدته الجنوبية، لم يفتقدها مطلقاً، إنما صمم عنها آنذاك المئات من الصور الباهتة، ضبابية، كأنها حياة سرية. ظل يبحث عن شيء واحد طوال سنوات نفيه، شيء مثل الأثير أو ذكرى طفولية، تلميح سينمائي شاهده عدة مرات وكان لامعاً مثل شهاب ساقط. اللحظات المجيدة الغامرة بمتعة الإيجاد وخالية من كل الادعاءات والتقصد. كان يسميها بلحظات الذروة. حين يستعيد بطزاجة فنية واحدة من ذكرياته الطفولية.

«عشتُ هذه اللحظات عدة مرات في حياتي دون أن أجد ما أسعى إليه فعلياً حتى لحظة جلوسي هذه، انقضتْ قرابة عشر سنين وأنا ضمن الدوامة. أحياناً أفهم نفسي تماماً. أقضي الوقت يائساً ثم اكتشف أنها الحياة، وليس أمراً آخر، فأعود لصلب المواضيع متحمساً، قبل أن أنسى مجدداً».

كانتْ حياته في بنغازي متذبذبة.

هذا ما أراد أن يقوله!

«أجلس أمام البحر لا ألوي على شيء إلا التأمل، تكون السماء خالية، لا سحب ولا نوارس، لا نجوم، فقط زرقة ممتدة، تزداد لمعاناً. أمضي نهاراتي في خيالات مثل النوارس، لأعود عند المساء إلى غرفتي، فأشرع بمصارعة بقايا اللوحات والأحلام، تلك التي لم تكتمل بعد. قبل شهرين طفرت في ذهني فكرة لوحة جعلتني أرتعش حتى النخاع، لطالما أدركتُ أنها قابعة هناك في مكان قصي من عقلي. محصلة كل تلك الصور، الأحزان، محاولاتي اليائسة، ليست سوى بحث حثيث عنها. قمتُ من على الرمال الباردة بسرعة، محموماً من فرط الإلهام، ركضتُ عبر الأرصفة والطرقات، كان صوت البحر يتردد مع زعيق النوارس داخل ذهني».

لوهلة صمت مستعيداً حماسة تلك الليلة، فأثناء ركضه غمره إحساس مألوف، من دون وعي منه كان يحلق عبر أزقة سوق الحشيش، سيل غير مرئي، يصطدم البرد في وجهه. لم يركض بمثل هذه القوة منذ ترك البلدة، ربما حتى في البلدة الجنوبية لم يركض هكذا، يداه كانتا ترتعشان حماساً على نحو متزايد وعضلات جسده تتقلص بلذة. إحساس عميق بالبهجة يعلو في صدره، كان مفعماً بالرفعة كأن يُحلق عبر النجوم، حاملاً راية لإمبراطورية قديمة. أثناء إحدى اللحظات التنويرية، أدرك ما هو فيه من قوة.

تحت هذا الإلهام كتب في يومياته: «خلال السنوات التالية أدركتُ كل شيء، جميع الأفكار والأحداث السياسية التي مرت على المنطقة والإقليم. لديَّ مجلد ضخم يتحدث عن رحلات الأوروبيين، أجمع بعض التفاصيل التي ضمنتها في ثلاث لوحات ثم عززتها باثنتين تحملان السمات التاريخية، إنها متفرّقة، تذكرتها فيما كنتُ أحلق بمحاذاة المقاهي، متذكراً نهوض بعض الرواد للتحقق من سبب ركضي، الأضواء بدت تنساب بفوضوية، باردة كالزجاج. كانتْ أوردتي تنتعش، في رأسي توهج باهر، أحسستُ به في كامل جسدي. توقفت لاهثاً. جلستُ على المادة الإسمنتية وكانتْ الصور تتلاشى من ذهني مثل ضباب مهزوم. ظللتُ أحدق في الرسومات على المادة الإسمنتية، تاركاً تلك الصور المرتعشة تتلاشى من ذهني بهدوء واستسلام، كانت هناك رسومات بخطوط سوداء على المادة الإسمنتية، إحداها لنصف وجه حزين، ثلاث دمعات معتمة تتساقط تباعاً في كأس على حافته مظلة صغيرة. البحر، الهواء وصوت المحركات، عندما هدأ جسدي ونسيتُ الصور، قمتُ لأتمشى قليلاً. كانتْ الساعة تقارب التاسعة والنصف من شتاء 2007».

كانتْ أضواء المدينة تنعكس على سطح البحر، بوضوح في تلك الليلة، رافعات الميناء غارقة في الظلمة مثل أذرع شبحية مع أنها بدتْ له فيما بعد أشبه بأفاعي شعر ميندوزا وقد تضخمتْ فجأة كما أنها بدتْ باردة. تطلع إليها طويلاً كان يحفظ المشهد عن ظهر قلب، وهو ما كان يفعله، أذرع صفراء قليلاً، صدئة جدّاً محاطة بسكون بالغ الرهبة والحزن، لم يكن السكون من شيم هذه الآلات، فأحسَّ بأنه كان واقفاً أمام طاحونة لا تدور، غابة بلا أشجار، ومع أنه لم يكن يهوى المجيء إلى هذا الجانب من المدينة، إلا أنه أحس بالألفة.

«منذ مايو 2005 وطوال عدة سنوات تالية، كانتْ بنغازي بالنسبة لي عبارة عن مكتبات منتشرة بين الأزقة، مكتبات عامة اختصرتْ كل شيء فيها، كنتُ أتعامل مع أربع منها، مع الأيام التالية بدأت تتناقص، وبدأت أبحث عن

المزيد منها، مكتبة، مكتبتين ثم اختفت كلها ذات يوم، فشعرتُ بوحدة بالغة، لا يُمكنني وصفها، افتقدتُ الكتب القديمة، كأنني أفتقد أحدهم من لحم ودم. ذات ليلة حلمتُ بأنني جالس على أحد الكراسي في مكتبة من بنغازي. كان حلماً عادياً إلا أنني استيقظتُ في منتصف الليل منهاراً، أحسستُ بشيء يحفر عميقاً في صدري، كان العرق يتصبَّب مني، فتحتُ جهازي ثم بدأت العمل على صورة كنتُ وجدتها مصادفة ضمن صفحات إحدى المجلات الأمريكية المهتمة بمكتبات الأدباء. الصورة توضح جانباً من مكتبة إدوارد سعيد، بدتْ لي أشبه بكابوس أفلاطوني، كثير من الثوابت التي تتغير على مدى القرون، تطلعتُ في الصورة مطولاً محاولاً تحديد اتجاه عملي، كانت الكنبة فريدة من نوعها، المكتبة والأسلوب الأخير في القراءة. كنتُ قررتُ الانتهاء منها في جلسة واحدة، ركزتُ على الزاوية والكنبة، فصلتهما بهدوء ثم لجأت إلى صورة قديمة لقارئ من عصر وسيط، كان متمدداً يقرأ تحت شجرة وارفة، سحبتُ الشجرة بعناية، كانتْ مرتفعة بشكل غير طبيعي، أعجبني الطول والشكل وعلى مدى سنة كاملة جعلتها جزءاً مهما من صورتي، صورة مكونة سبعين صورة كلها أيقونات ظلتْ ثابتة منحتها حرية التبدل والتغيير، جوهر شيء يمنح شيئاً آخر أبعاداً مختلفة، كل شيء كان يتغير ويتبدل في الصورة، كان هذا بمثابة تمرين حقيقي من أجل الاستعداد لأعمال أكبر وأشد تعقيداً، كنتُ جمعتُ أكبر قدر من الصور في خط واحد لمكتبة لا نهائية كالتي حلم بها بورخيس يوماً وعبر الأفق تركتُ السماء في جنون طافح، فان غوخ كان سيعجب بسماء كهذه بلا شك، النجوم والأقمار تسبح في ضوء شفاف في عتمة بعيدة مستحكمة، لا شك تحمل نظرة طفولية. مكتبة مكتظة ومفتوحة على السماء، كتب ومجلدات، أرفف وشجرة ضخمة بمحاذاتها كنبة مريحة تطل على فضاء لا نهائي. أطلقتُ عليها بمرح مكتوم تسمية: الأسلوب الأخير».

في ليلة إنهائه لها، أدرك أنه توج عشقاً كبيراً ضمَّه يوماً بمكتبات بنغازي، ولم يعد أمامه إلا البحث عبر شوارعها الباردة، عن حقيقة مختلفة، كل ليلة كان يعبرها متأبطاً صحيفة يومية غير محلية لا يقرأ منها إلا شارداً عموداً واحداً، يحتوي في الأغلب على مقالات تحليلية للأحداث السياسية الكبرى وتروي قصصاً مذهلة عن جيل الستينيات.

«أفتحه كل مرة لأجد شيئاً عني». كتب مواصلاً تاريخه الشخصي: «حين مررتُ بالقرب من الميناء، في إحدى المرات أحسستُ بأنه رمز حقيقي للمدينة متوقفة وغارقة بالموت الذي يتجول في شوارعها بملل عريق، بحسب تعلقيات بعض من أفضل أدبائها».

الموت في بنغازي لعبة يومية.

الموت والتوقف.

«في ذلك اليوم». قال شارحاً عن واحد من أعظم اكتشافاته: «رأيتُ حصاناً موثوقاً بسلسلة ضخمة الحلقات إلى وتد مغروس في التربة السوداء. كان يُحدق إليَّ وأنا متجه نحوه. هل كان يأمل أن أفعل له شيئاً ما. وقفتُ عند المادة الإسمنتية، شرعتُ أراقب سكونه وفضوله المطل من نظراته المعتمة وهو يواصل متابعتي بثبات مهزوم. شعرتُ بشيء من الشفقة حياله، وفي اللحظة التي تحرك فيها، أصدرت السلسلة الضخمة الحلقات والصدئة، صوتاً بدا لي مثل ضحكة

مكتومة. دهشتُ من كم العضلات التي تحركتْ في جسده، بسبب هذه الحركة البسيطة، صدره العريض الأبيض والمترهل، الشعيرات المنتشرة بإهمال حول خطمه الجاف، نظراته المنهكة والمحزنة. أذناه المنتبهتان، قوائمه التي تروي عن مجد قديم. حرك ذيله الناعم عدة مرات مبعداً أسراب الذباب ثم اقترب مني أكثر، أراح رأسه على فخذي بحنان بالغ. في تلك اللحظة أحسستُ بشفقتي تتحول إلى نوع مختلف من الأحاسيس والعواطف، مددتُ يدي إلى رأسه، فاستسلم مثل طفل عائد».

جلس على المادة، ووضع دفتره، قلمه، كتابه وصحيفته اليومية، ثم أزاح عن رأسه كل مشاغله السطحية ثم شرع يُحدق إلى الحصان بتأمل. في حين أخذ هو يُحدق بدوره من دون حركة، منتبهاً. صوت رقرقات المياه، الأمواج الصغيرة وقفزات الأسماك التي تلمع في الضوء المحاذي للعتمة، ثم تغطس بطرطشة بارعة لم يلتفت لها الحصان الأبيض.

«كنتُ مسحوراً بكل شيء من حولي، وعلى نحو حماسي، لم أعرف إن كان ما أحس به شيئاً معقولاً وطبيعيّاً، لكنني أحسستُ بقيمة الحياة، بأمل خاطف ينبض في جسد ذلك الحصان المنهك، الواقف باعتدال بمثابة دعاية هائلة لسقوط الإمبراطوريات».

صور من الماضي تطوف في ذهنه، لا تكف. غالباً ما تكون حوله كأطياف بأعين مضيئة، تواصل التحديق في وجهه. فترة فقد خلالها أعصابه حتى كاد يُمزق أغلب صوره الشخصية. كان يتوقف قبل أن يبدأ، شيء يُشبهه تماماً، كما يشبهان هما الميناء الذي يُماثل المدينة المتوقفة عن النمو. سعى دوماً لخلق صورة كاملة تجمع مشاعره حيال كل تلك التناقضات. كانتْ الشخصيات البطولية تندفع بقوة من ذهنه عابرة الصحراء في رحلات متوالية قادمة من الأقاصي الباردة. الصورة بدتْ كأنها تحتوي بعداً سياسيّاً مثل كل تفصيل من تفاصيل حياته، مؤخراً.

«يجب أن تعيش على الهامش لتعي هذا». قال للحصان.

الصورة التالية عكف عليها لشهرين، كانتْ صغيرة نسبيّاً تروي ثلاث قصص عن شيخ قبلي يعمل واشياً لدى الحكومة. كان يعبر الظلمة المتلاشية تحت فيض القمر، في تموج من خلفه، مشاعر النصر، لسلطان يفتك بمعارضيه، إحساس ميكافيلي، أحس بأنه عاش على نحو همجي، كالفهم السطحي ضمن مشاعر التوتر.

كتب في تلك الفترة أنه قارب حافة الوعي، من هناك شاهد ذاته بوضوح تام. امتلك العشرات من الصور المكتملة والمئات الأخرى محبوسة في الأدراج باعتبارها مخططات مستقبلية، بذات الوضوح، إنها سبب توازنه، هدف حياته، لكن احداً لا يهتم ولا يريد لأحد أن يهتم، أولئك الصغار، أنصاف الأحياء غير القادرين على العيش للحظة واحدة بصحبة ذواتهم، لا أحد يعرف لأي سبب يخشون ذواتهم، لا يريد منهم أن يفهموا أي تفصيل من صوره الفنية؛ لأنهم لا يقدرون على فعل هذا بأية طريقة، لأجل هذا بالضبط؛ هو وحيد.

كتب في يومياته هذه الفقرات: «حكيت مشاعري الخاصة للحصان الأبيض، كان قد بدأ يتحرك في دورات بطيئة، يلوك رسنه بهدوء، أخبرته عن كل شيء من حياتي في ومضات أشبه بقفزات الأسماك التي تومض في العتمة. كنتُ مندهشاً

من الانتباه الظاهر عليه وهو يهز رأسه أحياناً بما يشبه الموافقة أو المتابعة ثم دار حول نفسه في حركة استعراضية، نخر رافعاً حافر قائمته الأمامية كأحد الأحصنة المعدة للحروب ثم هدأ وعاد يلوك رسنه ببطء، كنتُ بدأتُ أفهمه بالرغم من كل شيء، كنتُ أفهم ما كان يفعله، واصلتُ جلوسي هناك على المادة الإسمنتية، غرقت في التحدث عن حلم شخصي، بصوت عالٍ، الحياة يا صديقي جزء كبير منها في مكان غير متوقع».

أخبره بأنه خرج للتو من تجربة اعتقال، وأنه بدأ يفهم هذه الأشياء ثم روى له أن الدولة تكرهه، شيء ما فيها يعاديه. بدا الحصان غير فاهم هذه المرة كل ما كان يقوله، في عينيه ازدادت العتمة، رفع بصره، جال به المياه إلى المراكب الراسية، الرافعات المتوقفة، الحاويات المكدسة فوق بعضها وعليها تلك الأحرف الغريبة، التي لا تعني شيئاً. فكر عندها بأن المجهول يمكث في الجوار، كل ما كان يراه لا يمت إلى الحقيقة بأي صلة. كان الحصان هو الكيان الوحيد الذي ينبض بقوة الحياة. الحقيقة الوحيدة في تلك اللحظة وفي تلك البقعة، المياه تنبض به، حتى الأسماك بدتْ أشباحاً غير حقيقية، الضوء البارد المتجه بلا غاية، السفن الراسية، المباني الشبحية في الخلف، كلها هناك أقل قيمة من الحصان الأبيض المنهك. كان هناك مختلفاً عن كل شيء. الضيف الذي جاء على غير ميعاد. وجد نفسه غارقاً في استعادة تفاصيل لحظة واحدة، أخذتْ تكتمل ببطء في ذهنه، شاعراً بالإلهام في تلك اللحظات، التي لم يفهمها قط طوال السنوات التالية، إلا أنه شعر بجمال ما كان بالقرب منه.

«أنت جميل». هكذا قال للحصان بحب، ومسح على رأسه، فنخر بتتابع لطيف وأحنى رأسه أكثر وبهدوء حتى انساب شعر رأسه، الشديد البياض، فوق عينه اليمنى، فبدا كأنه النقاء بين الضوء والعتمة، تقدم من الشاب خطوات ثم ابتعد في حركات دائرية، نصف دائرية كأنه يستعرض ذاته مجدداً.

«انظر ما أنا». قال الشاب.

كان يتمعن النظر بإخلاص تام لما هو، راقب كل تفصيل فيه، ظل لأيام يعود إليه، يُراقبه وهو يتحرك حول المكان بوقار مهيب، كان يبتعد لأبعد مسافة ممكنة، قبل أن تضحك تلك السلسلة بصوت مكتوم، ليعاود الحصان في شبه عدو أنيق الانتقال للجهة الأخرى، محركاً ذيله في دوائر صغيرة، ثم تجمد هناك متطلعاً للمياه.

«تبدو شارداً، ما بك؟ لا يليق بك الشرود، لا يليق بك هذا الجمود، ما بك؟ من يشد وثاقك إلى هذا الوتد، هنا؟ هل أنت وحيد؟».

بدا له الحيوان، في وضع مزرٍ لا يمكن وصفه، محتاجاً إلى الرفقة، ليتغاضى المسكنة، التي هو فيها. حركاته شبه المسرحية، تنبئ عن حزن عميق. وجد فيه كل ما يمكن التفكير حوله من مشاعر الوحدة، إنه مثال ورمز وصنم.

خلال الشهر الثاني، بدأ البحث عن أفضل زاوية لتصويره. تحدث مع جميع من التقى بهم عن مدى الانبهار الذي هو فيه. قرأ عن إيجاد فان غوخ لحيوان قابع في العتمة والضوء. هذا الحصان الأبيض المسن كان هو نفسه الذي شاهده فان

غوخ، ربما حلم به، حلم به أكثر مما يحتمل. ذات الحلم الذي أخذ يدهمه كل ليلة، بعينيه الحزينتين، تحركاته البطيئة، الوقورة. كان يحتوي على تناقض هائل في وقفته تلك وحركاته المسرحية.

في أحلام الشاب، شاهد نفسه يخاطب الحصان ويسأله: «كم تبدو حزيناً، أنت ولدت لتستخدم رجليك، ولدت لتعدو عبر الحقول، لتكون حرّاً أكثر من أي مخلوق آخر على الأرض، لماذا يقدمون على ربطك إلى هذا الوتد السخيف؟».

«كنت أتفحص الوتد المغروس في التربة السوداء». كتب في يومياته فقرات يروي فيها تجربته هذه: «بفعل مياه المجاري، الذباب والحشائش ذات اللون الحائل، الحديد الصدئ ونصف برميل يُستخدم لوضع التبن والبرسيم الجاف لأجله، يحاول هو تفاديه كلما أتى إليه، هكذا أتصور، يضفي على نفسه بعض الرفعة، في سبيل المحافظة على القليل من كبريائه أمام غريب طارئ، أفهم هذا، لكنني لم أكن أحس بأنني غريب عنه، فقدتُ كل مصادر رزقي وخرجتُ للتو من معتقل رهيب. لا أمتلك في الحياة إلا أعيناً تراقبني، دون أن أعرف أين هي. قضيتُ الأشهر الماضية أتجول في الأزقة والمكتبات المحشورة في أماكن شبه خفية لأطالع كتباً طُبِعَت لأكثر من ثلاثين مرة، طبعات مخصصة للمكتبات الليبية بأغلفة خاصة، مسرحيات ومنشورات الدور المصرية من أيام طه حسين وعباس محمود العقاد، أفتحها لتغمر وجهي موجة غبار آتية رأساً من نصف قرن مضى، ظلتْ محبوسة بين أوراق صفراء رقيقة، أقلبها بهدوء وبعناية فائقة حتى لا تتفتت بين أصابعي الشرهة. أطالعها وألتقط لها الصور، في الخلفية الأرفف مكتظة بالكتب القديمة ذات الأغلفة السميكة، مستلقية على بعضها باتجاه المخرج وقد عبرتُ عليها بأصابعي كأنني أمر على مفاتيح بيانو، لمسات رقيقة ومدروسة ومحببة، وقد غطتْ أناملي طبقات الغبار. كلما لمستُ كتاباً أقرأ العنوان واسم الكاتب، قد يكون اسم الكتاب أكثر أهمية وأحياناً أخرى يحدث العكس، مررتُ على دراسات تاريخية، مجموعات شعرية، سير ذاتية، روايات اجتماعية، فلسفية، خيال علمي، ومسرحيات صغيرة لأونيل يوجين، يونسكو، بريخت، فكري أباظة، يوسف إدريس، مجلدات أفول واضمحلال الإمبراطورية الرومانية، بأصابعي العارية لمستُ حواف الطاولة الخشبية».

في تلك الفترة كان يقرأ صفحات جنونية من «وداعاً للسلاح».

شيء ما غير حقيقي يظل يتشكل في ذهنه.

عندما شاهد الحصان الأبيض بتلك الحالة، أحس بزيف شيء ما، ظن لوهلة أنه الميناء المتوقف، طوال أشهر دأب في محاولات لتغيير منظر الميناء دون أي نجاح. الموانئ لم تكن نقطة قوته في التخييل؛ لذا قام يجمع صوره الخاصة بالمرافئ من بطون الكتب التاريخية التي تروي عن الحروب العالمية، وبعض الصفحات المقتطعة من المجلات الاقتصادية والدعائية التي تباع في أكشاك التبغ. استطاع أن يجمع صوراً قديمة لمرفأ بيروت منذ الأربعينات ومرفأ مرسيليا من زمن الفنيقيين ومرفأ طرابلس خلال فترات حكم القرمانلي كلما عثر على صورة لمرفأ في البلطيق اعتقد أنه في إحدى روايات تورجينيف مع عشرات المرافئ الأخرى، لم يكن أي منها يشابه هذا الميناء المتوسطي الصدئ.

«الفرادة صفة مشتركة، إنها الجمال». قال ساخراً وهو يحاول أن يشيح ببصره لمنح الحصان بعض الوقت، لتدارك نفسه، وقد فعل، هذا ما فهمه من حركة السلسلة، الصوت المكتوم ذاته، حين عاد ببصره إليه، وجده قد شد من نفسه، فبرزت عضلات جسده وارتسمت عند فخذيه الخلفيتين، مشاعره المتصلبة، إنها فعلاً لقطة مثيرة للمشاعر.

«تمتلك قوة غريبة». قال هذا ثم أضاف مقترباً: «لكن أتعرف أن القوة هي المصدر الفعلي لكل الضعف، أنا أعيش ما أنت فيه، أجعل من ذاتي أقوى من السابق، الصور والكلمات، حين أشعر بأنني أفقد التحكم بنفسي، إنني أعتقد حقّاً بامتلاكي ما يثير إعجاب أصدقائي، وهذا مضحك، الإنسان لا يكون مندهشاً على الدوام، وهذا يقلقني، هل الخطأ مني، هذا منهك، الزمن يعمل عكس هذا الجنون، علينا تقبل أننا نعيش لأنفسنا لنجد راحتنا، حسناً أصبحت أمتلك قوة الوحدة».

كانت كلماته تخرج ثقيلة ثم تتحول إلى موسيقى معتمة، تمتزج مع الموجات الرقيقة التي تصطدم بالمادة الإسمنتية، فيظل يُحدق في رقصات الطحالب وهي تلمع مع المياه والضوء الراهن، تحتك بسطح المياه كمادة زيتية، تتقاذف معها القناني الفارغة، التي بها رواد الشاطئ، وعن بُعد، مسافة قريبة تضج رغبات الشاب بفضاء من المعدن البارد، ليرتد صوته كأنه نبوءة غير مقدسة، لإنسان تائه يعزف الناي لنفسه.

«قبل سنوات كنتُ وحيداً». قال للحصان الواقف بعيداً عنه بمسافة، حين شعر بتوتر في الصوت، ابتعد قليلاً محركاً سلسلته فأضاف الشاب قائلاً: «عرفتُ فيما بعد أنني لستُ الوحيد الذي يعيش في هذه الحياة، رأيتُ في أعين الآخرين أن هناك حياة واحدة مختلفة في داخل كل إنسان، حياة واحدة تناقض كافة ما أعيشه».

جزء من التوتر الطبيعي، صوت المياه والسيارات المستمرة في الانسياب لتبدو مثل نهر بارد على وشك التجمد، أحسستُ بأن الجليد بدأ يغزو الطرقات، جليد أسود.

31

«أن تعرف أنك تمتلك حياة واحدة مختلفة، أمر مرعب، يا صديقي». هكذا خاطب الحصان الأبيض.

في تلك اللحظة، في ذات الوقت الذي اشتعلت خلاله كلمة «صديقي» التي تفوه بها الشاب بشكل عرضي، نخر الحصان، وانسابت دمعة ثقيلة من إحدى عينيه، فأحس الشاب كأن جبلاً انزاح من على كتفه. للمرة الثانية شاهد صورة مستقبلية حلَّ بها، كانتْ تلح على ذهنه منذ فترة، دون أن يتمكن من تحديدها على وجه الضبط. قام من مكانه، سار بهدوء دون أن يودع الحصان المنهك، تركه وراءه وقد بدأت زخات المطر بالهطول. كانتْ الطرقات شبه خالية، مر بجانب مبنى اللجنة الشعبية والذي كان قبل أشهر من تلك الليلة جزءاً من كلية اللغة الإنجليزية ثم سيتحول مستقبلاً إلى متحف فني ومقر للثقافة، تعرض في ساحتها الأسلحة التدميرية التي استخدمتْ خلال الفترة الأولى للثورة، إشارة غريبة عن مقدمة الثقافة الشعبية في البلاد.

كل مرة يعبر من هناك، كان يُحس أنه يتجول خلال سنوات متجمعة في لحظة واحدة كثيفة، كأنه قد انقسم إلى عشرات اللحظات الصغيرة الماضية والحاضرة والمستقبلية المتخيلة، كأن لا شيء يتغير جوهريّاً، إنها تغيرات سطحية لا تعني شيئاً. في تلك الليلة كانت السماء معتمة ومغطاة بالغيوم الثقيلة والتائهة، وبلا نجوم ظاهرة. طفق يُراقب ذاته مرتسماً على الإسفلت فيما وضع كتابه بعناية تحت معطفه. أمامه تقف الكاتدرائية الغارقة في التاريخ المزيف بدورها وكانتْ تؤدي وظائف أخرى، ظهرت قبتاها الزيتونيتان من بين سعف الدوم المحتج واللامع. سرعان ما فُقدتْ تلك الهيبة حين اقترب منها، في بعض النهارات الصيفية كان يقتعد في حديقتها الصغيرة، يراقب المارة ومراجعي المكاتب الإدارية للمبنى التابع للكاتدرائية المغلقة بطابعها العربي الروماني، هناك أخذ يُفكر في صورة أخرى أخذتْ تتشكل في ذهنه عن بنائها، عن تاريخ عميق محاصر بين القضبان الحديدية الصدئة، لوهلة شعر بأن التاريخ يُعاد كشفه أمامه.

أثناء سيره تساءل: «لِمَ يظل التاريخ حاضراً في صوري؟».

أنهى على الفوتوشوب تصميماً يضم صوراً غامضة عن الحروب الأهلية خلال الثلاثينيات كما جمع صوراً ولوحات، لحظات صغيرة رهيبة تحدث داخل المعارك العنيفة. الدماء، الرماح في الأجساد، الذباب الملح، الأحشاء المندلقة مع السوائل البشرية، الأعين الهلعة، الأحصنة المنهارة والمقتحمة بقوة صفوف المقاتلين من الأجانب. في إحدى الصور قام بتصميم الحصان الأبيض في عمقها، كان قضى قرابة خمسين ساعة في تصميمه، لم يكن متقناً تماماً، أرجعه لعدة قرون إلى الوراء بعينين معتمتين مثل أسطورة قرأها أو سمع عنها، أثناء طفولته ومراهقته سمع الكثير عن الأحصنة العظيمة لدى

الشعوب، أحصنة الحروب العالمية الأولى، الكميت، المشهر، النعامة، والحصان الأحمر ضمن الأساطير الصينية في الرسوم الكارتونية.

التاريخ الشخصي والحصان الأبيض!

ظل مسحوراً بهما، لمدة لا بأس بها حتى صار مهووساً بتشكيله والاستمرار في البحث عن آراء الفلاسفة والرسامين عن الأحصنة، كان يُغالب الرغبة الملحة في الركض بقوة، جسده ينتفض من الداخل بطاقة هائلة، يرتج الدم في عروقه بعنف مفاجئ، تاركاً كل شيء يهدر حين كان يجلس وراء جهازه، أمواج كأحصنة مهتاجة تتقاذف من نهر هادر يخفت، نهر شاهده ذات مرة في فيلم هوليودي.

في الأحياء الداخلية لبلدته الجنوبية كانتْ تسحره رؤية الخيول أثناء المهرجانات الشعبية، كل تلك البهرجة، الأقمشة المطرزة، القلائد الحديدية المزخرفة، لم يعرف تسمياتها قط، العضلات التي تتقلص، مجرد رؤيته لها يُلهب خياله الطفولي، يمكث طوال ساعات المهرجان يُراقب تحركاتها، توتراتها، العدو الأنيق الذي تتميز به، في غمرة أشعة الغروب الواهنة، وعبر الأفق تمتد الصحراء كأجمل خلفية لصورة التي أنجزها فيما بعد، ذكرى ظلتْ مجرد حدث قديم لقرابة عقد كامل. جعل لها خلفية تضم قصصاً هائلة عبر الكون. رحالة مختبئ داخل زاوية خيالية وهو مرتعب من القتل، من قبل شبان يملؤهم الحماس القبلي، عدد من شيوخ القبائل يعانون رهاب الأجانب، اغتيالات السياسيين في الشوارع، كانتْ لوحاته تضم كمّاً لا بأس به من قصص الاغتيالات السياسية، كان على نحو متزايد يعمل على جمع دقائق من تلك الحكايات، من هنا وهناك، أشخاص معلقون على فوهات المدافع، آخرون ملقون في العراء الصحراوي، ملابسهم العسكرية ما زالت تحفظ عظامهم في بقعة واحدة، لن يطول هذا أكثر، كان يجمع تلك الصور بهدوء بالغ، يُمددها، يقوم بتصغيرها، يمنحها شخصيتها المستقلة، لكل صورة، لكل لحظة، لكل فكرة، شخصيات تحمل طابع البطولة والأحلام.

خلال تلك الفترة، كانت الصفات البطولية طابعاً مميزاً لحياته الجديدة عبر شوارع بنغازي، كان يتخيل أموراً حتى إنه اعتبر أشجار النخيل بمثابة حراس أبديين للواحة التي كانتْ عليها بلدته الصحراوية قبل ثلاثة قرون من الزمان كما اعتبر أعمدة الإضاءة حراساً سريين فوق كباري بنغازي.

في إحدى الصور قام بإظهار الأعمدة المضيئة كرهبان داخل مسوح ضوئية ومن ورائها تمتد سماء مظلمة، تضيء الطريق لسيارتين قادمتين من عقد السبعينيات، جامع البدرية كان يظهر بمآذنه البنية العالية، المدينة في حالة سكون إيماني بالغ الرهبة، إنها حين تظهر في صوره، فإنها دائماً ما تظهر في حالة مماثلة من الإيمان الغريب. إن كانتْ الصور تشكل فيلماً عن نموها لوضع موسيقى البلوز أو معزوفات أشرف محفوظ، لكنها ليست فيلماً عن المدينة وهي ليست سرداً صوريّاً عنها، ربما هي تعبر عن حالته النفسية في لحظات ما خلال شوارع المدينة حين يكون في حالة عشق غامضة لشخص محدد أو مجهول. كل شيء مقلوب رأساً على عقب، حتى إنه امتلك وجهة نظر أخرى عن الواقع.

كان يحاول أثناء جلوسه لتصميم أية صورة، أن يلتقطها بالكلمات أولاً، لكنه يُفضل الواقع على الدوام، والذي هو بالنسبة إليه عبارة عن صورة واحدة مكتملة النمو وتزداد عمقاً، صورة مكتفية بذاتها، تمثيل أبدي للماضي والحاضر كما أنها تخيل مستقبلي غير مفهوم. هكذا ظل يُفكر على مدى سنوات، إنها نظرة تغيرتْ طويلاً حتى أصبحت في هذا الشكل، مثل كل شيء في الحياة، تطوراً أو انتكاساً. لا يظل على الإطلاق كما هو. كان يُغير نظرته للإيمان أيضاً على نحو مستمر، لكل مرحلة عمرية وأثناء كل صورة جديدة أو كتاب جديد، يضع إيمانه في امتحان دائم.

كان يعي هذا بوضوح، حين قرأ «الشياطين» للمرة الأولى، كان يعي الأمر جيداً. الجريمة والعقاب. الإخوة كارامازوف. وداعاً للسلاح. الشيخ والبحر. كان يعي جيداً أنه اختبر قدرات الحياة على تقديم إجابات مقنعة، قدرة الحياة على التماسك أمام محاولاته للتشكيك في صورتها الكبرى، لجعلها أقرب إلى تفكيره، الذي كان آنذاك تشكيكيّاً على الدوام. الحياة باعتبارها صورة واحدة باتجاه واحد، لا تحتوي على شيء منطقي مثلما كانت صور لينين، بالنسبة لمعارض روسي متهم بالجنون.

إنها الحافة!

الهاوية!

أعاد فحص ما حدث خلال تلك الأيام دوماً، لم تكن هناك ذرة من الذاتية المكتملة في أي شيء، لطالما أحس بأنه انقسم إلى عشرات الشخصيات، كأنه انقلب لعشرات العناوين في إحدى مكتبات بنغازي الصغيرة فيما يظل يُحدق في أغلفة المجلدات. إنها بمثابة المرساة السرية أو خيط الخروج من المتاهة، فداخل عقله مشاهد أنيقة ولدتْ خلال فترة مراهقته. حين قرأ قصة ملكة تدمر زنوبيا لإميل حبشي الأشقر، كان هناك ذلك المشهد البطولي، عندما يجد «العاشق معن» نفسه في قلب الجيش الفارسي، أسيراً. مشهد شحذ خياله لأبعد الحدود بسبب قصة عشقه لكهيلة، إنها إحدى أجمل القصص.

كانتْ إحدى صوره الأولى في بلدته الجنوبية، كما وضع رسمة خيالية لصقر قريش على صهوة حصانه، وضعها أمام مَعلَم قديم في بلدته، وصورة التقطها أحد الرحالة سنة 1942 لصخرة على تل تاريخي، ما وراء التل وضع مدينة خيالية شبيهة بأركاديا من عدة نواح، مراعٍ وأكواخ كما تصورها لتلك السنوات البطولية كإحدى أزقة أحياء ميغالو كاسترو أو كما تصورها بسبب من وصف كازانتزاكي لها في مذكراته. تشتت مجهد للفكرة، التفاصيل الصغيرة التي قام بجمعها على مدى سنوات جعلته يعاني صداعاً دائماً ومن ثم كوابيس رهيبة في المستقبل كما تركته تائهاً بين الأفكار البرية، إنما دوماً يجد سبيلاً للعودة إلى ذاته.

شاهد الجانب الآخر من الحياة، وعاش قصة حب وثنية جدّاً بحيث بدأتْ مشاهد أخرى مهمة تتسرب إلى ذهنه، عن مدى أهمية العشق والإيمان به وأهمية المظاهر التي تصاحبهما، تعلم أنه لا بد من وجود مظاهر تدل عليهما. قرأ قصص عشق أخرى دوماً، ولم يكن يشعر بأنه غريب عنها.

«بدأت أعرف تفاصيل العشق بوضوح تام». هذا ما كتبه مؤخراً بحماس العشاق في يومياته عن مرحلة ما قبل هربه إلى الشمال: «أميزها من الكلمة الأولى في النص حتى أحسستُ ذات مرة بالغرابة بسبب من إحدى لوحاتي التي أنجزتها أخيراً خلال ليلة معتمة، وأنا نصف نائم. كان ذلك عقب أيام من رسمي لها، كنتُ أبحث عن لوحة لم أكملها على الفوتوشوب، حين لاحظتها داخل مجلد يضم صوري غير المنتهية، فتحتها وكبرتها ثم بدأت أتطلع فيها باهتمام شديد، التفاصيل كانت تشي بالكثير من الأفكار الشخصية التي عشتها طوال تلك الفترة الأخيرة كما لمستُ بوضوح تلك السمة التي تميز العشق التدميري، إنها الأقرب إلى الخيالات السياسية عن الأعراق السامية. روح قلقة كتب عنها إميل حبشي الأشقر، وجدتُ أفضل نظرة جانبية بسبب كتبه لإحدى الصور. ظهر فيها كل شيء عن مفهومي حول العشق والتاريخ كما ظهر فيها تنبؤ مستقبلي عن حصان سأراه عقب سبع سنوات كاملة. مظاهر الحزن، العشق، البطولة. المظاهر كانتْ هاوية لكل تلك الصفات التي ضاعتْ وراءها، ظلَّت منها هالة غير حقيقية للبطولة. كنت أراها كلما خرجت في شوارع بنغازي، صور العقيد في تلك اللوحات المبالغ فيها، صور الكولونيلات، النياشين اللامعة، تجمعهم ذات الروح التائهة والمتعطشة للإبهار».

كان واقفاً بالذات عند الهاوية خلال تلك الفترة، شاعراً بأنه أشبه بأولئك الكولونيلات الطامحين للإبهار. كان يُشاهد الشرارات الضوئية عند حواف جميع الشواطئ المتوسطية، يُراقب بصمت السفن الراسية أو كان يشرع في الحديث باستغراق مع الحصان الأبيض أو ببساطة يمكث كالشبح داخل إحدى المكتبات يقرأ في الكتابات الغربية.

كان قد أنهى لتوه مجلدات جيبون التاريخية.

لم يكن مرتبطاً بأي شيء حقيقي في المدينة، وهو ما تغير سريعاً، فخلال إحدى رحلاته الليلية على متن الحافلات التي تربط أحياء وشوارع بنغازي ببعضها، قرر شراء صحيفة تصدر من المهجر، وأمام كشك التبغ التقى بشاب يحمل كومة كبيرة من الصور، التفت ناحيته ثم سأله وهو منشغل بفردها أمامه تباعاً: «ما رأيك بها كلوحة إعلانية لمحل ملابس الأطفال، أيها تختار؟».

«فرد خمس صور مختلفة أمامي، تصميمات فيها بعض الدقة لكنها لسبب ما بدتْ غير مكتملة، ابتسامات الأطفال فيها شيء باهت، ملابس صغيرة، ألعاب بألوان منفرة إلى جانب كلمات أسرية عن ضرورة الاهتمام بالأطفال، وجملة سخيفة تقول إن الاهتمام في الصغر كالنقش على الحجر، شيء مبتذل واستناد غير موفق إلى حكمة قديمة. فكرتُ لوهلة: «لو جُمعتْ كلها في متوالية صور لأطفال يتبعضون بأنفسهم بعيداً عن الضحكات البريئة وقريباً من الرضا الذاتي، هنا أنت لا تخاطب طرفاً واحداً فحسب، بل الأطراف جميعاً، الأطفال والأهالي، لا بد أن تخلق متعة للبصر، قبل كل شيء، لجذب حتى الذين لا أطفال لديهم، هدايا لأبناء الأخت مثلاً لأطفال العائلة، عليك إقناع الجميع من دون تجاهل رغبات الأطفال في التدخل، إنما لا يجب أن تنسى أن الخيارات هي داخل خيارات الآباء، أن تمنحهم خيارات ليقدموا بدورهم خيارات لأطفالهم، اعتقد أنها صور لا تحقق الكثير من الإقناع الأبوي الضروري. عندها ترك الصور وتطلع ناحيتي، لم أكن أعتقد

أنني يمكنني قول كل هذه الترهات أمام أحد، في الوقت الذي وجدتُ فيه الفرصة لإبداء رأي خاص بي في صور ليست خاصة بي، كنتُ آخذ حريتي في نقد ذاتي أكثر مما أنتقد الصور المعروضة أمامي، إنها فقط من أجل أن أجعل الأمور صعبة عليَّ، وهو ما يجعل عملي أقرب إلى الرموز الإلهية في النصوص المقدسة».

هذا ما رواه للفتاة بين الأرفف التي بدأت تفقد الكثير من الكتب، عن لقائه الأول بحسان، روى ذلك بكثير من الهيام.إنها إحدى اللحظات التي كان يستعيدها دوماً من أجل مزيد من الإلهام. عندما ترك حسان كومة الصور وتطلع في وجه الشاب.

«هل أنت مصور؟». تساءل حسان.

«لستُ مصوراً، لكنني أصمم الصور».

«حقاً؟ تعني أنك تقدر على صنع الصورة التي تحدثت عنها للتو؟».

«نعم أستطيع». عندها ترك الصور ومد يده مصافحاً: «اسمي حسان فركاش، لديَّ تشاركية صغيرة للإعلانات، يسعدني أن أدعوك إليها».

بادله المصافحة.

«هارب من الجنوب، لأضيع في بنغازي». لم يجد تفسيراً لسبب قوله هذا، حين قال هذا ومع ضحكة حسان، أحس بنفسه خيالياً كإحدى شخصيات دوستويفسكي بالضبط مثل المراهق. بدا هذا محزناً بعض الشيء، لكنه تجاهله باعتبار أن تلك اللحظة هي الأولى له في الاحتكاك البشري من أشهر.

«هل تعمل معي؟». قال حسان وكان يرمش: «أبحث عن شخص صاحب رؤية يساعدني، قادني الحظ للالتقاء بك هنا، هل توافق على دعوتي لك؟».

وافق على دعوته من دون تفكير.

«لم أمتلك سبباً يمنعني من ذلك». كتب في يومياته: «كل الأسباب كانتْ تحثني على الموافقة، كنت قضيتُ حتى تلك اللحظة عدة أشهر دون أن أخوض نقاشاً مع شخص مختلف عني. حسان كان الأول، ابتسامته، رمشات عينيه المتتالية، وجهه المكتنز بدا محطّاً للثقة».

عندما سأله حسان عن كيفية تعلمه كل هذا الكم عن الصور. سرد حكاية، بدأ يتحدث عن دفتره.

32

الدفتر الذي احتفظ به ما يزال يحتوي على الكثير من الصفحات، كتب فيها قصصاً ذات ملامح شخصية جادة وفيها الكثير من الغموض. هذا ما استنتجه حين أخرج الدفتر مؤخراً ليطالع ما فيه، تحت وطأة الملل، وجد أنها قصص باهتة وذات أفكار وجودية مشتتة، ترك الدفتر على الأرض –ظهرتْ هذه اللحظة في إحدى زوايا لوحته– وذهب إلى سرير في آخر الليل منهكاً لحد التلف. كان غارقاً حتى الأذنين آنذاك في محاولات شبه يائسة لاستعادة موهبة الشعر، لكنه يفشل على الدوام، كان لسبب ما، خلال تلك الفترة، يُقدر الكلمة أكثر من تقديره للصورة. حين أدرك أن الشعر تركه إلى الأبد، بدأ البحث عن خيارات أخرى.

كان قد أدرك أنه يفقد الأحلام بسهولة، راغباً في الحفاظ على الزمن، الأحداث والناس بقدر ما يستطيع، كان يجمع في أبياته وقصائده المشتتة أشياء من ماضيه وحيه القديم في بلدته الجنوبية. نتيجة لفقده السيطرة على الشعر بدأ البحث عن وسيلة أخرى لإنجاز استعادة الذات من الماضي، وكان الحل الواضح ماثلاً أمامه: التصوير الفوتوغرافي، والذي كان يلبي كل احتياجاته من أجل ذاكرة حقيقية وحرَّة من تأثيرات الزمن. اشترى كاميرا سيئة، التقط بواسطتها فيلمين فسدتْ أغلب صورهما، بدأ يتعلم أساسيات التصوير عند مصري يعمل مصوراً جوالاً بين البيوت.

في يومياته لخص الشاب ما حدث بينهما في ذلك اليوم: «اللحظة الفضلى لالتقاط الصورة دائماً هي اللحظة غير المتوقعة». هذا ما قاله لي. سألته: «كيف؟». فأخبرني موضحاً: «انظر إلى ما تود تصويره، حاول أن تكتشف زوايا الجمال فيه، عملنا يرتكز على جمال الصورة مهما كانتْ سيئة، الجمال في عالم التصوير يعني الدقة، الصورة الكاملة». بدا كأنه يشرح لي مادة علمية صعبة حينما قال منبهاً: «الصورة الكاملة ليستْ سهلة، يقول البعض إنها مستحيلة تماماً مثل استحالة الجريمة الكاملة». كان كهلاً بروح مرحة. «هل شاهدت صوراً عن الحروب؟». سألني. «نعم صبرا وشاتيلا، فيتنام، العراق، أنا لم أشاهد صوراً أخرى بقدر ما شاهدتُ من صور الحروب». قلتُ. هز رأسه وابتسم قائلاً: «أوه، نعم، نعم الحروب». خلع نظارته السميكة الإطار ثم سألني: «هل شاهدت كفاية من الجمال؟». لم أفهم أبداً وقتها، فرفعت حاجبي الأيمن معلناً جهلي بالموضوع الذي يتحدث عنه: «ألا تفهم؟ هل شاهدت كفاية من الجمال الحقيقي: فتيات صغيرات، طيور في سماء رمادية، زهور، موتى في حالات فريدة، مشاجرات ليلية خلال الاحتفالات، حيوان مهمل في الظل، سيارة تشتعل في الليل أمام البحر فيما صاحبها يصرخ ويداه فوق رأسه، مثل أحد عُبَّاد النار؟». التزمتُ الصمت من الدهشة. فقال: «حسناً، أعطني الكاميرا خاصتك؟». مددتها له، تفحصها جيداً ثم قال باستخفاف: «هذه لا تصلح إلا للعرض، وليس للتصوير، يجب أن تمتلك كاميرا جيدة، فالصور الجيدة بحاجة لكاميرا ممتازة كما تحتاج أنت إلى الهواء النقي، هل

عندك أخرى بدل هذه الخردة؟». فقلت له: «لا، هذه فقط». قام للحظات ثم عاد بشيء في صندوق عرفت أنها كاميرا. «أنت تعمل في مقهى، أليس كذلك؟». سألني: «نعم». أجبتُ. «حسناً». قال فيما هو يفتح الصندوق ثم سألني: «لا بد أنهم يتعبونك في العمل، كيف هو العمل في المقهى؟». قلت له ببساطة شديدة: «مشيٌ كثير ومال قليل». جملة سمعتها من فيلم فرنسي. سألني كم أتقاضى. ففهمتُ اللعبة التي تجري، كنتُ أتقاضى قرابة عشرة دنانير، لكنني قلت له: «أكثر من خمسة بقليل». تطلع في وجهي بريبة. «أعرف شخصاً يتقاضى خمسة عشر ديناراً». فقلت له بهدوء: «لا بد أنه يعمل بدوام يومي كامل».

«ألا تعمل بدوام كامل». سألني.

«لا، فقط صباحاً».

«تتقاضى خمسة دنانير».

«تقريباً، نعم».

«إذن اشترِ هذه الكاميرا بخمسة وثلاثين ديناراً فقط».

كانتْ صغيرة ورائعة السواد.

«خمسة وثلاثين، هذا يعني أياماً من التعب والجوع، لا يمكنني تقريباً خمسة أيام».

«اللعنة على الخمسات». قال بغضب مفتعل.

في النهاية أخذتها بعشرة دنانير، أعطيته خمسة، وباقي خمسة مع كلفة التعليم التي دفعتها قرابة خمسة وعشرين ديناراً، وكان ينتظر مني خمسة دنانير. بدتْ الكاميرا جيدة للغاية، تأملتها طوال الليل وفي الفجر التالي التقطتُ بها أول صورة عند الكورنيش، بضعة نوارس تُحلق في الفجر اللامع. كانت صوراً فاشلة للطيور فلم أدفع له الباقي أبداً.

خلال الأسابيع التالية بدأت ألتقط صوراً، التصوير غدا سلاحاً في تلك اللحظة، اكتشفتُ أن الصورة الجيدة لا تأتي مصادفة، إنها مثل الكتابة تماماً يتم خلقها بشكل هادئ. كنت أقف أمام البحر الليبي، أصنع صورتي، أراقب العمال وهم يحمِّلون الرصيف، مهندسات شابات يرتدين الحجاب ويرفعنه من الأسفل، لتظهر سراويل الجينز الضيقة، التي تلتف على سيقانهن البديعة، قبل أن يشمرن عنها لخوض البحر، والعمال الأجانب يعانون الشمس الحارقة والعرق النازل بغزارة من جباه العمال الأجانب فيما الابتسامات تعلو وجوههم لرؤية الفتيات يصرخن مع الأمواج، كنت ألتقط تلك الصور إلى جانب حركة النوارس بأجنحتها غير النظيفة والأسماك الغارقة عند حواف الشاطئ بين الصخور البنية، ركض السرطانات على الرمال الناعمة. كل يوم كنت أخرج عند الفجر، ألتقط الصور للرصيف البحري، الخاضع للإصلاحات، خلف اللافتة التي ظهرتْ فجأة وعليها رقم كبير عرفنا فيما بعد أنه يساوي ثلاثة مليارات دولار مع كسور أخرى بالملايين، لم يكن آنذاك

رقماً متداولاً، قمت بتصويره، لقطة تلو الأخرى أشرح لنفسي، كيف تم إنشاء كل شيء، قبل ذهابي إلى العمل. شاعراً بأنني في تمرين حقيقي وفي الهواء الطلق، بحثاً عن مادة الأحلام مجدداً، مستمتعاً بوحدتي مع العالم، الأمواج في وجه الصخور، وعلى رمال الشاطئ رسمتُ شعاري آنذاك، أحرف لاتينية متداخلة هي عبارة عن معادلة رياضية قمتُ بحلها، ليضم جزءاً من تاريخي الشخصي قبل المجيء إلى بنغازي، الصورة التي ظهرتْ، بدتْ فجة. علامتي بدتْ تافهة ضمنها. عندما ظهَّرتها في معمل بيروت سألني العامل: «ما هذه؟». قلت بمزيج من الحيرة والخجل: «تجربة صغيرة». فابتسم وسألني إن كانت تعني شيئاً، لم أجبه هذه المرة ابتسمتُ وتركته مغادراً.

كان ذاك خلال فترة عجيبة، لطالما اعتبر الدفتر نهاية لعهد كان يركز ضمن كتاباته على الماضي الخاص به وببلدته الجنوبية، كان مهتماً بحكايات العائلات التي تسيطر على المنطقة، جامعاً القصص التي حدثت فيها. شراؤه للدفتر جعل من تلك القصص تاريخاً منتهياً. التصوير دفعه لإعادة الماضي في طموحات مستقبلية، وللمرة الأولى عقب فترة من الصور الدعائية السطحية، جلس إلى طاولته من أجل إبداع صورة حقيقية تعيش في ذهنه، هي في جوهرها وشكلها ليست بصورة عادية، إنما لوحة معدة خصيصاً لأجل «جزء تاريخي» من حياته.

صورة لا يمكن التقاطها بالكاميرا.

كانا في سيارة هيونداي يقودها حسان، على الطريق الدائري الثالث، كان يضع موسيقى «نهر الراي» صوت حزين بموسيقى شغوفة، تتجمل بشيء كئيب مثل ضوء القمر، أعادته إلى ذكريات الطفولة ومشاهد الفجائع عبر التلفاز.

«حين كنا نجمع تلك الأغاني». كتب في يومياته: «دون أن ندرك ما وراءها من ألم بشري فظيع».

«سترى كيف نعمل؟». سأله حسان ملتفتاً ناحيته بابتسامة امتزجت مع «أحزان الراي» فبدتْ متناقضة جدّاً، لم تكن فيها لحظة عابرة من دون ذكرى مؤلمة.

«كنتُ وضعتُ بعضاً من أحاسيسها في لوحتي التي أحملها في الفلاش ممموري ثم استمعتُ للأغنية بانتباه». هذا ما كتبه في يومياته متحدثاً عن تلك اللحظة: «كانتْ تتحدث عن الغربة والوعود العظيمة التي تحرقها الشمس أو تغرقها البحار».

مرَّا من تحت جسر الجلاء الحديدي، «جسر الصمود» بحسب التسمية الرسمية من قبل الحكومة التي تتفاخر بكونه لم يتحطم في القصف الأمريكي للمدينة عام 1986. بدا الجسر صلباً، لكنه يصدر أصواتاً جوفاء عند مرور السيارات عليه، وأن صموده كل هذه المدة غريب بالفعل، ولا بد أنه سيظل صامداً لسنوات أخرى. مستقبلاً سيضع تصميماً يظهر صمود المعالم في المدينة، ليس للأسباب التي تروجها المنظومة الحاكمة، إنما بسبب أنها معالم ما تزال ضرورية لذاتها، تصمد لأجل ذاتها، تقاوم انتهاء أعمارها الافتراضية، كأن الدولة والمنظومة الحاكمة تنازع لا المعارضين السياسيين والشعب فقط، بل حتى

طبيعة البلاد نفسها، فهي تعاند الجبال والصخور والرياح، البحار والحيوانات الصغيرة والكبيرة، والضوء المخصص للدولة وحتى الوجود نفسه.

«الجسر كان يُدرك هذا». كتب في يومياته: «يستمع للسعادة الافتراضية خلال الإذاعات ويصمد واقفاً، إنه مواطن آخر ينتظر ما لا يأتي».

«هل تعتقد أن للصور أهمية محددة؟». سأل حسان.

«أظن أنها ممتعة، تعطي أفكاراً للناس».

«أعني أنت تصمم الصور ولا تلتقطها، صحيح؟».

«نعم، هذا صحيح».

«لماذا لا تصور فحسب؟».

«أعني أن الصور لا ذاكرة لها، أنا أود صنع ذاكرة، أود أن أصمم، إنها تجعلني أشعر وكأنني أكتب، هناك الكثير من التفاصيل التي في ذهني ولا يمكنني صنعها في الواقع، بالتالي التصميم واقع بديل».

«ألديك أفكار معينة؟».

«نعم، في النهاية الأفكار حاجة زمنية».

«زمنية؟».

«ما يفرضه علينا الوقت، النضج والمعرفة».

«بالنسبة لك في ماذا تفكر حالياً؟».

«لديَّ المئات، ربما الآلاف من الصور، أظن أنني في عمق شيء ما مهم لا أمتلك ناصيته بعد».

«هل لغتك دائماً صعبة هكذا؟».

«ماذا تعني؟».

قصر صوت الأغنية.

«تبدو لي كأنك تستخدم كلمات صعبة مثل ناصية».

«لا أعرف كلمات غيرها».

«حقّا؟».

«هذا مثالي أن أتحدث بهذه اللغة، أكسر حدودي».

«حدودك؟ أتعتقد أن اللغات حدود؟».

«إنها كذلك».

«هذه فكرة حلوة، احتفظ بها».

ابتسم له.

كان يعبران طريق الجلاء، بعد جولة حول طرقات المدينة وجدا نفسيهما داخل الزحام، سيارات متوقفة وأبواق تُطلق فيما يعبر الأطفال والنسوة، إنها فترة فتح الزيارات، من يتعلم أسرار المدينة لا يمر خلال هذا الوقت من أمام الجلاء حتى لا يجد نفسه محشوراً بين السيارات والضوضاء.

«طوال الطريق أخذتُ أستمع لموسيقى الراي، ذهني يفرغ نفسه، أحياناً أرى ما يستحق التأمل، فأكبح ذاتي، أترك نفسي أنساب مع الطريق والموسيقى مستغرقاً في التفكير ثم أعود لأتطلع إلى الطريق من دون أن أحدد شيئاً، ليتبعه ذهني، فضلتُ أن أستمع بكوني في سيارة مع صديق، وهو طابع لشبان المدينة، مغالباً الإحساس الهائل للكآبة، فاتحاً عيني على اتساعهما، بحثاً عن مزيد من الصفاء والنور، مزيد من الخلايا المتفتحة في ذهني».

وصلا المبنى بواجهة زجاجية زرقاء، بَدَت معتمة قليلاً، نزل شاعراً بالبرد متعجباً من الضوء الشاحب المنبعث من عمود الإنارة، تبع حساناً، وقد دفع الباب الثقيل فانسابا للداخل، سمع موسيقى ريفية هادئة وصوت خرير المياه مثل الذي كان يُستخدم في بهو الفنادق الليبية مؤخراً.

شاهد فتاتين تجلسان عند الزاوية على كنبة وثيرة فيما أومأ حسان لشاب وراء مكتب الاستقبال، فسارا صاعدين الدرج حتى الطابق المطلوب، دفع حسان باباً على اليسار، فدخلا إلى مكتبه، حيث مقر عمله.

على جدران الممر القصير توجد ملصقات عالمية دعائية بابتسامات أوروبية وأفريقية ناصعة، أطفال من أعالي التبت بملابس ثقيلة من شعر الحيوانات، بدت رائعة في ألوانها الداكنة، بالرغم من ذلك بدتْ الصورة مشرقة بالآمال، ثم أتبعها بأخرى حتى غدتْ سيلاً من الضحكات المنسابة كالأضواء ثم غمرتها تماماً. في الصالة تقسيمات ممتازة، مكاتب لفتيات ساحرات، حين شاهدن حساناً اندفعن إليه ينادينه لمشاورته في أمور شتى ثم حين شاهدنه بدَوْنَ بشكل جدي فجأة، لا بد أنه كان مسحوراً بهن، عندما وقف عند المدخل تاركاً حساناً يتقدمه بثقة بالغة بدا كالمسحور فعلاً وكن ذوات حيوية عظيمة بابتسامات أدرك أنه كان يحتاج إليها.

«زميلنا الجديد، أخبرتكن عنه». قال حسان.

«أهلاً، أهلاً». قلن تباعاً.

موجة لطيفة من التحيات مثل الكورس الكنسي، يبتسمن، فيرد عليهن بابتسامات مماثلة، سرعان ما وجد نفسه على طاولة وسط الصالة، حوالي سبع فتيات منهمكات في التصميم الصور والاستماع لنجوى كرم، التي أخذت تشعر بالغرابة حتى بدأ قلبها الصغير بالارتجاف من دون الشعور بالبرد.

اقتربت منه في اليوم التالي فتاة مراهقة، في الخامسة عشرة تقريباً، قالتْ إنها تود دراسة التاريخ أو الجيولوجيا، انحنتْ متطلعة إلى صورة كان قد أنهاها سريعاً ثم سألته عن الصورة، فبدا لها الأمر مدهشاً. تحدثا كثيراً حول تصميم الصور وفي إحدى المرات، جلستْ بالقرب منه.

«الصورة مصممة، الخلفية غير حقيقية، العينان كذلك». ضحك وهي تكتشف الأسرار ضمن الصورة التي على شاشته، الألوان، الظلال، الخلفيات المتعددة وانسياب الشعر على هيئة أحرف عربية، أحرف مصممة بأسلوب إبداعي بحيث تبدو كأنها قصص صغيرة متساقطة، مثل قطع التوفي، كلها مصممة من مئات الصور الصغيرة عن ذكريات متعددة متعلقة بجوليا روبرتس.

«رائعة حقّاً، كم استغرقت منك؟».

«أسبوع تقريباً منذ بدأت العمل عليها».

«إنها صورة رائعة».

«ليست صورة واحدة، بل بالضبط 272 صورة، في كل تفصيل منها تحمل معنى مختلفاً عن الصورة الأخرى، إنها لوحة مصغرة، يمكن تكبيرها واكتشافها لفترة طويلة».

ساد الصمت.

كان حسان قريباً.

حين عرف بها، أصر على سحب الصورة في مقاس كبير، حين سحبها، بدتْ الصورة بأروع مما في الجهاز، بالنسبة للشاب كانت تلك الصدمة مدهشة، جعلته يرى الأمر من منظور مختلف، فجأة إحدى لوحاته بهذا الحجم، الألوان، القصص السرية والحوارات، المشاعر غمرته مثل موجة قوية.

«إنها جوليا روبرتس». قالت الفتاة الصغيرة.

أثناء الغداء غرق في حوار طويل معها حول التصميم وجوليا، صدف أنها أكثر الممثلات حضوراً في حياتها، كما أنها دهشتْ من قدر التفاصيل الصغيرة في الصورة، فوجد فرصة ليردد جملته الخاصة.

«الجمال تفصيل صغير من الذاكرة». هكذا قال مبتسماً.

«حقّاً، أين قرأت هذا؟».

«هنا». أشار بسبابته إلى رأسه.

ابتسمت ثم قالت: «تبدو معجباً بنفسك».

«ألا يجب أن أبدو؟».

«لا، هذا مرهق بعض الشيء، أعتقد أنك تقطع الحديث».

«أبداً، التواضع أكثر إرهاقاً».

«هذا نوع من الفخر».

«أعجبني رد فعلكِ، كان مدعاة للفخر فعلاً».

«احكِ عن جوليا».

«ماذا أحكي؟».

«أي شيء، أريد معرفة علاقتك بها».

«أنت حقّاً جيولوجية».

«لماذا تقول هذا؟».

«لأنك تحبين التنقيب، هذا ما تفعلينه».

«ممتع أليس كذلك؟».

«جدّاً». قال بنبرة المتشكك.

أحنتْ رأسها قليلاً.

«ألا ترى هذا؟».

«أحياناً، تبدو مجهدة».

«هل تعبت؟».

كانت تعبث.

«لحد الجنون». قال الشاب، ولم يعد يعتبرها صغيرة، كان مخطئاً في تقدير عمرها فحسب.

«يحزنني أن يكون وراء هذا الجمال، كل هذا التوتر».

«إنها طبيعة الحياة».

«هل هذا طبيعي؟».

«لم أعد أهتم حقّاً، ذكرياتي هي الأهم، هي موجودة ضمن الصور، التفاصيل التي تحدثنا عنها قبل قليل، لا أحتاج إلى إيقاظ الشيطان الخاص بي».

ضحكتْ.

«شيطان يسكن لوحاتك».

«أترين هذا؟».

«أرى أنك هو ذلك التفصيل، الذي لا تريد إيقاظه».

ضحك الشاب عندها بصوت عالٍ.

«لا تجعليني مهمّاً بهذا القدر». قال الشاب.

«لا مكان للأهمية هنا، إنها الأشياء التي تبدو غير مهمة». صعقه كلامها لوهلة، فتح عينيه على اتساعهما، بشكل ساخر، لا شك أدركتْ أنه احساس كاذب لحقيقة قام بكتمها.

«أنت تعرف هذا جيداً، من السهل رؤيتك في تفاصيل اللوحات، حتى بالنسبة لي أنا التي لم أعرفك إلا لأيام، واضح أنك هنا».

«ألا تجدين نفسك؟».

«ربما بعض التفاصيل تعنيني، إنما لا».

تطلع إلى وجهها الصغير، إلى عينيها الذكيتين اللتين أخذتا تبرقان على نحو مربك ثم ظهرتْ أسنانها الناصعة في شروق مبهج. أحس بنمو في ذاته، شاعراً بأنه صاحب رفعة جنونية، بدا هذا مربكاً، ما الذي يحدث، أغمض عينيه لثوان ثم أحس بأنه غير مسيطر على أعصابه وعواطفه.

«لا شيء خاصّاً، إنها مجرد أوهام». قال هذا.

«حقاً؟». سألتْ بهدوء: «ظننتُ أنك ترسم عن الذكريات، عن مشاعرك وعواطفك الخاصة. العالم من حولك كما تحب أن تراه، تخاطب الناس بعالم غير مفهوم لمزيج من أحاسيسك، عن ألف ليلة وليلة، لا تمتلك زمام ذاتك، أنت عصبي أكثر مما يجب، تحب الاجتماع أكثر مما يجب، تنكر هذا، أنت غير قادر على الاجتماع، ربما تحمل سرّاً ما يدفعك للعزلة، ربما أنكرتك فتاة تحبها، أو أنك اكتشفت أمراً ما، هذا واضح في لوحاتك، قمت بأشياء عظيمة هنا، استفدت من لوحات كبار الفنانين، حسناً إنها لوحات نمت بعيداً عن العواطف الطبيعية، الإحساس البشري بالألم، بسبب نقص العواطف، لكنها حركت عواطف الملايين عبر العصور، لست أحلل، لأنني ببساطة لستُ محللة فنية» ضحكت برقة ثم قالتْ متسائلة: «هل هناك وظيفة تدعى بالمحلل الفني؟».

من شدة إعجابه بها كتب في يومياته صفحات كثيرة، منها هذه الفقرة: «كنتُ مصدوماً من كلماتها، من رغبتها للاتقاد، للمرة الأولى، أشعر ناحيتها بالانجذاب الجسدي، كنت أراقب تقلصات رقبتها المكشوفة من صدرها، خدَّيها، التوتر الظاهر على جبينها، ذراعيها، أتخيل بطنها المشدود أسفل القميص القطني المشدود بدوره، كانتْ عرضا هائلاً للعضلات، الأعصاب، المشاعر التي تعتمل تحتها. كانت كلها سيمفونية محمكة الضبط».

تلك الفترة انتهت بتجربة الاعتقال!

33

حدث هذا في 2007.

عاد إلى غرفته، فتح جهازه، جلس يستمع لهديره العالي. شاعراً بشيء من السحر بعد أيام من التيه والانهزام، تناول شطائر واشترى كتباً جديدة، فانيلا شتوية رمادية عليها صورة خرتيت مدرع، تمدد على سريره متطلعاً إلى الضوء الرمادي في السقف، استرخى كامل جسده.

تلقى أموالاً تركها حسان لأجله.

قدمها له الطبيب النفسي، وقد بدا متأسفاً وحزيناً بسبب فقدان حسان.

«يجب أن تحصل عليها». هكذا قال الطبيب.

«لا أظن أنني أستحقها».

«إنك تستحقها، لا تدَّع غير ذلك، لم أر حساناً متحمساً لشخص كما تحمس لك، إنه لا يتحمس بسهولة، بدا لي متوازناً طوال معرفتي به، إنه ابن أختي لكنه قضى حياته في الخارج، ثم إنها ثمن لوحاتك التي بيعت، إنها نسبتك منها».

خمسة آلاف دينار ليبي!

قرابة ثلاثة آلاف وثمانمئة دولار أمريكي!

«ماذا ستفعل؟». سأله الطبيب النفسي وهو يُشعل سيجارة.

«لا شيء». أجاب.

«عائلة حسان تركت البلاد».

«سويسرا؟».

«نعم، هل تقصد أنك ستظل في بنغازي؟».

«لا مكان آخر».

«أتظن أن هذا جيد لك؟».

«أعتقد، لا مكان آخر لي».

«لطالما تحدث حسان عنك».

«حقّاً؟».

«كان يعتقد أنك فنان».

«هكذا هو يحب أن يعلي من قيمة الناس».

«هل تعتبر ذاتك فناناً؟».

«لا أعتبر نفسي شيئاً».

فقال وهو يقترب واضعاً يده على كتف الشاب: «أعتقد أنك فنان، بدوري رأيتُ لوحاتك، إنها عظيمة».

«شكراً».

«كيف بدأت في هذا؟». فقال إن صديقاً كان يهوى الفوتوشوب، يصمم صوراً أنيقة، شاهده عدة مرات عمل، فشعر بأنه يجب أن يعمل هذا بدوره، وأنه يحتاج إلى عمل فني، شيء يمس روحه كالإيمان، لا يمكنه أن يؤمن بالأسلوب الباهت الخالي من التورط.

«لست متكبراً إلا أنني أستمتع على هذا النحو». هذا ما قاله للطبيب يومها: «تعلمتُ الأساسيات منه».

«لا بد أنه أستاذ فريد».

«بل موظف في شركة نفطية وقد ترك التصميم».

«غريب». قال بأسف.

«أتعتقد؟».

«أليس غريباً بالنسبة إليك؟».

«أرى بأنها طبيعة الحياة». قال الشاب.

«نعم، صدقت».

ألقى بسيجارته عند حافة الرصيف.

«أتعرف، لا أظن أن بقاءك هنا أمر جيد». قال منبهاً.

«لا مكان أذهب إليه».

لسبب ما بدا متفهماً لهذا التبرير.

«عد إلى الجنوب». قال بأسلوب مباشر.

«لا أستطيع، هذا بمثابة العودة إلى الجحيم».

«بنغازي جحيم على كل حال، بالنسبة إليك، إنهم يسحلون عبر الطرقات».

«لا مكان آخر لي». قال الشاب بحسم، فشده من يده مخفضاً صوته، كانا بالقرب من مكتبة علي الفزاني.

«فهمتني جيداً». قال موضحاً: «إنك مراقب من قبل أن تأتي إلى بنغازي. سمعتُ عن وجود ملف عنك، لديَّ معارف كما أخبرتك، ظننت أنك واشٍ لكنك مراقب أيضاً، ربما لهذا تم كشف حسان، اللعنة، اسمع أنا أعرف أنك بريء، إنما هم لا يصدقون، أنت في خطر، قل ماذا فعلت في الكفرة؟».

كان يستمع إليه مشتتاً، أدرك أنه لا يحس بواقعية ما يحدث، إحساس غريب أفقده القدرة على التخيل أو استيعاب ما يجري من حوله. كان الطبيب يتحدث متسائلاً عما حدث في بلدته، لم يكن يعرف ما حدث جيداً أو أنه لم يرد أن يظهر بأنه يعرف، لم يرد أن يقول إنه تورط في فعل أي شيء.

«إلا أنني أعتقد أنني اشعر بالذنب دوماً كأنني فعلتُ شيئاً». هذا ما دونه في يومياته فيما بعد: «قضيتُ سنوات محاولاً محوه من ذاكرتي».

صديق قديم زاره قبل تلك الفترة بمدة بسيطة، كان يعمل في المقهى وكان الوقت قرابة الظهيرة، لم يكن هناك زبائن، جلسا في ظلال قامات الدوم، يراقبان حركة الظلال على التربة الرمادية المروية، لاحظا أنها ليست مثل تربة الجنوب، لم يكن شيئاً مثل الحياة الجنوبية، هناك اختلاف واضح، اعتبرا أنها اختلافات ذات صفات سياسية، كانا على طريق المطار، علب المشروب الغازي باردة بين يديهما، قناني المياه المعدنية على الطاولة.

«سمعتُ عن شيء». قال الصديق.

«ماذا؟».

«ذكروا اسمك، أعني في اجتماع أمني».

«لماذا يذكرون اسمي؟».

«إنهم يتهمونك بأشياء».

لم يسأله عن طبيعة التهم.

«إنهم يعتقدون أنهم دخلوا إيميلك الشخصي، فوجدوا معلومات مرسلة».

لم يكن هذا صحيحاً.

لم يشعر بالخوف.

روى للطبيب عن هذه الحادثة.

استمع بانتباه، سأل إن كان قد أقدم على شيء ما في البلدة، فشرح له عن منظمة صغيرة كان من المفترض أن تحمل اسم «الملتقى الفكري للشباب» وأن الأمن طلبوا ملفات وبيانات شخصية لتأسيسها، لكنهم أنهوا الموضوع سريعاً، من دون تقديم أي ملف.

«ما داموا لم يقبضوا عليك، فإن هذا ليس بمهم، لكن كما قلت لك ما تواجهه في هذه الأيام يجعل من كل ما حدث في ماضيك تهمة مؤكدة. إنهم ماهرون في استدعاء الماضي».

لم يكن يمتلك إلا أن يستمع بصمت.

«صديقك الذي أخبرك، ما مدى ثقتك به؟».

«بلا حدود». قال بلا تردد.

«إذن، اخلق حدوداً الآن». قال الطبيب بحسم ثم أضاف: «إنهم لا يضمون لزمرتهم أحداً إلا إذا وثقوا بأنه سيقتل والده بأمرهم، ما دام صديقك معهم؛ فهذا يعني أن ثقتك به أشبه بالانتحار».

لم يعقب الشاب.

سارا لمسافة بسيطة.

«خلال أيام سأسافر، أنصحك بالمثل».

«نعم». أجاب.

كان الشاب قد بدأ يرى بوضوح.

«داخل غرفتي شعرتُ بالتيه». قال لفتاته وهو يروي لها عن تفاصيل حياته من تلك الفترة: «لا أعرف السبب، كنتُ أرتب فراشي، عندما شعرتُ بتوتر عاصف، بدأ جسدي يرتعد من الداخل، من الخشية، جلستُ على حافة السرير،

فوقعت عيني على كتاب «الجياد الهاربة» لليابابي يوكيو ميشيما، فظللتُ أحدق فيه باتصال محاولاً فهم ما يحدث لي. ألم في صدري عميق، أخذ يندفع بسرعة خلال جسدي، حاولتُ الاستلقاء، فبدأت أسعل متألماً دون أن أكون بقادر على التحكم بنفسي، أحسستُ بأنني كنتُ أجرح صدري من الداخل بالسعال الجاف، سكاكين تقطع كل جزء مني. لوهلة تذكرتُ أيام الاعتقال الأولى».

كتب الشاب ضمن يومياته: «الاعتقال أعتق سراح عقلي، توهجتْ الأفكار كالحباحب المضيئة في الظلمة، طوال شهر التقطتُ المئات منها حتى إنني شعرت بالثورة، فبدأتُ أشعر بتداعي الأسوار والحواجز، حرّاً أخيراً من ذاتي. صرتُ قادراً على التحدث إلى نفسي من خلال الصور».

34

«كلانا نعاني نفس المعضلة». هكذا قال الشاب للحصان الأبيض فيما كان يشرع بالتحرك باتجاهه ثم يحجم، يرخي جسده ويحرك رأسه مراراً كأنه يحاول أن يقول شيئاً ما أو أن يعبر عن أمر ما.

ابتسم له الشاب.

«تبدو رائعاً، كم أنت جميل بهذه الحركات».

في تلك الفترة نفسها تقريباً تعرف على المسن.

«كان يبدو منهكاً، قادراً على تفجير مدينة بأسرها، لا يشبه أي شخص أعرف، فيه شيء حميمي، يجذبني إليه مع أن فيه تلك الصفة. دائماً هناك أشياء خفية تجعلنا ننجذب للآخرين، إنها الدقائق الصغيرة التي تحمي إنسانيتنا. العزلة كانت مرعبة بسبب إغرائها المقلق، بمعرفة حسان استطعت كسرها بشكل كامل، ثم حين انهارت تلك العلاقة بالقتل العنيف، داخل سجون الاستخبارات والأمن العام، عدت لدائرتي الأولى. أصبحت العزلة أشبه باللعنة التي لا يمكن الفكاك منها».

هكذا قال لفتاته بين الأرفف.

بدا ضمن هالة باهرة من الإلهام!

«الرغبة انقضتْ، التأثير انتهى، الجاذبية لم تكن متوفرة؛ لذا غصت عميقاً في ذاتي؛ بحثاً عن الصور والأحلام ودقائق المدينة، راقبت النوارس، صرت أعرف بعضاً منها ، أميزها من حركاتها، تحليقها، واحد من النوارس يظل معلقاً في الهواء على نحو باهر، قبل أن ينقض على غذائه في المياه، يخترق المياه وأسراب الأسماك الصغيرة، في لقطة حاولت مراراً تصويرها بدقة، فشلتُ في كل محاولاتي أن أفسر ما كان يحدث أمامي، فالكاميرا التي استخدمتها لا تجاري سرعة الصيد. فضَّلتُ الجلوس لأراقب العملية بهدوء شديد، وهذا ما فعلته طوال شهرين كاملين. أثناء لحظة تنوير مذهلة، رأيتُ فيما يشبه الحلم، أجنحة تخفق، جسداً يرتعش، مياهاً مضطربة وسرباً من الأسماك ضمن الأمواج بلونها البني اللامع، التيار القوي، السفن البعيدة الجاثمة بكسل شديد، الشمس التي أرسلت تلك الأشعة القوية. استطعتُ أن أرى عيني النورس الحوام، فبدتا جشعتين ومنتبهتين، فيهما تركيز جنوني، حين انحدرتُ، كانتْ إحدى الأسماك تعلو في لحظة طائشة، قطرات المياه والزبَد،

الصخور البنية والطحالب التي تتكدس على رمال الشاطئ، اصطدم منقار النورس بسطح المياه، التقط الصيد، ارتفع على نحو مفاجئ تاركاً تلك القطرات التائهة تعود للبحر، وذيل السمكة يرتعش بلا هدف، كانتْ القصة قد انتهتْ».

بهذا الهدوء وضع خيوط القصة التي أراد دوماً العمل عليها، طوال تلك الأسابيع بحث عن أفضل صور النوارس وهي تصطاد. لم يكن يجد إلا صوراً لنوارس تلتقط الأحشاء المنتزعة وأخرى على الصخور الملساء فيما البعض تهاجم الحشرات أو تدخل إلى أعماق المدن الساحلية، تحط بالقرب من السلخانات المرتجلة عند الموانئ الصغيرة، أسوق السمك عند حواف القوارب وعلى متن البواخر العظيمة، كما وجد مجموعة من صور قديمة لنوارس كانتْ تصاحب إحدى السفن الشهيرة التي غرقت في القرن الماضي. أكثر صورة إتقاناً تلك التي التقطتها فنانة اسكتلندية على مرفأ اسكتلندي صغير، يقع عند نهاية رحلة قطار هاري بوتر الشهير حيث ترسو بعض القوارب الخشبية العتيقة، تحمل أعلاماً جميلة الألوان وأشكالاً أسطورية رائعة، إلى جوار نوارس ناصعة في خلفية فتيات بلباس الشعبي.

ذات الصور بالأبيض والأسود، مشاعر هادئة لزمن قديم، بار خشبي بلافتة تحوي أحرفاً محفورة بإتقان، تتدلى معلقة بسلاسل ذهبية رقيقة، يغزوها اللون الأخضر ببطء شديد وأخرى ملتقطة لنورسين ناصعين يتصارعان متقابلين بشكل ساحر، بعد أن سرقا سمكة من سلة فتاة أخرى، مجمدة في قفزة رائعة أظهرت الكثير من حيويتها، لم يفهم القصد من هذه الصورة مباشرة، تطلب منه هذا أكثر من سنتين لفهم ما أرادت الفنانة أن تقوله ببساطة.

«في إحدى الليالي عرفت السر بوضوح». قال لفتاته: «اشتعل رأسي، لكنني لم أدون شيئاً عن المسألة، نسيت تلك النتيجة اللحظية التي أتذكر أنها كانتْ باهرة. ففي اللحظة التي خلقتُ فيها صورتي عن النورس الغاطس، شعرتُ بالروعة، غمرني إحساس بالنمو المفاجئ حتى إنني تشاجرت خلال ذلك الأسبوع ثلاث مرات من شدة الحماس، داخل المقهى الذي عملتُ فيه لأشهر محمومة. كان يحق لي أخذ تلك الأشياء كما فكرتُ لأنني أبدعتُ تلك الصورة الكاملة، لقد أضفت إلى الطبيعة أشياء جديدة، توهمتُ أنني صححتُ ما كان ناقصاً، في الليالي كنتُ أحدق في «صورة النورس» الغاطس، أراقب التفاصيل، كل شيء من الحياة كانتْ تكمن في تلك البقعة الصغيرة، استغربت لحركة الريش، الرياح، قمم البيضاء للأمواج التي كالإوز. مواطن القوة في الصورة كانت معروفة، إنها في كل مكان من الصورة التي جعلتها رسالة شخصية مني للعالم. وضعتُ فيها أكثر المعاني التي تخص الاحترام والمداومة، إنها جزء من المبادئ التي تعلمتها طوال سنوات لخلق الصورة الكبيرة، المفعمة بالمشاعر الإيمانية الحقيقية. لأيام عشت الجانب الآخر من الجنة. الجانب المعتم داخل «تفاصيل الصورة» حتى تلك اللحظة كانتْ الصورة الأكثر كمالاً ضمن مجموعتي، إلى جانب القصص القصيرة المقتطعة من أجزاء الملاحم الكبرى من القصص التبو الشعبية، الأوديسا، سيف بن ذي يزن، السحر والضرب على الرمل، الهولندي الطائر، الرسوم الكارتونية، الأعداد الأولى من المجلات الهزلية، الحرب العالمية الأولى، الحرب العالمية الثانية، ما بين الحربين، معاهدة فرساي، سارتر وسيمون دو بوفوار، ألبير كامو وباراغاس يوسا الشاب، الملك إدريس والشلحي، الحقيقة والشمس، الصادق النيهوم يكتب أمام مقبرة الصابري، إبراهيم الكوني داخل بار في إيطاليا، مكتبة التليسي، هانيبال والأفيال،

حمامات شحات، بحيرة قبر عون، واحة في الصحراء، العلامات الـ 36 للتبو على مخطوط قديم من تمبكتو، برجي التجارة، جبال تورا بورا، القوى المتحركة من خمسينيات القرن الماضي، الاغتيال الأول في بنغازي، قتل الرحالة البريطاني غوردن لاينغ، لينين بجبهة عريضة وغير منتظمة الشكل والسندان السوفيتي، لحية كارل ماركس والمنجل السوفيتي، قبور الجنود المجهولين وهي خاوية إلا من صلف القادة المزيفين، القصائد الصينية الحمراء على أجساد الصغيرات كالفتاة اليابانية الرائعة عبر مواقع العارضات، الموديل اليابانية Yui Aragaki في وضعيات حالمة، وهي تصعد على مدى السنوات لتغدو النجمة الآسيوية الأكثر شهرة في مجال الترفيه، صورها كانتْ فيها تلك اللمسة من الجنة التي تفقد. طوال السنوات من 2007 حتى هذه اللحظة صوري تنمو بموازاة مع الطبيعة البديعة في جسدها الفتي، المكتبات الخيالية في الزوايا المعتمة، الأسلحة التقليدية للقبائل الأفريقية، أكواب القهوة الصباحية مع الأبخرة المتصاعدة والمتلاشية في الفيض الصباحي، الرقصات الفلكلورية للشعوب الأصلية، المهاجرين على متن قارب صغير مكتظ، مغني راب على المسارح في أوقات الذروة، إسقاط كرات مشتعلة، ولبن ناصع ينساب من فم أنثوي، سحب ريشية تعبر بهدوء فوق جبل بركاني خامد، نمور تحدق من فوق أشجار ورافة الظلال، أفغانية أمام جندي من المارينز، فوهة بندقية معتمة تحت سماء صافية، رافعات ميناء صدئة، فتاة جامعية تقرأ باستغراق تحت شجرة أكاسيا، جنود طليان عند الشاطئ الليبي صيف عام 1912، أحمد القرمانلي وهو يتفحص رسالة الباشا أثناء سفره إلى شيوخ الغريان، شهاب ساقط مع إصبع موجَّهة إليه، من إحدى صفحات الفيس بوك: طفل يرتدي ملابس رائد فضاء. ماذا تحب أن تغدو حين تكبر. أريد أن أصبح معلماً. ولماذا ترتدي بذلة رائد فضاء؟ لأني لا أعرف ما يرتديه المعلم. أراقب الصورة باهتمام، كيف يمكن شرح هذا الجنون من دون كلمات. كيف أخلص صوري السياسية والاجتماعية من الكلمات، لم أعرف قط، مع ذلك قضيت الوقت في جمع الصور، مثل البولندي الذي عبر بلادنا أثناء ثلاثينيات القرن المنصرم، نوم هادئ متناسق كصورة لعنق راقصة باليه، الأوائل على جدران الكهوف في عمق الصحاري، البطاقات البريدية التي تصور المجاهدين والأساتذة الليبيين من عام 1911 يشبهون إلى حد بعيد الروائي البرتغالي خوزيه ساراماغو، الصادق النيهوم يركض ثملاً في شوارع هلسنكي أمام باعة السجق، هارون الرشيد في جلسة سمر، بركة البحتري التي تشبه قصر سليمان الملك، الراقصات الأندلسيات في مراكش، نظرات الأمازيغيات كحدِّ الموسى بأنوفهن المعقوفة كأوروبيات تائهات، بخصلات كثيفة من الشعر الذي يغطي أنصاف عيونهن الشقية، عمر المختار في الأغلال الصدئة، سيارات رالي باريس– داكار التي عبرت صحراءنا ذات يوم، هياكل قديمة غارقة في الرمال لسيارات فُقدت على غفلة من أهلها، أسلحة نارية بأيدي القرود، دوستويفسكي العظيم أمام مجمع الأدباء يتحدث عن بوشكين، القتال الأهلي في شوارع بيروت، الأيقونات الدينية والحروب الأهلية، استمررتُ على هذا المنوال».

صمت كأنه انتشى بسبب صلاة عميقة.

أغمض عينيه لوهلة ثم فتحهما.

«لم أترك حدثاً مررت عليه إلا وضممته إلى مجموعة صوري». قال مكملاً بذات النبرة الإيمانية: «بالأبيض والأسود وأحياناً تغدو الألوان الباهتة أمراً ضرورياً، أدركتُ مبكراً أن اللعبة تكون بالأضواء والظلال. تماماً كالكهل الأبيض عند الميناء، كالحصان الذي شاهده الرسام الهولندي فان غوخ مهملاً في زاوية معتمة، متروكاً هناك في وضع بائس وباعث على الحزن، يقود للتفكير حول السقوط وفقدان التأثير والجاذبية. وصفه فان غوخ تماماً كما رأته والتقطت فنانة أمريكية تدعى آن باري Anne Berry صورة متقنة بعنوان حصان في الظل Horse in Shadow كنت كلما أفتح الإنترنت أقرأ ضمن مدونتها تلك الكلمات المنسوبة لفان غوخ: «أنا أحلم برسوماتي ومن ثم أرسم أحلامي». إنجيل فني خالص، أن أحلم بصوري، بتصاميمي، أن أخطط تلك الأشياء التي أراها مسبقاً في أحلامي بحثاً عن واقع الحياة، عن اهتماماتي بالحقائق المخفية وراء المشاهد الطبيعية».

كان قد قرر أن يجعل منه أيقونة خاصة بتلك الحقبة من حياته، فطفق يبحث بهدوء في كل جزء منه: ساقيه القويتين المنهكتين مع صدره المترهل الذي ينتفض بأناقة وكفله المشدود مع أنه فقد الشعر من عليه، وأخذ الذباب يدور من حوله بالإلحاح يحاول جاهداً إبعاده بحركات دائرية من ذيله تنال من وقاره، لكنه دوماً يستعيده باقتدار بحركة واحدة وبمشية تظهر مدى قوته العضلية.

«أنت مليء بالحياة». قال للحصان الحزين.

لم يهتم مطلقاً.

«أنت لا تسترخي، تظل مشدود الأعصاب، لا تحتمل الارتخاء كما لا تحتمل اللحظات التي تبدو فيها تافهاً، أوه يا صديقي، الأمر محزن ولا شك، لكنك لا تمتلك إلا هذا الشقاء، أنت فقط، لا تمتلك سواه، لذا تعيش وحيداً».

قال هذا مع قفزة سمكة من المياه، شاهد طرطشة القطرات لكنه لم ير إلا الظلمة التي خلفها جسد السمكة، لا بد أنها كانتْ كبيرة.

«قبل سنوات لا بد أنك كنت قويّاً». أحنى الحصان رأسه ثم اعتدل ملتفتاً ناحية المياه التي ازدادت ظلمة في الأعماق، فيما أخذت انعكاسات الضوء تهتز كأجساد محمومة. حكَّ الحصان بحافره الرمال السوداء، عند جدار الميناء، كانت القاذورات تنسكب باتصال. عدة سمكات ترتعش على بقايا الأكياس والعلب الفارغة التي تم إلقاؤها على الشواطئ ومع الموجات القصيرة الناعمة، تنجح بعض الأسماك في الإفلات إلى المياه العميقة، فيما أسماك أخرى سيئة الحظ تقع بسبب موجة قوية على البقعة الإسمنتية لتموت بعد صراع عنيف.

عندما وجد تلك الصورة للحصان الأبيض المنهك، تساءل: «ماذا تفعل هنا؟». إحساس عميق بولادة شيء قديم، شيء ظن يوماً أنه قد مات للأبد، اقترب من الشاشة وأغمض عينيه قليلاً، غاص في الظلمة من الرؤى الشخصية ثم فتحهما.

«لم يكن الأمر إلا اهتماماً مبالغاً فيه، لكن اهتمام مبالغ فيه مبرر على كل حال، قلت لنفسي ثم وضعت دفتري على فخذي وبدأت أكتب ما أرى. لم أكن أعرف ما قاله فان غوخ، آنذاك. عرفت هذا بعد سنوات بالمصادفة فيما كنت أبحث عن صورة لحصان منهك، فوجدتُ حديث آن باري، المهتمة بتصوير الحيوانات المهملة، لتظهر في أوضاع نادرة ومثيرة للمشاعر، تُلغي كل شيء من حولها، ليظل الحيوان في كيان مستقل لوحده، حيث لن ترى كمتلقٍّ ضمن الصورة إلا تلك الشخصية الجديدة والفريدة للحيوان».

حين شاهد صورتها للحصان الأبيض للمرة الأولى، أحس بالغرابة تحيط به كأنه داخل فقاعة دافئة يقف وجهاً لوجه مع الحصان الخاص به. كبر الصورة وطفق يتطلع إلى بدن الحصان لساعات متفحصاً. العينان المعتمتان. الخطم الجاف وعليه تلك الشعيرات المتناثرة، نفس الحزن المميز، ذات المسكنة والبقاء في الظل.

شعر بإحساس غريب بلقاء صديق قديم.

«ها أنت مجدداً». قال وهو يلمس الشاشة بأصابعه.

«أحسستُ بالدموع تلتهب في عيني، لم يكن هذا اللقاء عادياً، الدموع لم تعرف طريقها إلى عيني منذ زمن. هززتُ رأسي عدة مرات ثم أخذتُ أطالع الصورة باهتمام شديد أخذ يزداد مع الوقت».

استعاد ما حدث قبل سنوات.

بعض الأحداث لا تموت!

تائهاً ضمن عقله، شاعراً بصخب الماضي من حوله روى لها حكاية شتوية.

«كنتُ في حلم وكنتُ برفقة الحصان الموثوق عند الميناء. حين تحرك الحصان، أصدرت السلسلة الصدئة تلك الضحكة المكتومة وتضحك أيضاً، أتستعمل قيودك للضحك؟».

ظل الحصان يتحرك فيما استغرق في تتبع حركاته، في تلك اللحظة قفزت سمكة ضخمة من البحيرة مخترقة المياه، غاطسة في أضواء المدينة، بجسدها المبلل، اللامع كحد سيف هندي.

«أتعرف؟». قال للحصان الأبيض الذي توقف متطلعاً، ثم أضاف: «أتعرف أن هذه اللقطة تصلح لأن تكون رمزاً لمدينة بنغازي، السمكة القافزة من المياه! تصلح كرمز لأية مدينة على ساحل المتوسط، المتوتر دوماً بقلقه الوجودي، مرافئ بيروت، مارسيليا، الساحل الأزرق، إسكندرية، كل مدن الفينيق، يمكن أن تستخدم السمكة القافزة كرمز لها. الحياة ليست سوى لقطات نعيشها، لم تعد كما في السابق».

لم يهتم الحصان كثيراً.

«ظل يلتفت يمنة ويسرة، عندها لاحظتُ ذلك الجرح المتوحش عند نهاية القدم وبداية الحافر. نزلتُ على التربة السوداء، ببطء اقتربتُ منه. في حين تراجع الحصان قليلاً، هازّاً رأسه محتجّاً عدة مرات. لم أكن أعرف سبب اقترابي منه بتلك الحرقة الأبوية، كأنني خبير جنائي تطلعتُ عن قرب إلى جرح الحصان. لم يكن جرحاً صغيراً كما تخيلتُ في البدء، بل كان يشد بوحشية على جسده. السلسلة الصدئة تأكل من قدمه. تأسفتُ بشدة، متطلعاً حولي مراراً. للمرة الأول أتساءل جديّاً عن صاحبه».

كانت الساعة تقارب الخامسة والنصف، عبر السماء الرمادية أخذت الأضواء اللامعة تؤذي العينين، لكن الغروب أخذ يتلون عند الأفق، كان يمكن ملاحظة هذا بالرغم من كثافة الغيوم، التي لم تصل بشكل كامل إلى الأفق، فبدتْ حواف السحب مشتعلة مثل طرفي سكين مُحَمَّى، انطلقتْ الأشعة من ورائها لتسقط مباشرة على سطح البحر، الأفق مشتعلاً وقت الغروب، تحرك بحذر ناحية الحصان، لمس كفله ببطء، فانتفض كفله مرتجّاً، عندها لاحظ أن السلسلة متفككة وأن الوتد المغروس، لا شيء».

«ما هذا أيها القوي؟». انحنى متفحصاً السلسلة الصدئة، فوجدها متخلخلة بحيث أن أقل جذبة من الحصان ستغدو كافية لأن تهشِّمها تماماً، لأن تحولها إلى قطع من تاريخ المكان، لا يمكن لسلسلة كهذه أن تكون قد أعجزت حصاناً قويّاً كالكهل الأبيض، لا يمكن لهذه الحقيقة أن يقبلها عقل أي انسان. قام مستغرباً من مدى ما تكون عليه أوهامنا ضمن واقعنا الخاص. حين تكون مشاكلنا محض أشياء لا تُمثل تحديات مهمة لطاقاتنا الداخلية ولقدراتنا على التقدم، لكننا نظل نرزح تحتها حتى يأتي ذلك اليوم الذي نشعر فيه بأننا فعلاً لن نظل خاضعين لتلك الظروف».

«أيها القوي أنت مربوط بخيط من خيش». هذا ما قاله.

«لمستُ السلسلة. الحديد الصدئ كان خشناً، مبللاً قليلاً بالمياه السوداء وشديدة البرودة. نخر الحصان حتى تدفق البخار الحار من جوفه، من تلك الزاوية بدا كجدار آيل للسقوط، كثافته كبيرة على الرؤية، لم تكن الزاوية المناسبة لأية صورة يمكنني أن أصممها، لكنني شعرتُ بأنها زاوية جديدة لمعرفة ما يحتويه هذا الحيوان من وقار، نظرته المظلمة، عقله الثخين وهو يلويه ليستطيع رؤيتي. حدقتُ في عينه اليسرى المعتمة».

قال لفتاته شارحاً.

«ليس محكماً، بوسعك أن تكسره بسهولة».

هكذا أخبر الحصان متأسفاً.

«رويتُ له قصصاً تاريخية عن الأحصنة القومية». قال وهما بين الأرفف شبه الخالية لقسم الأدب الغربي: «شرحتُ له أن النسور والصقور والأحصنة تداعب أحلام الديكتاتوريين. كانت عصرية مدهشة، تحدثت بحرية عن ركض الجنرال الليبي على حصان أبيض في تلك الفترة. التربة كانت مبتلة. المدرجات حاشدة بالجماهير. الحماس بلغ ذروته. كنتُ تمنيتُ من

وراء الشاشات أن يجمح الجواد الأبيض حتى يُسقط المستنقع الراكد فوقه، لكنها أمنية لم تتحقق، فالخيالات هي وحدها التي تجعل من الأحصنة معارضة للجنرال المفعم بالوحدة حتى إنه يتماهى مع جسد حصانه ليركض به خلال مساحاته الخيالية الخاصة. يتخيل بهدوء أنه «هو شخصيّاً» من يقطع تلك المسافات المبتلة. جسده هو ما بين فخذيه. قوة العضلات. الجسد الذي يرتج تحته بكل تلك التقلصات الجنونية. لم يكن السرج أمراً موجوداً بين الجنرال والجواد الأبيض في تلك الليلة. كثير من الأقمشة والرياح. رويتُ للحصان في تلك العصرية كيف أن الحياة تحتوي مثل هذه السخريات السياسية. ماو تسي تونغ سبح مسافات هائلة في نهر يانغ تسي الصيني، لمجرد أن يثبت للأعداء أنه لا يزال قادراً على مواجهة الأمواج السياسية العاتية وأن جسده السبعيني لا يزال قادراً على ذلك. حكيتُ له أيضاً عن أحلامي حين تتحول «أمواج الأنهار» إلى أحصنة هائجة ثم أخبرته بأمانة تامة: «ولدت لتسخدم قدميك، كيف رضيت البقاء في هذه البقعة المريضة. هذا المكان الموبوء، لكنك لست كذلك، أنت أكثر من هذه الحياة».

كانا في لحظة عميقة من الانسجام الجسدي. جالسيْن على المقعد في الطابق الثالث ويحتضنها من الخلف. يروي لها قصته الفنية العظيمة «تحرير الحصان الأبيض» والتي يعمل على فهمها من أجل تصميمها. حصان سباق مطلق السراح في شوارع بنغازي.

«شددتُ السلسلة مجرباً. الظلمة كانت قد هبطت. الأضواء الكابية. السيارات المسرعة مع زخات المطر التي جعلت من الإسفلت مصقولاً، تسبح عليه الأضواء وتنساب من فوقه عجلات السيارات بهياكلها. خفة كاملة. شديد الإبهار. لم أكن أعرف ما أفعله. رؤية الدماء على رجله. الحزن في عينيه. الوحدة. شددتُ السلسلة. اقتلعتُ الوتد الصدئ من الأرض، فانزاحت التربة السوداء ثم لمعتْ بطرف الوتد المدبب، قمت بفتح ولَيّ السلسلة عند القدم. سحبتُ الرسن من فمه. خاصته. ألقيتُ به على التربة القذرة. سمعتُ المياه لكنني لم أر. كان الحصان قد أطلق لنفسه العنان، تدفقت الحياة بين ساقيه. تراجعتُ قليلاً. كنتُ أتنفس بعمق. الهواء شديد البرودة. تلك الصورة للحصان المحرر كانتْ مذهلة. شد من نفسه. استقام ظهره. شفط بطنه. أرخاه. انفتح منخراه. قلصهما مجدداً ثم فتحهما على أقصى اتساع. مليء صدره بالهواء النقي. تطلع ناحيتي لوهلة. خمش الأرض بحافره. لطمتُ كفله الصلب، فرأيته ينطلق بخبب. برشاقة أحصنة ضمن عروض سيرك دو سوليه، كأحصنة العروض العسكرية. كأن على ظهره يجثم ديكتاتوري أخلاقي. ركض متقافزاً ببطء، بأناقة. تطلع إلى عدة جهات. هل يحيي جمهوراً خفيّاً؟ زمن مضى. هز رأسه محتجّاً، فسمعتُ وقع قدميه على قرميد الرصيف. تكاثرت الأصوات. زاد من سرعته. خبباً على المادة الإسمنتية. حين استجمع شتات ماضيه، أخذ يعدو بشدة. بقوة. في خط مستقيم. كنتُ أتقدم صاعداً المادة الإسمنتية. قبتا الكنسية بلونهما الأخضر. الحصان الراكض. احتجاجات سعف الدوام. أضواء السيارات. بعض الصراخ للأطفال والرجال. أخيراً انعتق. تطاير شعره. الرياح تخللت كل خصلات جسده. كل شعرة في جسده تسبح. لا بد أن الدموع تملأ عينيه. كنتُ أسمع طرقات حوافره على الإسمنت. إنه السحر. رأيتُ من على المادة رجالاً يركضون في الجهة المقابلة. أحدهم خرج من مقهى صغير. أخذ يُطارد الحصان وهو يُشير بيديه. شخصان آخران يحاولان إيقاف السيارات المسرعة. انحرف الحصان لجهة الشارع الرئيسي. وفي تلك اللحظة بالذات رأيتُ عينه

اليسرى، متسعة برعب انطلق ناحية الجهة التي أقف فيها، مر بالقرب مني. تناثر الهواء. الصوت. اللون. كان عملاقاً اتسع بضخامته الطارئة بشكل مثير للمشاعر. التفتُّ فوجدته يحاول الانعطاف مجدداً، اصطدم بعدة سيارات، لكنه عبر من بينها كحصان من حروب العالمية الأولى عائداً إلى مساره الأول، على الإسفلت وسط الطريق، أخذ يركض بثبات وتسارع. عيناي لا تفارقانه. مر بالقرب مني مرة أخرى بنفس القوة. وقع خطواته. دفقات البخار. في لحظة قصيرة أخرى لثوانٍ معدودة أغمضتُ عيني. انطبعتْ تلك الصورة للحصان الأبيض في ذهني. كان واقفاً على قائمتيه الخلفيتين، مستعدّاً ببطولة. حين فتحتهما كان صهيله يملأ الأجواء مع أصوات فرامل قوية، فقد ظهرتْ شاحنة مسرعة من المنعطف تحاول التوقف، عبثاً. جزؤها الخلفي في جهة وكابينة السائق في جهة أخرى. ثم رأيتُ الكهل الأبيض يصطدم بقوة بالجزء الخلفي منها ويُقذف مثل قطعة خشبية، بعيداً. لحظة سكتتْ خلالها الأصوات».

قال إنه أخذ يستمع إلى اتصال زخات المطر عند كتفيه.

35

خرج المسن من الفندق وكان الوقت قرابة العصر، مستغرقاً في ذكرياته عن الأيام الماضية، حين كان يسير مع الشاب نحو الفندق، وكانا أشبه بمصارعين يدفعان بعضهما بقوة، كان يشعر بتلك الأحاسيس المتوترة تنتابه، بالرغم من الألم فإنه يحس باللذة والتناقض، شيء غريب من الأحاسيس الأقرب إلى الجسدية كأنه في رقصة تعيد إليه شبابه، هذا ما توصل إليه قبل مدة طويلة مكتشفاً لأنه مغرم بالفتى، وأنه ليس مجرد مكفِّر عن ذنب قديم، بل مغرم به.

«لم نعد كما كنا». قال المسن للشاب متوقعاً ما سيحدث. قبل مدة وصلته عشرات الرسائل، إنه يعرف تماماً ما سيحدث وأن البلاد ليست كما هي، وفي الأغلب سيحدث ما توقعه بالضبط «لا أشعر بأنني خاسر على الإطلاق، رأيتُ الحقيقة من سنوات، مؤخراً صرتُ أعيشها، كل ما حدث هو أنني كسبت بعض الوقت لرؤية بعض الأشياء التي تخصني».

كانا عند ضريح عمر المختار. البرد كان شديداً. قبل مدة بسيطة كان رجب طيب أردوغان يُلقي خطاباً حماسيّاً هنا، لا أحد يعرف لأي سبب يلقي خطاباً حماسيّاً هنا. المسن بدأ يفكر في هذا وذهنه مشتتاً بسبب الألم الملح في جسده. طلب من الشاب أن يرافقه حتى الفندق. سار معه طوال الطريق. الساعة التاسعة. المدينة بدأت تنعس والأضواء أخذتْ تتجمد.

«أتظن أنني سآخذ نصيباً في صورك؟».

لم يجب، ابتسم فقط!

«مثل حسان؟». أضاف المسن.

«هل تعرفه؟». سأل الشاب بهدوء، لم يندهش.

«لمحته على نحو سريع. المحقق الذي استجوبه من الجيل الجديد، كنتُ دوماً على خلاف معه، لِنَقُل عداوة، حين عرف أنني على علاقة بالموضوع، شدد في التحقيق، ملفك مختلف، مَن استلموه كنتُ على وفاق معهم، معظمهم تعلموا على يدي، مع ذلك خروجك لم يكن سهلاً بالمرة، إنما خروجه كان مستحيلاً بسبب ذاك الوغد ثم سمعتُ عن مقتله».

لم يعرف الشاب ما حدث له في تلك اللحظة، اشتعل جسده بالرغم من البرد القارس، وانزلقت من على عموده الفقري قطرات العرق. شعر بالخوف وبالبرد والضيق، تنهد بعمق، أطلق زفيراً كالانفجار البركاني، فانطلق البخار الكثيف من فمه.

«ما كنتُ لأقدر على فعل شيء».

«لماذا؟». غمغم الشاب.

«إنهم لا يتساءلون». وضح المسن.

«وهل كنت تفعل أنت؟». قال الشاب بتعبير حاقد وبنبرة خشنة.

«آسف». تمتم المسن.

ركل علبة على الإسفلت، سمعاها ترن في العتمة، فيما تساقطت دمعة معتمة من الشاب، أغمض عينيه بشدة حتى لا تسقط دمعة أخرى، كانتْ الحرارة تتدفق من عينيه وقد التهب رأسه، ثم بعد قليل شعر بجسده بارداً مثل جسم حديدي في ظلمة شتوية. كانتْ خطواته تائهة على الأرض، وقد بدأت تميد به وكان غاضباً للغاية.

«لا تحزن، هذا قدره». قال المسن بلهجة مؤمنة.

«قدره، قلت قدره، قدره أن يغدو قياديّاً، أن يؤسس شركة، لا أن يُقتل داخل غرف الاستخبارات والأمن».

لم يتكلم، المسن انكمش حول نفسه، غرس قبضتيه في جيبي معطفه، وأخذ يسير بشيء من الترنح، لم يقدر الشاب على كتم غيظه.

«تقتلون ولا تبالون، لأجل من؟». سأل الشاب وهو يقف محدقاً في الإسفلت المعتم، بدا طريقاً إلى اللا مكان.

«أرجوك». توسل المسن، ولم تكن على وجهه علامات التأثر، إنما في صوته شيء من التألم.

لا شيء ينتهي بهدوء، بالنسبة للمسن، الذكريات بلا جسد، وبلا مسار، إنها مثل الفضاء، كل نقطة هي البداية وكل لحظة هي النهاية. في تلك العصرية حين خرج متأنقاً استعاد كل شيء تقريباً، خطواته كانتْ هادئة، لم يكن قلقاً على الإطلاق، أدرك أن هناك حفلاً في الجوار، الفتيات في ملابس زاهية ثقيلة، بدون مثل قطع الحلوى أو صناديق المفاجآت، البحر يهدر بتتابع، الأمواج تتحطم بعنف على الرصيف وتتناثر قطراتها المنفوشة في المكان، لا أحد يعرف ما يعنيه هذا في فلسفة حياته الجديدة.

كل شيء في الجوار أصبح يحمل معاني فلسفية مستحدثة تحتاج إلى البحث والتفسير وإعادة توطين في ذهنه. كان يدرك أنه يتخلص من ذاته القديمة ولكنه لم يُدرك لأي سبب كان يتخلص من ذاته القديمة، إنه لا يؤمن بالأسلوب التقليدي، هل أصبح يؤمن بالأسلوب التقليدي؟ مقدمة حذائه مبتلة، البرد في عظامه، ساقاه متعبتان. القلب يرتعد، هل هو مؤمن؟».

«أشعر بالعار طوال الوقت». هكذا قال ثم أحنى رأسه: «أنظر إلى الآخرين، أتمنى أن آخذ ولو لحظة واحدة قصيرة، أود أن أكون شخصاً آخر، روحي في جسد شخص غيري، فقط للحظة أشعر خلالها بالنظافة».

ضحك المسن بعدها بمرارة، إنما بصوت عالٍ وممتد، الموج ارتطم على الصخور البنية مجدداً، أسفل أقدام رواد الكورنيش الأوفياء حتى في ذلك الطقس المريع. تطلع الشاب في المياه المعتمة ثم التفت سابحاً في عيني المسن الضيقتين مثل فتحتين على المجهول فيما بدأت أمواج أخرى تتجمع عند حافة عينيه وقد بدأ يستنشق الهواء بعمق مضر.

كانا قبلها بقليل قد عبرا سوق الحوت، دخلا عدة مكتبات صغيرة، توقفا أمام معروضات تراثية صغيرة الحجم ولطيفة، تماثيل خزفية ملونة، ألعاب في حالات فريدة من الترتيب، صور أصلية من سنوات الجهاد، صور منسوخة من سنوات ما قبل الجهاد، أشرطة كاسيت لفناني السبعينيات، عبد الوهاب الدوكالي، عبد الهادي بلخياط، القمر الأحمر، مونبارناس. اشترى المسن كاسيت يضم القمر الأحمر وبدأ يتحدث بإسهاب وبحماس شديد، كأنه مقبل على حفل لم شمل مع الفنان وقد التقى به، إنها أروع لحظات حياته، تحدث بحب عن أشياء عديدة، وبدأت ذاكرته تستعيد قصصاً فيها شيء من التفاؤل. بدأ يتحدث عن قصة عشق مر بها خلال فترة شبابه، ربما كان في العشرينيات.

36

دار الكتب أشبه بلعبة كبيرة تحت السماء الرمادية، كان يتجه ناحيتها من جهة المساحة الطينية، التي غدتْ بنية ولامعة بفعل الأمطار. كثير من الأشياء عالقة بينه وبينها، لم يتحدثا كثيراً أو لم يفعل ذلك كما يجب. أحس في نفسه الحاجة إلى قول كل شيء، وقد قرر فعل هذا خلال مسيرته القصيرة تلك. كان يرتدي فانيلا رصاصية اللون، وسروال جينز بنفس اللون مع حذاء رياضي فيتنامي غارق في مياه المطر وتجمعات المياه السوداء، ولم يكن هذا مريحاً، شاعراً بالبرد يُجمد أصابع قدميه.

استعاد مشاكله مع الأحذية، وقد بدأت منذ بلغ السابعة عشرة، حين تعلم المشي لمسافات طويلة من أجل التفكير في معضلاته الإبداعية، التفكير أثناء المشي ضمن لوحاته هو عادة للأدباء الروس، من هذه الناحية هو مهتم جدّاً في إظهار ثقافته، بين مجموعته هناك لوحة مصممة بأسلوب سريالي يجمع تولستوي ومكسيم غوركي وتشيخوف داخل حديقة على مد البصر ويبدو عليهم الإنهاك في النقاشات. اهتم بشراء الأحذية الرياضية أكثر من الملابس، لا شيء ينافس الأحذية إلا مستلزماته للعمل وكتبه التي تتكدس دوماً. من ناحية الملابس فقد قلص خياراته للحد الأدنى، لم يعد يتوجب عليه إلا شراء اللون الرصاصي للقمصان والسراويل والملابس الشتوية، لم يكن يريد تضييع الوقت كما لم يكن يود مراعاة الألوان وتنسيقها بعضها مع بعض، لون واحد لكل شيء، داخل خزانته العشرات من القمصان الرصاصية مع قليل من الألوان الأخرى وقد وصلته بمثابة هدايا لا يقوم بارتدائها أبداً لأسباب تتعلق بأسلوب حياته.

لهذا تحولت حياته إلى نوع من البهتان الاجتماعي، أحياناً يفكر في هذا بأسلوب فلسفي، هل هو يرتدي الرمادي لأنه يحب العزلة أم لأنه يرتدي الرمادي صار يحب العزلة؟ يتساءل على هذا النحو، من دون الحاجة إلى إيجاد منطق خاص بالتساؤل، إنه يقضي وقته على هذا النحو المعتم، لو شاهده أحد من بعيد؛ لوجد كائناً في منطقة المحظورة تماماً. إنه التيه بحسب المنظر الأدبي الليبي خلال الستينيات، إنها الحقيقة البشعة، توجب عليه أن يكون متفرداً في وجوده. التاريخ يعيش في كل شيء، مثل الرمل في الصحراء، موجود دائماً حيث توجد الصحراء، وتلك الحقيقة البشعة موجودة دائماً حيث يُدرك أنه يوجد عالمه.

عند مدخل المكتبة الوطنية، كانتْ واقفة باعتدال جنوني، تصافحا ثم دخلا معاً بهدوء إلى المكتبة، كانتْ شبه خالية، فقط موظفات مسنات، يعملن على توزيع الصناديق الكارتونية الضخمة عبر الممرات، الكراسي مقلوبة، اتجها إلى الطابق الثالث مباشرة، كانا يسمعان وقع أقدامهما تدوي في الممرات، مع همهمات غامضة وغير مفهومة من المكاتب الإدارية.

صعدا معاً بأصابع متشابكة، وقد بدآ يتطلعان إلى بعضهما مثل العاشقين، كانتْ تبتسم كأنها تحلم، ثم ترسل نظرات مليئة بالحب، بدت له مشابهة للتوترات العميقة التي يجد نفسه فيها خلال طفولته ضمن الأحلام، ثم تركته راكضة ناحية الجهة الأخرى من الطابق. الفتاة الراقصة لم تكن شمساً عادية حمقاء، إنها فتاة في العشرين، إنها ترقص لأجله، على الأدراج وفيما تفوح المكتبة برائحة سميكة من الغبار والتاريخ، استعاد هذه الذكرى الغامضة، كل شيء كان لطيفاً ولامعاً وفيه شيء ساذج، إنما حتمي الوجود.

لم يسترسل في التفكير، بل عاد مسرعاً محدقاً في الأرفف العالية، في الطابق الثاني عبر الأرفف كان يشاهدها من خلال الفراغات وهي تركض بطفولة تملأ قلبها سعادة، تُشير إليه بإشارات حاملة بقايا الكتب والمجلدات، فيما واصل هو السير بين الأرفف ثم اتجه ناحية السلالم صاعداً إلى الطابق التالي، وقد فعلت ذات الشيء، ووقفا يحدقان في بعضهما، من تلك المسافة، أحس بأنه عثر عليها للتو، الفتاة التي وقفتْ بالقرب منه فيما هو يقرأ دوستويفسكي؛ لذا سار باتجاهها بهدوء، تقدمتْ منه خطوات وغابت بين الأرفف، تبعها وكان يُلاحظ دوماً ظلّاً معتماً يختفي فجأة، يلاحق الظل حيث اختفى، كان يرى ساقاً، طرفاً من جلبابها المدرسي الطويل، يُشاهد مؤخرة لطيفة، مثل لعبة متقنة، يقترب أكثر بهدوء دوماً، وبخطوات واثقة.

كان يعرف المكتبة جيداً، خمس سنين لم يفعل شيئاً سوى التجول بين أرففها، كان بوسعه معرفة مكان كل كتاب، في هذه الأرفف وجد مرة كتب عن الفاشي بينتو موسوليني، أغلفة سميكة وجميلة إلى جوار رواية «الرجل الذي فقد ظله» لفتحي غانم، ظل يستغرب من التصنيف الكابوسي العجيب، ذات مرة أخبر إحدى الموظفات عن الرجل الذي فقد ظله، لوت شفتيها ثم قالتْ: «لا أحد يقرأ ولا أحد يهتم بالكتب الأجنبية». لم يصدق ما سمعه، هو دائم الجلوس بين هذه الأرفف الخشبية المثقلة بالكتب والمجلدات.

عند الجانب الذي كان يحتوي مجلدات المصري محمد حسنين هيكل الإنجليزية، عثر عليها، أمسكها من وسطها مثل فارس وندالي، رفعها من على الأرضية، أدارها في حلقات عدة مرات شاعراً بجسدها النابض بين ذراعيه، وهي تضحك متحكمة بصوتها متشبثة به مثل طفلة.

أنزلها وقد ألصقها إلى الرف.

«إنها مملكتي». هكذا قال وهو يتطلع إلى وجهها المسترخي كله.

بدت مملكة في طريقها للانهيار.

الأرفف كانتْ شبه خالية، الغبار في كل مكان، ضوء الشمس شحيح بسبب عدم نظافة زجاج النوافذ، شيء من البرد كان يتسلل إلى الطابق، قبل مدة بسيطة صدر قرار بترميم دار الكتب، لا بد أنهم بدؤوا على عجل، لوهلة بدأ يرمم ذاكرته الشخصية، متذكراً تلك المرة التي أخبرها عن عشقه الأول.

37

المسن أراه وشماً، كان على ذراعه، لحرفين لهما حكاية صغيرة تمثل عشقه الجنوني في تلك الفترة، وكان اسمها إستير وبينهما حكاية كانتْ معروفة في تلك السنين، إنها يهودية تغني في الأفراح مع أمها وكانتْ جميلة جدّاً ويعشقها الجميع تقريباً.

بدت معلومة لطيفة تجاوزها بسرعة وسط شارع عمر المختار وراحا يتحدثان عن مكتبة علي الفزاني.

كانتْ مغلقة.

قال الشاب ربما كان هو آخر الرواد الزائرين للمكتبة.

استفهم المسن.

«خلال زيارتي الأخيرة من أجل استعارة الكتب وإرجاع مجموعة أخرى كانت عندي، وجدتُ أمين المكتبة بشاربيه الكثّيْن مرتدياً قميصاً من الجينز، بدا لي مثل واحد من مهاجري أمريكا اللاتينية خلال خمسينيات باريس. أخذ الكتب والبطاقة ثم طلب مني أن أستعير أي كتب أحتاج إليها. حين نزلت بعد جمعي للكتب لم يطلب مني أن أريه عناوينها، عدت بعد أسبوعين، فوجدتها مغلقة تماماً ولم تفتح على مدى الأشهر التالية، وفي أحد الأيام لاحظت عبر الفتحات الزجاجية أنها قد أفرغت من الكتب».

«أوغاد، إنهم يغلقون المكتبات».

«صحيح. حتى هذه اللحظة شهدتُ على إغلاق ثلاث مكتبات تباعاً، أحس بأنني مطارد».

«هذه المكتبة بالذات كنتُ أزورها، أقضي فيها يومي الجمعة والخميس».

كان الشاب يزورها يوم الثلاثاء.

«بلا مكتبة أشعر بأني مشرد».

توقفا أمام المكتبة المفرغة، لمدة لا بأس بها واصلا النظر إلى الداخل.

«كنتُ أجد تلك الأمينة المحجبة فيها». قال الشاب تحت تأثير الحنين: «كانتْ تقدم لي الكتب والنصائح، اعتقدتُ أني أحبها».

ضحك المسن.

«حب؟». تساءل.

«أعتقد أنه شيء يفوق الحب».

بدا المسن مستغرباً.

«ما هو هذا الذي يفوق الحب؟».

«الإيمان مثلاً؟».

«بدوت مهتمّاً بها صديقي».

«كنتُ أؤمن بها، كنتُ كذلك بالفعل، أحياناً أندم على عدم رؤيتها كأنني أذنب، أكثر من ندمي على عدم استعارة مزيد من الكتب، اعتدت دوماً أنني من أولئك الذين لا يتذكرون الأرض من دون كتب، الأمينة المحجبة مثلاً، تُذكّرني دوماً بقصة الحضارة لول ديورنت».

حين تحركا مجدداً، بوعي، كانا بالقرب من مقهى مكتظ على رصيف شارع عمر المختار، حاولا عبور الطريق وهما يتجهان نحو مكتبة أنيقة، مكتظة بالكتب الجديدة. المسن أطلق تحيات دافئة على بعض المسنين، فيما سبقه الشاب نحو المكتبة ليتطلع إلى أغلفة الكتب الجديدة ولوهلة رأى «التناقض الرهيب» في محادثة المسن لمجموعة المسنين، لاحظ المسن هذا فيما هو يقترب منه.

«فيم تفكر؟».

لم يخبره صراحة بأنه بدا مسنّاً جدّاً.

«من هما؟».

«أحدهما كان معي أثناء التدريبات، في السبعينيات كما كان رفيقي خلال الحرب التشادية».

«حقّاً؟».

«نعم، أغلب أبناء فرقتنا ماتوا، أعني أنه لم يمت أحد منهم في المعارك، كلهم ماتوا كالبعير على الفراش، أتظن أن هذا منطقي؟».

فكر الشاب في موت البعير على الفراش.

«أبداً». قال بوضوح.

ضحك المسن.

«والدي ذهب جندياً إلى تشاد، لم يكن هناك لكنه قُتل في شوارع أجدابيا، لا أحد يتحدث حول هذا حتى إنني لا أعرف عن مقتل والدي ما يعرفه غيري. أمر مؤلم كأنني سأظل غير ناضج للأبد، أحياناً أتساءل: هل تألم كثيراً أم مات سريعاً؟ السؤال يتردد دوماً في ذهني، وبشكل متزايد من بعد مقتل حسان كأنهما تشابكا في صورة واحدة، أحياناً أعتقد أنني أصمم اللوحات من أجل الهروب في هذه المسألة بالذات».

التزم المسن الصمت.

مسح جبينه من العرق، حدق في السماء، كانت الغيوم تتكدس، مع ذلك ظلت الرياح لطيفة، لم يعد البرد قارساً، ربما لأنهما دخلا الأزقة الضيقة، الشقق والمنازل العامرة بالدفء، رائحة البخور الإيماني، مدد الشاب يديه وبدأ يفرد عضلاته على نحو استعراضي، وفي أحد المحال ابتسامات فتيات شابات، بادلهن الابتسام لا إراديّاً.

«يبدو لي أنك نسيت أمينة المكتبة».

«لماذا تقول هذا؟ لم أقل إنني أعشقها، إنها تذكرني بشيء جميل فقط كالتماثيل الرومانية».

«لا تهتم، تستطيع أن تتحدث، فأنا في النهاية مسن، لن أسرق منك شيئاً».

«تقول هذا متواضعاً بلا شك، أية صبية لن تصمد أمامك».

«خرافة».

«حقّاً وماذا عن إستير؟».

«كانت في الثانية عشرة، تغني مع والدتها في الأعراس، ظننا أنها سهلة. كانت تكشف عن نفسها بروعة».

«ثم؟».

«لا شيء، دفعت في رؤوسنا وهماً عن الحياة».

«هل خدعتكم؟». سأل الشاب فيما ضحك المسن عالياً ولم يجب.

كان يفكر في أمر ما. ظل يفكر حين قطعا الطريق، جلسا على المادة الإسمنتية ولاحظا رسمة بخطوط غليظة لوجه صخري حزين، عين واحدة تذرف دموعاً سوداء في كأس معتمة. نظر إليها المسن باهتمام ثم حوَّل نظره نحو نورس يُحوم في

بقعة واحدة في الهواء.

«أترى هذه الرسمة؟». قال المسن.

«نعم».

«منذ أيام شعرتُ بأنها تخصني».

«كيف ذلك؟».

«إنها تحكي عن حالي، شيء ما يربطني بها».

ابتسم الشاب.

«يبدو أن سيرة إستير قلَّبت بعض المواجع».

ابتسم المسن وقال: «لا تكن أحمق، إستير قمتُ باغتصابها قبل فرارهم صيف عام 1967».

عندها أصيب الشاب بالدهشة، فطفق يتطلع غير مصدق. كان قد قرأ الكثير عن هذا ولم يسمع بقصص الاغتصاب، سمع عن سرقة المحال، عن حرق المنازل والممتلكات، عن رِشاً تلقاها رجال الشرطة من أجل حماية بعض العائلات التي نزحت مرتعبة من الجنون المطبق على المدينة.

«كان صيفاً مشتعلاً». قال المسن.

«ماذا، لست جادّاً». ردد الشاب.

«لو أردت ذلك». قال المسن وعاد يتطلع إلى مياه الأبيض المتوسط، رفع الشاب بصره وأخذ يتطلع في النورس الحوام، الذي غطس لمرتين مدهشتين في الأمواج المضطربة، كانتْ السفن لا تزال راسية عند الأفق، حاول تناسي القصة مثل كل شيء في حياته، لم يفهم فكرة الحديث الذي وقع قبل قليل، فبدأ بتعداد الأمواج القادمة، سبعات سبعات، مثل رؤوس الإوز ثم أرسل أفكاراً خاصة به على هيئة أمواج أثيرية نحو الضفة الأخرى من الأبيض المتوسط.

38

كان أخبرها عن عشقه القديم، عن العلامات والأحرف في لوحاته. أحنت رأسها للحظة، قطرات المطر على نافذة المكتبة، بينهما مجلد القصائد الصينية.

«ماذا حدث؟». سألته بصوت مختنق.

«لا شيء، مشاعر طفولية انتهت مع الوقت».

كان يُحدق إليها فيما لمع في عينيها «أمل غارب» وراء سحب خفيفة من الشكوك. عرف ما يعتمل في صدرها، ادعى التجاهل، فأخذ يقرأ من المجلد الصيني عن الظبية الميتة وقد نبتت عليها نباتات السمار، عن الصبية الراكضة وعلى عنقها اليشب النفيس.

أخذ يقرأ أسطورة عشق ولحظة وصال بهدوء فيما كانت هي تغني بأحاسيس غريبة من الداخل: «آسفة، لم أفهم ما تعنيه بمشاعر طفولية». قالت بهدوء حتى تلك اللحظة لم يتكلما مباشرة عن مشاعرهما تجاه بعضهما، كان يشعر بالقلق حيال المسألة برمتها. القلق المشوب برغبة جامحة لفعل شيء متهور يشابه الغضب عنفاً إلا أنه ليس كذلك، فهي تصغره بعشرة أعوام كاملة، ربما دخلت عامها العشرين مؤخراً، لكنها تظن أنها متحكمة.

ضمن عينيها تلك «البراءة الساذجة» والتي تظهر في كل تصرفها، كلماتها وعدم خشيتها من شيء، اندفاعها العارم تجاه كلماته وصوره القليلة التي شاهدها باهتمام عاطفي. صور هامشية تتحدث عن الرغبات الصعبة وتظهر مشاهد العشق المقتبسة من كتابات ابن حزم وقصص ألف ليلة وليلة. كان ذلك كفيلاً بجعلها تشعر نحوه بحب جارف في قلبها ويتوهج ضمن عينيها معززاً براءتها الطفولية.

«أعني أني بدأت أنسى ما حدث». كان متأكداً آنذاك لكنه نسي مشاعره عندما رآها للمرة الأولى. ظل لسنوات يتخيلها بالقرب منه بنفس القوة، في المكتبة الوطنية بالذات، شعر بأنها تقف بالقرب منه عند الأرفف التي تضم الكتب الروسية مع أن المسافة التي بينهما تساوي أكثر من ألف كيلومتر، هذا لم يمنعه من رؤيتها والشعور بقربها حتى وهو غارق في مجلدات دوستويفسكي. النسيان بالنسبة له أمر مراوغ يخفت على مدى سنوات، لينفجر مثل بركان نشط بشكل مفاجئ.

«ماذا فعلت؟».

«لا شيء».

«ماذا تعني؟».

«أعني أنها الحياة، تقابل أناساً، تهتم لهم، يحدث أن يختفوا بسهولة، فتظل تهتم بأمرهم بلا أي هدف محدد».

«أنت تتذكرها».

«نعم».

«دائماً؟».

«لا».

«متى تتذكرها؟».

«حين أكون وحيداً، حين أواجه مشاكل صعبة، أحياناً حين أكون نائماً».

«حب؟».

«ربما، لا أعرف، لكنني أدرك أنه انتهى».

«أتتذكرني؟». ضحك عندها محاولاً أن يبدو مفهوماً وواضحاً أمام سؤالها المفاجئ: «دوماً».

«أنا أم هي من تتذكر أكثر؟».

«أنتِ».

كان صادقاً.

منذ أشهر بدأت حياته تأخذ اتجاهاً إبداعيّاً مليئاً بالفن والصور النادرة عن السحب في أشكال رؤوس الحيوانات، النوارس البيضاء، تموجات أسراب القمري على هيئة سحب سوداء ترقص في السماء، مدفوعة بالرياح. عرف أن السبب هو سيل مشاعره الجديدة تجاهها. صوره أخذت تتلاشى أكثر في بعضها من دون فواصل واضحة. تشتتْ من السير السلس للحكايات التاريخية والمعاصرة. أخبرته بصرامة مميزة: «عندي لتصديق خيالاتك الفنية».

«رغبتك تسعدني، أنتِ كل شيء». قال بصوت محايد، لا حماس فيه.

رأى في عينيها الغموض عميقاً كمغارة مظلمة، وأنها في تحديقها باتساع عينيها تبدو كأنها ترى الأفكار التي تدور في رأسه. الفكرة مربكة بالرغم من صدق مشاعره بالسعادة، في رأسه أشياء كثيرة لا يريد لأحد أن يشعر بها.

أشاح بوجهه ليقرأ في القصائد: «لماذا لا تنظر إلى وجهي؟».

ترك القصائد وحدق فيها بجمود: «ها أنا أنظر».

«تبدو كأنك تُخفي شيئاً، لا تشعر ناحيتي بالتزام».

«ليس الأمر هكذا».

«كيف هو إذن؟». فكر قليلاً يومها ثم قال بغموض: «عندي مواضيع لا أستطيع اتمامها».

«مواضيع، مثل ماذا؟»

«لا تهتمي». نفخت الهواء من فهمها وقالت بنرفزة خفيفة: «لا تطلب مني ألا أهتم، أنا أهتم فعلاً، كل شيء عنك أنا أهتم له». هدأت قليلاً، أغمضت عينيها وحركت رأسها بخفة، مستنشقة الهواء النقي. أضافت بعدها: «أخبرني عنها».

«أريد تصميم صورة، لا أعرف كيف أضعها كما أريد، لا أعرف ما أريد، أنا مشتت».

«صورة عن ماذا؟».

«لا أعرف». هزتْ رأسها باستغراب ثم سألت: «كيف تشعر بها؟».

«في مكان ما بداخلي، أمتلك طاقة هائلة، أرى النور وأرغب عميقاً في الوصول إليه، شيء ما يحكم وثاقي، لا أستطيع الوصول أو الحركة. أريد التحرر منه ولا أعرف كيف».

نظرتْ إليه بحياد: «هل هي صورة واحدة؟».

«إنها مجموعة كبيرة، مشكلتي هي في الربط بينها، لديَّ الآن حوالي سبعين صورة منها، أريدها في صورة واحدة». سحبت منه مجلد «كتاب القصائد» وبدأت تطالع فيه، تذكرت قصصه السابقة المتضمنة في الصور كأنها تشعر به. ففي إحدى رسوماته رأت حلمها منذ كانت طفلة صغيرة. كانت حلمت بأنها تلقت هدية صغيرة، حذاء أحمر، تجولت به عبر الكورنيش والحدائق في بنغازي.

في الصورة فتاة سمراء بفستان مزركش، وقد ربطت شريطاً أحمر حول وسطها لتبدو كشخصية من الرسوم الكارتونية بابتسامة أنيقة، وهي ترتدي ذات الحذاء الأحمر الذي رأته في الحلم كهدية لها من قبل شخص عزيز، لا تتذكره، لكنها تعرف أنها تحبه.

«رأيت بعضاً من صورك». قال بإيمان: «أعتقد أنها بدت مشتتة جدّاً بقدرك وأكثر، لست أعرف ما تريده بالضبط، لكنني سأقترح عليك شيئاً، أتذكر كيف جعلت من حلمي أيقونة رائعة بإضافة شخصية رسوم متحركة عليها، كنت عبقريّاً».

صمتت لوهلة بدتْ كأنها تزن الهواء من حولها.

«أنت ترى هذه المكتبة». نظر بأمل متجدد وهي تقول: «إنها كبيرة وتضم مئات الآلاف من الكتب، بعضها لا تربطها صلة بالبعض الآخر، لكنها مقسمة بانتظام، كل كتاب حسب مجموعته، الإنسانيات تضمها مجموعة واحدة باختلاف العناوين والمواضيع، لكنها تجتمع في مجموعة واحدة. أفعل نفس الشيء. أجمع الصور ذات المضمون الواحد أولاً ثم أبحث عن طريقة للتوفيق بين المجموعة، قد يكون الأمر غير ذي نفع لكنه يقلل من حجم الضياع الذي تعاني منه، أما كيف ستقوم بتوفيق بين المجموعات الصورية، فأظن أنه سيكون ببساطة الحلم».

كانت تلك بداية الخطوة النهائية والتشكيل الأخير، الأسلوب الحقيقي لمجموعة صوره المصممة. الجمع حسب الموضوع، خلق موضوع جديد للربط بين كل المواضيع. كنص صيني حاشد، ظبي ميت، ورود تنمو، حشائش يانعة وفتاة جميلة مع فارس عاشق فوقها، نباح كلب وكلمة لا التي قلبتْ إلى نعم. «لا تلمسني يا سيدي، أرجوك. لا تخطف منديلي. لا تخطفه ! فكلبي سينبح» . فرض شيء غير موجود بالرؤية البشرية العادية، هذا مشابه لرؤية المخلوقات الصغيرة في عمق الحياة، مصحوب بإدراك جديد.

فهم بهدوء ما يجب عليه فعله، منح الفكرة الصغيرة أبعاداً درامية هائلة، حتى رأى في لحظة توهُّج، الصورة مكتملة، فقد أدرك بوضوح شديد حاجته الماسة إلى ما ينقصه من «مادة الحلم» الضرورية لصنع الصورة المثالية كأية قصيدة، بالضبط مثل قصيدة صينية حاشدة بكلمات قليلة. بدا الأمر مدهشاً، كل شيء أمامه.

رأى بعينيه تلك الحقيقة الغائبة عنه.

39

كان المسن قد وصل في ذكرياته إلى نقطة محددة، أدرك عندها بوضوح أن ما حدث واقعي جدّاً، قبل سنوات كانا هنا، وقد بدا الشاب غاضباً بسبب عدم معرفته شيئاً عن مقتل أبيه، وكان هو يعرف كل شيء، إلا أنه لم يتحدث بشيء لأسباب لم يكن يفهمها، لم يكن خائفاً، لم يكن يشعر بأي ذنب، على الأقل في تلك اللحظة، التي شعر بأن فكرة القتل نسبية تماماً، وإنسان يدور حولها بأسلوب فيه الكثير من التواطؤ، بالنسبة إليه لم تكن عملية قتل، بل خطأ مقبول نظراً للظروف وسرعة البديهة، القتل لم يكن قتلاً، بل حدث يمكن الاستفادة منه في المستقبل، وفي اللحظة الحاضرة أيضاً، لأنه لا بد من إبداء فعل تجاه الأحداث غير الطبيعية التي تمر بها الدول، الحفاظ على الأمن مسألة تتجاوز الأخلاقيات والأعراف البشرية السائدة، بل من أجل أن تسير تلك التقاليد والأعراف لا بد من فعل عنيف للحفاظ عليها سائرة.

إنها مسألة حتمية!

تحدث دوماً بذات النظام في كل مكان وفي كل عصر، بعض الأشياء ما هي إلا تكرار أبدي ضمن منظومات تدعي الفهم والتطور، إلا أنها في الحقيقة ليست سوى الأفعال ذاتها التي أقدمنا عليها قبل سنوات وسنوات، أدرك المسن هذا أمام الرسومات المنجزة بالخطاط الأسود الغليظ، إنها ذات الخطوط التي شاهداها قبل سنوات، في تلك الفترة كانت دموعاً سوداء، تنظر في كأس معتم، أما هذه المرة فأصبحت تعبر عن قرد غاضب، بذيل غليظ، رسمة سياسية موجهة للعقيد الليبي في فترة الثورة.

استعاد حديثه الأخير مع الشاب.

«ما رأيك في هذه الرسومات؟». سأل المسن، بصوت حيادي آنذاك، كأنه لم يقر للتو بفعلة بشعة.

هناك شابان يلعبان لعبة قديمة: إلقاء قطعة من الفلين في المياه ومن ثم الغوص للبحث عنها، من يجدها أولاً ويمسك بها، هو الفائز، بكل بساطة يسبحان ثم يتوقفان، يُخرجان رأسيهما صاعدين مع الأمواج، يحددان مكان الفلينة ثم يسبحان مجدداً باتجاهها، تأخذ الأمواج الفلينة بعيداً وفي اتجاهات عشوائية، يتوقفان ويبحثان ويحددان ويستمران في البحث، قد تستمر اللعبة لساعات قبل أن يقدر أحدهم على الإمساك بتلك القطعة الطافية.

«إنها عادية». قال الشاب متفكراً حول اعترافات المسن، محاولاً تفادي الغضب لأنه لا يعني شيئاً بالنسبة إلى المسن.

«أقصد أنها تحكي عن...».

«اسمعني». قال الشاب مقاطعاً، بدا غاضباً: «أنت تروي قصصاً عن ماضيك كأنني بحاجة إلى معرفة أنك اغتصبت فتاة كنت تحبها، وظننت أنها مجرد طفلة ومن ثم تروي لي هذا كأنه لا شيء».

عندها هز المسن رأسه.

«آه اليهودية». قال متفهماً، سكت وهو يتابع ما يحدث في البحر، الأمواج المضطربة وهي ترتطم بالصخور البنية، عدة أكياس وعلب مشروبات غازية ملقاة بين الصخور، بدأت تتجمع بفعل الأمواج بشكل قبيح عند الشاطئ. كان بإمكانها رؤية أسراب معتمة من الأسماك الصغيرة وهي تلتقط قطع الخبز، تدفعها وهي تأكل بشراهة. بدأ هذا خفيفاً وبعيداً إلا أنه كان ثقيلاً على القلب، بفظاعة، تنفس بعمق شديد، ظن أن هذا أمر تاريخي صرف، كل هذا العنف العنف المقبول بشكل غريب بالنسبة للمسن، لطالما سمع عنه من أشخاص سمعوا عنه من أشخاص عاشوه بأنفسهم، كان متردداً في اعتماده كتاريخ أو حتى باعتباره كفن، تردد دوماً في وضعه في لوحاته المصممة، إنما ما سمعه دفع الخوف والقلق عميقاً في قلبه.

قبل أيام خلال اللقاء كان الشاب في طريقه إلى وسط المدينة، على إحدى سيارات الأجرة، داخل زحام أحد الشوارع، وقف بعض الشبان في وسط الطريق يحملون سواطير والأسلحة النارية، كان هدفهم تنظيم الطريق إلا أن الأوشام في أيديهم قالت غير ذلك، عروقهم النافرة وقد حلق بعضهم الشعر من على رؤوسهم، فبدتْ جلدة رؤوسهم خضراء كالبرك الراكدة، لحاهم غير المنتظمة كأحراش نمت عشوائيّاً. أحدهم وقف في منتصف الطريق، كان قريباً من سيارة الشاب وهو يهدد الجميع بأنه سيقوم بذبحهم كالنعاج قريباً. كان يصرخ بثورة عارمة، ملوحاً بساطوره ممرراً إياه على عنقه في إشارة واضحة للذبح.

حين تحدث المسن، آنذاك عن تلك السنة من عام 1967 شعر الشاب بشيء غامض عن كون وجود سر تاريخي ومزروع في الجينات، وقد تأكد من هذا على سيارة الأجرة وهو يرى الشاب يهدد بأوشامه الخضراء.

«أيها المسن كم من الجرائم اقترفتَ؟».

«الكثير يا صديقي، الكثير».

ثم نكس رأسه وشرع في البكاء فجأة، نشيج نحيل لا يمكن ملاحظته مع الأمواج الصاخبة والمفرقعات العالية في الجوار، إنما بدت لحظة عظيمة تتويجاً لسنوات من الجرائم، وقد أخذ يُردد: «الكثير، الكثير».

لم يفعل الشاب لأجله شيئاً، كان يحس بالراحة بسبب نحيبه الضائع ضمن الأمواج، بدا موقفاً معقولاً جدّاً، طوال فترة مجيئه لم يعتقد أن هذا هو التفسير الوحيد لِما يعنيه الأبيض المتوسط، نحيب متواصل، حمى داخلية تسبب له الألم والإحساس الدائم بالفظاعة. المئات من الجثث تطفو، المئات من الأحزان في طيات أمواجها الجنونية، ابكِ أيها البحر

الحبيب، لتذرف دموعك أسفاً على الأحباب الذين فارقوا أهاليهم، ابكِ أيها المسن الغريب، ابك كالأطفال لعلك تغسل روحك من الذنوب العظيمة.

«هل تعتقد أنني أقدر على تنقية روحي؟».

حين هم الشاب بالإجابة، رفع المسن كفّاً مجعدة وأوقفه، ربما كان الشاب يود مواساته بشيء ما بالرغم من غضبه العارم والذي لم يهدأ حتى بعد سكب دموع الندم، وماذا يعني الندم؟

«لا تجبني». قال المسن، مسح دموعه.

«أعتقد أن الرسمة رائعة». قال المسن ببلاهة محاولاً تغير الموقف.

«لا، إنها ليست رائعة». قال الشاب بحسم.

«لماذا؟» ألم تقل إن الصورة لا بد أن تحتوي على ذكرى وتفصيلا جماليٍّ خاصٍّ بها».

«نعم».

«هذه صورة تحتوي ذكرى تخصني».

«الجمال لا يؤلم». هكذا قال الشاب.

«لكن الذكرى تفعل، وليس الصورة والجمال أمر من عمق الصورة، وفعل الذكرى لا علاقة له بالجمال».

قال المسن بحماس.

«إنه استفزاز». قال الشاب: «هذا الرسام كان يرسم على نحو أفضل قبل الثورة، لا أعرف ما حدث له، لكنني رأيتُ رسوماته السابقة، كانت أكثر تماسكاً وحيوية وباعثة على الأمل، وكان يمتلك فكرة واضحة».

«أتعرفه؟».

«ليس شخصيّاً، كان يترك رقمه الهاتفي بجانب رسوماته، اعتقدتُ أنه عرف مدى جمالها آنذاك، قمت بالاتصال به، أخبرته بأنه يرسم على نحو جيد، وأنني وجدتُ رقمه على المادة الإسمنتية على الكورنيش».

هز المسن رأسه: «ثم ماذا؟».

«لا شيء، سألني إن كنت ظننتُ أنه رقم لفتاة».

«ماذا؟». تساءل المسن.

«سألني إن ظننتُ الرقم يخص إحدى الفتيات، قلت له أبداً، أعجبتني الرسمة؛ فأردت أن أهنئه عليها فقط».

«بعد ذلك؟». تساءل المسن.

«قمتُ بحذف رقمه من على الجهاز، سرت لمسافة، تلقيت منه رسالة نصية، يشكرني فيها على اهتمامي، ولم أعاود الاتصال به، وعلى المادة الإسمنتية بدأ يرسم زهوراً بتشكيلات غرافيك مذهلة، كان مبهجاً. بعد الثورة تبدلتْ أفكاره، صار يرسم صوراً بشعة، قروداً وديكتاتوريين ثم يقوم بوضع كلمات نابية مرافقة لرسوماته ووعوداً وتهديدات فظيعة كأنه تقصد جعلها قبيحة لأقصى حد، ربما فقد أفكاره القديمة للأبد، لكنه لم يعد إلى رسوماته الرائعة القديمة».

هز المسن رأسه دون أن يعقب.

بعد لحظة صمت سأل: «أتظن أن الثورات تفسد الفنون؟».

لم يكن الشاب يمتلك إجابة، لم يفكر قط على هذا النحو، وعندما واجهه هذا السؤال قال: «أعتقد أن الثورات لو حدث أن وصلت إلى العقول لكانت باعثة على فنون حقيقية، على الثوري أن يكون صادقاً في غضبه وأن يبحث عن أسلوب للنماء بدل التدمير، إنما أن تكون الثورة مجرد مشاعر غضب رغبات جسدية تنقلتْ من دون وعي مسبق، فإن هذا يجعل من الثورة خوفاً على الذات من رغبات الآخرين، تصبح نسخة سيئة لديكتاتوريات عديدة، وهذا يقود مباشرة للحروب الأهلية».

«أتعتقد أن الثورة عاقلة؟».

«ليس هذا ما عشناه على الأقل، حين أرى مثقفاً في الشارع مع الثورة، حيث ينزل راكلاً كل نتاجه التاريخي والفكري، ليتساوى مع شاب غاضب بلا رصيد معرفي ولا إدراك سوى رغباته الجسدية، فاقداً لكل ضوابط الإنسانية، غارقاً حتى الأذنين في الحرق والسحل والقتل ومشاعر الانتصار والنشوة الجنسية؛ أدرك أن الثورات ليست عاقلة أبداً، وهي ليست للعقلاء».

«ظهر مثقفون للثورة». قال المسن.

«أعتقد أن الجانب الكاذب من الثورة ومن العملية كلها، المثقف لا يمكن أن يكون ثائراً بأسلوب همجي كالذي حدث عندنا، على الأقل المثقف السوي وغير العنصري، بلادنا فيها عدد كبير من المثقفين العنصريين، نحن نتحدث عن أمر نسبي إنما الثورات تقوم ضمن أطر يضعها المثقفون، وهم عادة خارج أو فوق مستوى الثورة، ينظرون إليها، يُقنعون بها الفلاحين والعمال والشباب، إنما لا يخوضون فيها بالعنف.المثقف يبحث عن أن يكون ضميراً لها يحدد أخطاءها ويعمل على نجاحها حتى العسكر يمكن لهم أن يحققوا ثورات، إنما المدرس الجامعي لا يفعل ما حدث عندنا».

«أين تضع نفسك، إذن؟». سأل المسن.

فكر الشاب قليلاً ثم قال: «لا أضع نفسي في أي مكان من الثورة، حين وجدتُ فرصة لإدانة ما يحدث فعلت ما أردت دوماً فعله، قمت بإدانة ما حدث دوماً وهكذا انتهى دوري، لم يكن هناك مكان في الثورة لي، إنها محدودة جداً، لم ألطخ صوري بالدعاية لها، لم أعمل على أي فعل يدعو للعنف، قمتُ بتوثيق فني لبعض الأحداث، وهي عادة ليست متعلقة بالثورة، أنت شاهدت صوري قبل الثورة وتدرك ما أعني، لم أكن أهدف إلى ثورة مثل التي حدثت في الشارع عندنا، لم أكن أهدف إلا إلى تغيير منظور الأشياء ضمن عقولنا، أن ننظر إلى العالم بأسلوب أفضل مما نفعل حاليّاً وكنتُ أتعلم من هذا الفعل، آلمني جدّاً رؤية بعض ممن كنت أحترمهم ثقافيّاً وقد انقلبوا إلى تمجيد السلاح، وقد تغيرتْ مناهجهم الفكرية، تحولوا خلال أشهر إلى أبواق وشهود على العصر في خدمة الثورة، هذا مؤسف، أصبحت الثورة هدفهم الأسمى، وليس الإبداع ولا التطور، وهما ما أهدف إليه».

«بالنسبة لي أحببتُ الثورة، تستطيع أن تصفني بالجبن».

«الجبن أرفع قيمة مما ينتهجه البعض». قال الشاب.

«لكنني فرحتُ حقّاً للثورة، كان هناك ظلم وكنت أعرف عن هذا».

«حين يقول هذا شخص من خارج منظومة الحكم السياسية أو الثقافية أصدقه تماماً، أما أن يكون من قبل شخصاً كان من النظام، فهي وقاحة لا يمكن استساغتها».

مرت لحظة صمت أخرى، كانا متوترين جدّاً.

«بالنسبة لمن في حالتك، أعتقد أن التدمير الذاتي يبهجك، لأنك تعتقد أنك تدفع ثمن أخطائك، تسعد لسقوط النظام، لأنك تكفر ولو قليلاً عن ذنوبك وهذا بالنسبة لك أمر منعش».

لم يعقب المسن مباشرة ولم يعرف الشاب مدى وقع كلماته عليه، إلا أنه أحس بالسعادة والبهجة لأنه قال هذا ولو بطريقة فجة، دوماً تمنى فرصة لقول هذا للجميع، عندها هز المسن رأسه وهو يستنشق الهواء بكثافة ثم قال بصوت يخالطه الزفير: «لكنني أعتقد أن وجود المثقفين في الثورة يهذبها».

ابتسم الشاب.

«النساء أنفسهن لم يستطعن تلطيف أجواء الثورة». هكذا قال الشاب. ضحك المسن باستغراق.

«تبدو صاحب ثأر على المثقفين».

«أخبرتك، كنت أحترم بعضهم، إنما تمجيدهم للسلاح الأحمق أغضبني».

«أتذكر في اللقاءات الثورية». قال المسن: «كنا نحضر دورات عقائدية على فترات زمنية محددة، في هذه الدورات يأتي رجال مثقفون يلقون الأشعار والقصائد، بتحليلها، ويتحدثون عن العدو، الإخلاص، نظريات النقد الذاتي في سبيل حماية منجزات الثورة، عندما أتابع التلفاز وأستمع لبعض الحوارات التي تُجرى أعتقد عندها أنني أعيش ذات الأجزاء، ذات حال التعبئة والاستقطاب المنهجي، أظن أنك محق في صدمتك».

تطلع إليه الشاب بتأمل، نبرة المسن مختلفة.

«كنا حين نتابع تلك الدورات العقائدية، نحس بأننا بشر وأن هناك عالماً في الخارج علينا حمايته، نساء، أطفال، شبان من أجل المستقبل، عائلات، فنون وأحلام. أعتقد أن وجود المثقفين في المشهد الثوري مسألة مهمة جدّاً، وهم دوماً يسعون لكسب ثقة الشبان من أجل إرشادهم؛ لأنه أنت بحاجة إلى الثقة لتكون مسموع الكلمة، الثقة هي العملة السرية التي تجعل من المثقف مثقفاً فاعلاً ضمن المجتمع، ونحن لا نثق بمن يختلف معنا جذريّاً، وهذا ما يحاولون تفاديه، أن يجعلوهم يدركون أنهم أيضاً ثوار وأنهم يشعرون بهم، ومن الداخل ربما سيعملون على إرشادهم على قدر المستطاع، إنها سياسة قد تنجح. بالنسبة إلينا في تلك الفترة، كنا نعتبر أولئك المثقفين من الدورات العقائدية، أقرب إلى الأنبياء، إنهم يعرفون الكثير من القصص ويمتلكون أمثلة عديدة تفتح الآفاق، أحياناً أتمنى أن يكون واحد منهم معي إلى الأبد».

الزمن يمضي بسرعة.

كان الكورنيش مكتظّاً في جانبه الأقرب إلى ساحة المحكمة، وقد أخذت السماء تعتم بسبب الغيوم الداكنة، والسيارات المتوقفة في أسلوب عشوائي، نصف الطريق كان مسدوداً بالمتاريس الضخمة.

تطلع بصمت، مستعيداً ذكرياته.

كان الشاب يتحدث مع الفتاة في دار الكتب الوطنية، آنذاك.

كان المسن بملابسه الإيطالية الأنيقة قد اشترى عدة صحف وكتاباً عن تاريخ الحروب التشادية، وقلماً وقد بدأ يعبر الطريق مخترقاً الأزقة على مهل، قلب صفحات الكتاب، قرأ فقرات عن المعارك بعيون الغزاة، ثم بدأ يقرأ في الصحيفة مع خطواته التالية على الكورنيش، النورس في مكانه.

كل شيء بدا هادئاً بالرغم من ذلك، ثم سمع صوت عجلات سيارة، تعبر بجنون على رصيف الكورنيش. تطلع نحوها، وهي تقف بالقرب منه، تفتح الأبواب مع صوت الفرامل الحاقد كالنباح ثم ترجل منها ثلاثة أشخاص. أدرك أنهم كانوا يضعون اللثام، وأيقن ما سيحدث، كان مستعدّاً ولم يكن بالقرب منه أحد. شاهد السلاح بفوهته المعتمة وشاهد فوهات أخرى تماثلها في العتمة.

فقد السيطرة على الأوراق تحت إبطه.

صحف ذلك اليوم.

«لا، لا». هتف خلال تلك «اللحظة القصيرة» من الإدراك، وبعدها أحس بوخزات الرصاص. كانوا قد أفرغوا مشطاً كاملاً عليه. شاهد السماء المعتمة ونورساً هلعاً يحلق بسرعة بأسلوب غير أنيق، وتواصل الصمت ثم بدأ كل شيء يلمع غارقاً في دموعه.

كانت السحب تملأ الأفق، وقد بدأت حوافها تلمع، بأضواء محبوسة، بدتْ رائعة الجمال، بيد مرتعشة أخذ يُشير نحو اللمعان الأحمر المتبدد باتجاه الأبيض المتوسط. استسلم بهدوء لعالمه الجديد ومن عينه انسابت دموع ثقيلة، صافية كالماء.

40

كان واقفاً عند النافذة السميكة والمتسخة، تطلع نحو الفراغ البني الموحش، مستغرباً من سطوة المكتبة حتى وهي شبه فارغة، بدتْ المكتبة كأنها أخذتْ أبعاداً روحية ممتدة بلا حدود، فراغها من الكتب لا يعني شيئاً، هذه الأحاسيس الصوفية بدأت تجتاحه، محاولاً اللعب بالضوء الرمادي الذي يجاهد لاختراق النافذة وقد أدرك مثل كل يوم أنه وُلد ليقبع هنا، داخل هذا المكان.

شاهدها ترفع مجلدات من على الأرض، لتضعها على الأرفف، عبثاً وبلا معنى، لكنه اقترب منها، حمل معها تلك المجلدات، مراقباً أصابعها النحيلة، التي ترفع بها المجلدات المغبرة، خاتم أنيق، لمع بشراهة متذوقاً الضوء الشفاف.

«أليس رائعاً؟».

«نعم، إنه رائع».

«أبي أعجب بتصاميمك».

«يسعدني هذا».

«لكنه يراها متشائمة».

«حقّاً؟».

«هو يقول هذا، لولا التشاؤم الذي في الصور، لكانت مدهشة».

«الجمال أمر لا علاقة له بالمشاعر أو الانطباعات أو حتى الرغبات، إنه مستقل بذاته».

قال هذا ولم يكن يصدق نفسه.

«والدي لا يحكم عليها، بل يبدي ذوقه».

«صحيح».

«أنت تعرف أنه رسام، لا يؤمن بالأمور الإلكترونية، إنه من الطراز القديم، يعشق تلك الأشياء التي تحتك بالجسد».

«أعرف خطاطاً يعاني ذات المشكلة، الفن مسألة احتكارية عند البعض، يريدون أن يبقى كما هو، والدك مثلاً لا يريد أن يفقد قيمة عمله كما لا أريده أن يفقدني قيمة عملي، التذوق ذريعة لإخضاع الاختلاف والتطور، الصور، اللوحات، إما أن نحبها أو نكرهها وإما أن نفهمها أو لا نفعل، لكن الجمال فيها أمر يفوق مجرد وصف للمشاعر، قد لا أحب شيئاً لكنني أدرك أنه جميل، إنه جزء من ذكرياتنا الشخصية وليس من مخاوفنا المستقبلية كما هي الحال عند والدك».

ضحكتْ وهي تقف فاردة طولها الأنيق.

كانا يتحدثان طوال الوقت في حالة قرفصاء، نفضت عن نفسها الغبار برقة فنانة من الستينيات، مشت عدة خطوات وقد تبعها بعد أن مسح يديه بمنديل صغير، كانتا بدتا خشنتين جدّاً.

كان الممر يلمع بجلال هوليودي، استندتْ إلى إحدى الطاولات، لاحظ قميصها الوردي المطرز، كانت قد خلعت الجلباب المدرسي، حذاءها الأحمر الأنيق، الشريط حول عنقها كأنها جاءت من خارج الزمن، من أحد الأفلام المصرية القديمة.

«لم آت لنتحدث عن هذا».

«حقّاً؟».

«نعم، أردتُ التحدث معك فحسب عن صورك أو عن أي شيء آخر، أريد التحدث معك فقط».

«نحن نتحدث، أليس كذلك؟».

«ليس وأنت متعكِّر المزاج، أحب طريقتك في الحديث، إنما ليس وأنت متعكِّر المزاج».

قالتْ بأسف واضح.

لم يكن يعرف لأي سبب كان مزاجه متعكراً، كان يشعر بالغرابة في حديثه. تنفس بعمق غبار المكتبة، محاولاً استعادة هدوئه، عندما شعر بأنه هادئ تماماً حتى وهو معكر المزاج، وأنه على نحو ما كان يحس بالسعادة فيما لو تجاهل ما يحدث في داخله من اضطرابات عاطفية، كأنه لم يتنقل لحظة واحدة من البلدة الجنوبية، كأنه لا يزال يجادل تلك الفتاة، عارضاً عشقه لها من كل قلبه في حين تقول هي إنه لا يقدر أن يفهم معنى العشق، إنه يفهم معنى العشق وها هي فتاة تصغره بعشر سنين، جميلة وموهوبة تقول إنها تحبه وأنه يُسعدها، تطلع إليها في عمق عينيها. كان يحاول معرفة ما يحدث في داخله، اكتشف في لحظة تنويرية ما قالته له قبل أيام، أنه يفكر كثيراً، وأنه لا يجب عليه أن يفكر كثيراً؛ لذا كف عن التفكير وأخذ يحدق فيها ساهماً وشاعراً بسعادة تزداد في داخله، كأن نوراً دافئاً من داخله.

«ما بك؟».

«لا تهتمي، أخبريني ماذا فعلت هذا اليوم».

«ليس الكثير، التقطتُ بعض الصور، نشرتُ تدوينة على مدونتي، تحدثتُ عن أشياء سياسية وبعض القضايا الإنسانية، ثم أنهيت قراءة يومياتك وشعرت بالرغبة في الحديث معك أكثر».

بالرغم من أعمالها الفنية والأكاديمية، إلا أنها منتسبة لعدة جمعيات خيرية وهيئات صحفية، منذ بداية الثورة وهي تعمل على نحو متوسع مع عدة جهات مانحة، حتى إن بعض صورها نُشرتْ في الصحف الأوروبية كما أنها نشرت مقالات قصيرة عن واقع المدينة وحماس المرأة الليبية للثورة والحريات، مقالاتها ترجمت إلى سبع لغات، من بينها اليابانية، إنها تفتخر بهذا وتحاول أن تغدو شيئاً ما في المستقبل. تلقتْ العديد من الدورات مع الصحف، في صفحتها على الفيسبوك العشرات من الصور التقطتْ خلال تلك الدورات، في تركيا، فرنسا، تونس، انجلترا، ماليزيا، بيروجيا الإيطالية، تستطيع أن تقضي يوماً كاملاً عبر صفحتها بالفيسبوك دون أن تشعر بلحظة ملل.

تذكر ما كتبته في اليوم السابق.

«ما قصة الموبايل؟». كان يبتسم، كانت قد كتبت أن سقوط جهازها النقال دفعها للانهيار والبكاء.

«لا أعرف ما حدث بالضبط». قالت وهي تشرح: «كنا في المطبخ حين دخل ابن أختي، كان في العاشرة سحب نقالي وراح يلعب به، كنت أتحدث مع أختي عن رحلتي لبيروجيا، ضايقني أن يحمل الصبي جهازي، شيء ما دفعني لقلق غير مبرر؛ فبدأت أتابعه، وفي اللحظة التي حاول فيها الخروج، ناديته فراح يضحك وهو يقفز حاملاً الجهاز، قمتُ من مكاني محاولة أخذ النقال، لكنه بحركة ظننتُ أنها مقصودة ألقى بالجهاز، فصدر عن سقوطه صوت عالٍ، صرختُ في وجهه كالمجنونة ودفعت بالصبي حتى سقط، لم أهتم به، كنتُ حملتُ جهازي وبدأت أتفحصه، حين وعيت لنفسي ورأيت أن الطفل وقع على رأسه وبدأ يبكي وهو يحدق في وجهي، أحسستُ بالغضب من نفسي وبدأت البكاء، حاولت أختي تهدئتي بلا جدوى، أحسستُ بالانهيار التام».

«ما الذي دفعك للبكاء؟». سألأ.

«لا أعرف أحسست بأنني أفقد الكثير، بأنني أفقد أغلى ما لديَّ، لم أتوقع أن يكون تعلقي بالجهاز بهذا الشكل، أليس غريباً؟ حتى إنني لم أعرف نفسي».

«ربما بسبب ذكرياتك وصورك في النقال، خوفك من فقدان تلك اللحظات الجميلة من حياتك، أنه يضم حياتك النقية».

«لا أعرف، أحسستُ بالفراغ، كأنني لست الشخص الذي أدعيه».

«ليس لهذه الدرجة، أشياؤنا الخاصة جزء من شخصيتنا، نغضب حين يُساء التعامل معها حتى من قبل الأطفال».

«حقّاً، هل حدث لك هذا؟».

لمس أصابعها ثم سحب يدها إليه.

«هاجمت أخي لأنه يستعمل حذائي الإيطالي، تصرف أخرجني عن طوري؛ فلم أحتمل أن يرتدي حذاء اقتنيته في لحظة صفاء».

ضحكتْ قليلاً ماسحة دموعاً تلمع في عينيها العسليتين، فبدت متوهجة مثل قطعة ذهبية.

بدت مثل قطع التوفي، تعبق برائحة منعشة.

«كلانا مجنون». قالتْ.

«شن وطبقه».

«ماذا تقصد؟». سألتْ بخبث.

«لا أقصد أيما شيء». أجاب وهو يمثل دور الملاك.

«حتى لو قصدت فلن تقول، ألم تقل إنك أصبحت تخاف مني».

«أعتقد أنني سأقول لو كنت أقصد شيئاً، لكنني أخاف منكِ».

«هل تتفق معي دائماً؟».

«أتفق معكِ الآن».

«ودائماً؟».

«لا أعرف، ربما ظللتِ هكذا».

«كيف؟».

«كما أنتِ الآن».

«لا تريدني أن أتغير».

«هل تستطيعين البقاء دون تغير؟».

«لا أعتقد، لكن لو استطعتُ ألن يكون هذا رائعاً».

«سيكون رائعاً جدّاً، كأننا نعيش في الأبدية». ضحكتْ وهي تقترب منه، شعر بحرارة جسدها، تلفت نحو السلالم، كانتْ خالية تماماً ربما حتى الطابق الأول، لا صوت ولا أدنى حركة.

«أتشعر بي؟». قالتْ.

«نعم».

«كيف تشعر بي؟».

«أحياناً تكونين كالحمى في جسدي».

«هل تحب هذا؟».

«أحبه بجنون».

«أظن بأنك تفعل».

«ظنك صحيح».

كان جسده يشتعل. طوَّقها بذراعيه، شدها إليه، تأوهتْ في لحظة صغيرة هادئة مثل الحلم الصيفي، مر صوتها عبر الصالة شبه الخالية من الكتب، المجلدات الثقيلة المكدسة عند الزوايا المعتمة، أخذ يحدق في وجهها باتصال، في الجانب الظاهر من وجهها، بدتْ حزينة أو منتشية، عندها خطف منها قبلة سريعة ثم قبلة أخرى. قليل من الارتباك. استغربتْ من نعومة شفتيه. اصطدم الرأسان. ابتسامات وضحكات ثم بدأ الجنون يطبق عليهما شيئاً فشيئاً، أخذا يتعلمان بهدوء، كان يقودها بسرعة لطيفة. كانتْ له وكان لها. فنانة لبنانية من مجلة الكواكب تطالع نحوهما وعلى شفتيها ابتسامة دعائية مغرية. كانت تقبض بيديها أعلى كليته بقليل فيما ترك يده تركض بجنون عبر جسدها وقد بدأ البحث عن كنزه الأزلي الغامض. جسد القداسة. أصبحتْ لليد ذاكرة خاصة بها، شهوة جنونية ولا علاقة لشيء آخر بها. سمعته يتمتم بكلمات تائهة، أكثر شروداً من يده العمياء. حين هبط على شفتيها مجدداً كان العالم تغير كليّاً. نضج قلبها وأدركتْ أنها تنتمي إليه، فشعرتْ بالبهجة وتفتح قلبها. أحس بمذاق لسانها الدافئ وأسنانها مع قليل من الألم اللطيف. تمرد جسده كأن كلمة سرية ما حفزتْ كل شيء، فانطلقتْ شرارات العشق كالأطياف في الأجواء. عوالم أقدم منهما تنتفض شرارات في كل جزء من جسديهما المحمومين. ثبتها على الأرفف فيما كانت هي تبحث عن المزيد مثل وحش دموي لا يهدأ، التقط أنفاسه وبدأت تفعل الشيء ذاته.

كان شعرها قد انحل منهمراً في موجة واحدة معتمة، وقميصها الوردي انكشف قليلاً، وابتسامة بلهاء مغرية ارتسمت على وجهها. تطلع إليها بإيمان ثم أدرك أنه لن يخرج من ماضيه البغيض أبداً وأنه بلا شك يدور مثل تائه أبدي في ذات البقعة الجنونية. بوسع البشر أن يُقدموا على أمور بشعة. بدأ يتخيل لوحته الأسطورية التالية. بهذا الوجه الملائكي وبالبراءة

التي في عينيها العسليتين. تماثل فتاة كانتْ تطالع إلى الأعلى يوماً، بنفس اللهفة الساهمة وجسدها يرقص بجموح شهواني بين سبعة رجال منتشين. أدرك عندها أنه لن يستيقظ أدباً من ذكرياته البعيدة.

لوحته الكبرى لن تنتهي في أي يوم.

الزمن لن يكون كافياً.

خلال اللحظة التالية، هبتْ رياح باردة، جنونية لحد التوتر، دخلت من إحدى النوافذ في الطرف الأبعد من الطابق وقد فتحتْ عنوة، فتطايرتْ خصلات شعرها كراية إمبراطورية فتية، كانتْ تحدق بعينين متسعتين إلى الأعلى، بدتْ كأنها لا تُصدق ما يحدث. البرودة دفعت الدموع لتنساب من عينيه. لا نيران هذه المرة، مجرد فضاء شبه معتم وصوت الرياح مع زخات ريشية من الأمطار. أغمض عينيه لوهلة ثم فتحهما مجدداً شاعراً بنشوة بالغة الروعة. الاكتفاء الجسدي والروحي. ذكرى قديمة. المسار الشمسي ضمن العتمة الشفافة.

«قلائل من بوسعهم رؤية هذا». قال والده: «الجمال تفصيل صغير من الذاكرة».